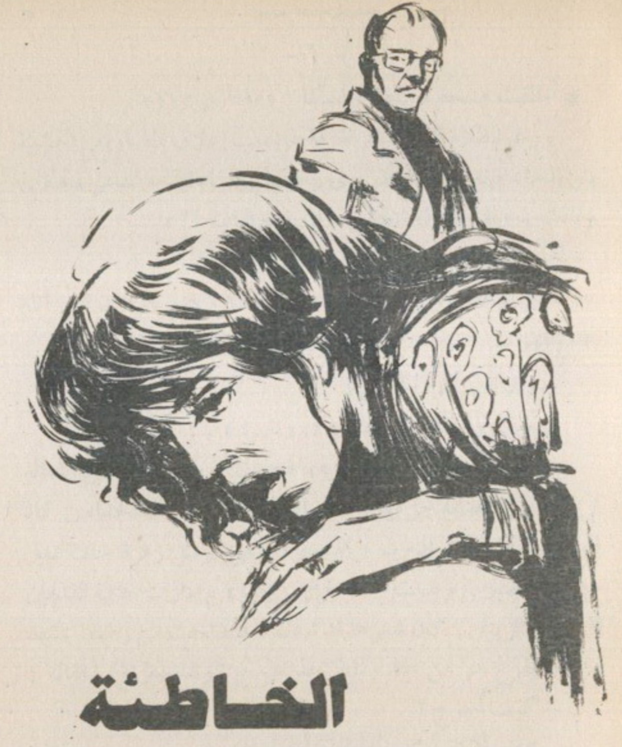

كتابي
الخاطئة
سومرست موم
Looloo
www.dvd4arab.com
الناشر
المؤسسة العربية الحديثة
للطبع والنشر والتوزيع
حلمي مراد



الخاطئة

THE PAINTED VEIL

تأليف : سومرست موم

- ١ -

● أطلقت صيحة مرتاعة ، فسألها : « ماذا جرى ؟ » .

ورغم الظلام الذى ساد الغرفة ، بسبب إغلاق المصاريع الخشبية لنوافذها ، فإنه استطاع أن يرى وجهها وقد استبد به الذعر فجأة .. وقالت : « لقد حاول شخص ما أن يفتح الباب !؟ » .

– لعلها الوصيفة .. أو أحد الخدم ؟

– إنهم قط لايأتون فى مثل هذا الوقت ، فهم يعرفون أننى أنام بعد الظهر ..

– إذن فمن يكون غيرهم ؟

فهمست وشفتاها ترتجفان : « وولتر ! » .

وأشارت لصاحبها إلى حذاءيه ، فحاول أن يلبسهما ، لكن انفعاله لم يمكنه ، إذ أصابه جزعها باضطراب ، فضلا عن أن الحذاءين كانا ضيقين .. فدفعت إليه بـ « اللبيسة » وهى ترسل زفرة خافتة تعبر عن نفاد الصبر .. وغيبت جسدها فى « روب » ثم سارت حافية القدمين إلى مائدة الزينة .. كان شعرها قد تهدل ، فأصلحت من وضعه بمشط قبل أن يفرغ هو من عقد رباط حذائه ، ثم ناولته سترته .. فقال :

– كيف أخرج ؟

– يحسن أن تتريث ريثما أطل وأطمئن .

– ما أظنه « وولتر » على أى حال ، فهو لايبرح المعمل قبل الخامسة ..

— إذن فمن يكون ؟

وكانا يتحدثان فى همس .. وأوحى إليه جزعها بأنها قمينة بأن تفقد جلدها فى الطوارىء ، فأحس بحنق طارئ يتولاه نحوها .. لم أنبأته — بحق الشيطان — بأن الجو آمن ، إذا لم يكن كذلك ؟

وأمسكت بأنفاسها ، وألقت براحتها على ذراعه ، فتبع نظرتها :: كانا يقفان فى مواجهة الأبواب المؤدية إلى الشرفة ، وقد أغلقت مصاريعها وأحكم رتاجها :: ورأيا الأكرة الخزفية البيضاء تتحرك فى بطء :: ولم يكونا قد سمعا أحداً يسير فى الشرفة ، فكان من المرعب أن يشهدا هذه الحركة الصامتة !

ومرت دقيقة ولما يسمعا صوتاً .. ثم :: وبنفس الطريقة المسترقة ، الصامتة ، المثيرة للفزع ، رأيا الأكرة الخزفية البيضاء للباب الثانى تتحرك ، وكأنما مستها قوة خفية غير طبيعية ! .. وكان الأمر باعثاً للذعر ، حتى أن أعصاب « كيتى » تداعت ، ففتحت فاها تهم بأن تصرخ ، لولا أنه رأى ما كانت موشكة عليه ، فوضع يده على فمها فى سرعة وخفة ، خنقتا صرختها بين أصابعه ..

وساد الصمت .. واستندت إليه وركبتاها ترتجفان ، فخشى أن تفقد رشدها .. وحملها — وهو عابس يصر على أسنانه — إلى فراشها فأجلسها عليه .. وكان وجهها فى شحوب الموتى .. وعلى الرغم من سمرته هو ، فإن الشحوب تبدى على وجنتيه هو الآخر .. ووقف

إلى جوارها ينظر إلى الأكرة الخزفية كالمسلوب .. وقد لاذ كلاهما بالصمت .. ثم تبين أنها كانت تبكى ، فهمس فى انفعال :

— لا تبكى بالله .. إذا لم يكن ثمة بد ، فلنواجه الأمر .. ولنتذرع برباطة الجأش ..

وتلفتت حولها كمن تبحث عن شىء ، فأدرك أنها تبغى منديلها ، وناولها حقيبتها ..

وسألته : « أين قبعتك ؟ » .

— تركتها فى الطابق الأسفل .

— أواه .. يا إلهى !

— هلا تمالكت نفسك .. من المؤكد أنه لم يكن « وولتر » ، فما الذى يدعوه إلى العودة فى مثل هذه الساعة ؟ :. أحسبه لا يأتى قط إلى البيت فى منتصف النهار .. أم ترينه يفعل ؟

— أبداً ..

— أراهنك بأى شىء يحلو لك أن الخادم هى التى حركت الأكرة ..

فجاهدت لترسم شبح ابتسامة على شفتيها ، وقد بعث صوته الحنون المفعم بالأحاسيس ، الطمأنينة إلى نفسها .. وأمسكت يده وأخذت تضغطها فى وجد ، فتركها لحظة كى تسترد جأشها ، ثم قال : « اسمعى .. إننا لا نستطيع البقاء هنا إلى الأبد .. هل تحسين بالشجاعة الكافية لأن تخرجى إلى الشرفة وتلقى نظرة ؟ » .

— ما أرانى أقوى على الوقوف ..

– هل لديك هنا أى نوع من الخمر ؟

فهزت رأسها بالنفى .. وغام على وجهه العبوس لحظة وقد أخذ صبره ينفد ، إذ لم يكن يدرى ما ينبغى له أن يفعل .. وفجأة ، اشتدت قبضتها على يده وتساءلت : « هب أنه ينتظر هناك ؟ » .

فاغتصب ابتسامة ، ورد إلى صوته نبرته الرقيقة المشجعة التى كان موقناً من مفعولها ، وقال :

– ليس هذا بالمحتمل .. تشجعى قليلا ياكيتى .. كيف يحتمل أن يكون زوجك ؟ .. لو أنه جاء ورأى قبعة غريبة فى الردهة ، وصعد السلم فوجد غرفتك مغلقة ، لأحدث شيئاً من الضجة بالتأكيد .. لابد أنه كان أحد الخدم .. فليس يتقن تحريك الأكرة بهذه الطريقة سوى الصينيين ..

واستردت طمأنينتها ، وقالت : « ليس الموقف مستحباً على أى حال ، حتى لو كانت صاحبة الحركة هى الوصيفة .. » .

– من الممكن تأنيبها ، ولو دعت الضرورة فنى وسعى أن أرهبها .. فمع أن منصبى الحكومى لا يكفل كثيراً من الميزات ، إلا أنه على كل حال يمكننى من أن أستغله قدر الإمكان ..

ورأت أنه ولا بد على حق ، فنهضت ، والتفتت نحوه باسطة ذراعيها ، فتناولها فى أحضانه وطبع على شفتيها قبلة ، أحست لها لذة قوية إلى درجة الإيلام – فلقد كانت تعبده ! – ثم أفلتها من ذراعيه فذهبت إلى باب الشرفة ورفعت المزلاج ثم فتحت المصراعين الخشبيين

وأطلت .. ؟ .. ولكن ، لم يكن ثمـة مخلوق .. فانسابت إلى الشرفة وأطلت داخل غرفة زوجها ، ثم داخل غرفة الجلوس الملحقة بمخدعها ، فإذا الغرفتان خاليتان .. وعادت إلى المخدع فأشارت له قائلة : « لا أحد هناك ! » .

– أعتقد أن الأمر كله كان نوعاً من خداع البصر ..

– لا تضحك ، فقد ذعرت مثلى .. اذهب إلى غرفة الجلوس وانتظرنى ، ريثما أرتدى جوربى وحذائى ..

– ٢ –

● وفعـل ما سألتـه ، ولم تنقض خمس دقائق حتى لحقت به .. وكان يدخن سيجارة ، فسألها : « نبئينى .. هل أستطيع أن أحظى بشىء من البراندى والصودا ؟ » .

– أجل ، سأدق الجرس ..

وارتقبا فى صمت ريثما لبى الخادم فأصدرت إليه الأمر ، ثم قالت لصاحبها : « اتصل تليفونياً بالمعمل واسأل عما إذا كان وولتر هناك .. فإنهم لا يعرفون صوتك ! » .

ورفع « السماعة » فطلب الرقم وسأل عما إذا كان الدكتور « فين » هناك ، ثم رد السماعة وقال لها : « لم يكن هناك منذ الظهيرة .. سلى الخادم عما إذا كان قد حضر إلى هنا » .

– يخيل إلى أننى سـوف أبدو فى وضع غريب لو أنه كان هنا ولم أره ..

وأحضر الخادم الشراب ، فتولى « تاونسند » صبه فى الكأسين ، وقدم لها إحداهما ، فهزت رأسها وتساءلت : « وماذا يكون العمل لو أنه كان وولتر ؟ » .

— لعله لا يحفل بالأمر ..

فهتفت منكرة : « وولتر ؟ »

— لقد خطر لى دائماً أنه خجول .. وإنك لتعرفين أن من الرجال من لا يقوون على احتمال مثل هذه المواقف ، وإن له من الإدراك ما يمكنه من أن يعرف أنه لن يجنى شيئاً من إثارة فضيحة .. لا أصدق دقيقة واحدة أنه كان وولتر ، وحتى لو أنه كان ، فاعتقادى أنه لن يفعل شيئاً ، وما أرى إلا أنه سيتجاهل الأمر ..

ففكرت لحظة وقالت : « إنه مدنف فى هواى » .

— وهذا خير وأفضل ، فلن تلبثى أن تؤثرى عليه .

وأولاها تلك الابتسامة الساحرة التى اعتادها ، والتى وجدت دائماً أن ليس فى وسعها أن تقاومها .. ابتسامة بطيئة كانت تبدأ فى عينيه الزرقاوين الصافيتين ، ثم تنتشر رويداً وبدرجات ملحوظة إلى فمه الجميل ، حيث تكشف عن أسنانه البيضاء المنسقة .. كانت ابتسامة فاتنة تذيب قلبها ..

وقالت فى فورة من الغبطة : « لست أحفل كثيراً ، فقد كانت المغامرة تستحق .. » .

— كان الذنب ذنبى ..

— لماذا جئت ؟ .. لقد دهشت إذ رأيتك :

— لم أستطع أن أقاوم ..

— يا لك من غال حبيب !

ومالت نحوه قليلا وعيناها اللامعتان السوداوان تحدقان فى عينيه فى وجد ، وقد انفرجت شفتاها قليلا فى اشتهاء ، فأحاطها بذراعيه .. وأسلمت نفسها إلى حماهما وهى تتنهد فى نشوة .. فقال :

— إنك لتعلمين أن بوسعك أن تركنى إلى دائماً .

— إننى جد سعيدة بك .. وبودى لو أستطيع أن أسعدك كما تسعدنى ..

— ألم تعودى خائفة ؟

فأجابت : « إننى أكره وولتر » .

ولم يدر بم يعلق على هذا ، فقبلها .. وأحس بوجهها ناعماً وهو يلتصق بوجهه .. وأمسك برسغها الذى كان محوطاً بساعة ذهبية صغيرة ، فقرأ الوقت .. ثم قال : « أتدرين ما الذى يجب أن أفعله الآن ؟ » :

قالت مبتسمة : « أتنسحب ؟ » .

وإذ هز رأسه بالإيجاب ، ازدادت تشبثاً به لحظة ، لكنها أحست برغبته فى الانصراف ، فأطلقته قائلة : « إن الطريقة التى تهمل بها عملك معيبة .. هيا فانصرف ! » .

ولم يكن يقوى على إغراء الغزل ، فقال فى مداعبة : « كأنى بك تتعجلين الخلاص منى » .

— إنك لتعلم أننى أكره أن أدعك تنصرف ..

وكان جوابها خافتاً ، عميقاً ، جاداً ، فأطلق ضحكة مغرية ، وقال : « لا تتعبى رأسك الجميل الصغير بالتفكير فى زائرنا الغامض ، فإنى واثق من أنه كان الخادم :. ولو حدثت أية متاعب فإنى كفيل بانتشالك منها ! » :

— أو لديك خبرة واسعة ؟

وابتسم فى عجب ولطف وقال : « لا » ، ولكننى أعترف لنفسى بأننى أوتيت رأساً يعرف كيف يفكر » .

— ٣ —

● خرجت إلى الشرفة ترقبه وهو يبرح الدار .. ولوح بيده لها .. كان النظر إليه يبعث فى نفسها متعة جارفة .. فبرغم أنه كان فى الحادية والأربعين ، فقد أوتى قواماً رشيقاً وخطوة متوثبة كالصبى !

وكانت الشرفة ظليلة ، فتباطأت متكاسلة وقد غمر قلبها الحب .. كان البيت يقوم فى « الوادى السعيد » على سفح التل ، إذ لم تكن وزوجها يملكان ما يمكنهما من سكنى الحى الراقى القائم فوق ذروة التل ،لارتفاع نفقات الإقامة فيه .. ولم يكد بصرها الشارد يطوف بالبحر الأزرق ، وبحركة السفن التى كانت الميناء تعج بها .. حتى عادت من جديد تفكر فى حبيبها .. كان من الغباء حقاً أن يتصرفا كما فعلا فى ذلك الأصيل ، ولكن .. أنى لها الحكمة والحجى إذا كان حبيبها ينشدها ؟ .. لقد جاء مرتين أو ثلاثاً فى فترة ما بعد الظهر ،

حين لا يفكر أحد فى أن يتحرك لفرط القيظ ، ومن ثم لم يره أحد — حتى الخدم — فى غدوه أو رواحه .. وفيما عدا هذه المرات كان التقاؤهما فى (هونج كونج) عسيراً للغاية .. كانت تكره المدينة الصينية ، ويتولاها الانفعال إذا ما ذهبت إلى ذلك المنزل الصغير القذر القائم فى طريق فيكتوريا ، حيث اعتادا أن يلتقيا من قبل .. وكان المنزل ملكاً لأحد تجار التحف والعاديات ، فكان الصينيون الذين يجلسون حوله يتطلعون إليها بنظرات لا ترتاح إليها نفسها ، كما كانت تمقت تلك الابتسامة المتملقة التى كانت ترتسم على وجه صاحب المحل المسن وهو يقودها إلى مؤخرة المتجر ، فإلى درجات سلم مظلم .. ثم يصعد بها إلى غرفة مشعثة ، كان السرير الخشبى الكبير القائم فيها لصق الحائط يبعث القشعريرة فى جسدها !

وقد قالت لتشارلى فى أول مرة قابلته فيها هناك : « هذا مكان حقير إلى درجة تثير الاشمئزاز .. أليس كذلك ؟ » .. فأجابها : « لقد كان كذلك حتى أتيت أنت إليه » .

ومن الطبيعى أنها نسيت كل شىء فى اللحظة التى احتضنها فيها بين ذراعيه !

أواه ! .. ما كان أبغض موقفيهما ! .. فهى ليست حرة .. بل إنه هو بدوره لم يكن حراً .. ولم تكن زوجته تروق فى عينيها ! .. واستقرت أفكارها لحظة على تلك الزوجة ، « دوروثى تاونسند » .. ما كان أتعس أن تسمى « دوروثى » ! .. كان اسماً ينم عن سن حاملته ،

ولقد كانت فى الثامنة والثلاثين على الأقل ، بيد أن تشارلى لم يتحـدث قط عنها .. لابد أنه لم يكن يحفل بها ، وأنها كانت تثير فى نفسه البرم والملل.. لكنه كان رجلا مهذباً .. وابتسمت كيتى فى وجد وسخرية .. هكذا كان ! .. قد يخون زوجته ، ولكنه قط لايسمح لكلمة تشينها أن تنفذ من بين شفتيه .. ولقد كانت « دوروثى » تعد بين طويلات القامة . كانت أطول من كيتى .. لا بالسمينة ولا بالنحيلة .. ذات شعر بنى فاتح . ولم يكن لها من الملاحة سوى ما يضفيه الشباب . كانت قسماتها مقبولة ، لكنها ليست بالتى تستلفت النظر .. وكانت عيناها الزرقاوان باردتين .. كما كانت لهـا بشرة لاتستطيع أن تنظر إليهـا مرتين لفرط بياضها ، ووجنتان لا حمرة فيهما .. أما أناقتها فكانت تليق بمركزها « كزوجة لمساعد مندوب وزارة المستعمرات — أى الحاكم — فى هونج كونج ! » .

وابتسمت كيتى وهى تهز كتفيها فى حركة خفيفة .. إن أحداً لا يمكن أن ينكر بطبيعة الحال أن لدوروثى تاونسند صوتاً يبعث البهجة فى النفس. وكان تشارلى يقول عنها دائماً إنها أم رائعة.. كانت من ذلك الصنف الذى اعتادت أم كيتى أن تصفه بـ « المرأة المهذبة» .. ومع ذلك فإن كيتى لم تشعر بميل نحوها . لم تحب سلوكها المصطنع ، إذ كان الأدب الذى تعاملك به إذا زرتها لتناول الشاى أو العشاء ، من النوع الذى تضيق به ، لأنه لايجعلك فى ريب من قلة ماتوليك من اهتمام ! .. والواقع ، كما خيل لكيتى ، إنها لم تكن تحفـل بشىء عـدا أولادها

— الذين كان اثنان منهما يدرسان فى انجلترا ، بينما كان الثالث مايزال فى السادسة من عمره ، وكانت تزمع اصطحابه إلى انجلترا فى العام التالى — ثم إن وجهها كان قناعاً لا يشف عما فى نفسها . كانت تبتسم وتتحدث بأدبها المعهود عن كل ما يرتقب منها أن تتناوله بالحديث ، لكنها برغم كل حفاوتها كانت تبقيك بمنأى عنها ، فلا تكاد تطمئن إلى حظوة لديها .. ومن ثم لم يكن لها فى المستعمرة من صديقات حميمات غير قلة كن يعجبن بها الإعجاب كله !

وكانت كيتى لا تفتأ تسائل نفسها عما إذا كانت مسز تاونسند قد اعتبرتها من طبقة لم ترق بعد إلى طبقتها ؟ .. وتضرج وجه كيتى . لم يكن ثمة داع — على أية حال — لأن تدعى ما ليس لها .. صحيح أن والد دوروثى كان حاكماً لإحدى المستعمرات ، وكان هـذا يضفى عليه العظمـة طيلة مـدة بقائه فى المنصب ، بحيث كان الجميع ينهضـون واقفين إجلالا له إذا دخل قاعة ما ، والرجال يرفعون قبعاتهم تحية له إذا مر بهم فى سيارته .. ولكن ، ما أتفه مقام حكام المستعمرات إذا ما أحيلوا إلى المعاش ! .. ومن ثم فقد عاش والد مسز تاونسند بعد إحالته إلى المعاش فى دار صغيرة بجهة (ايرلز كورت) .. ولعل والدة كيتى كانت لتجد غضاضة فى أن تذهب لزيارته ، لو سألتها ابنتها أن تفعل .. سيما وقد كان زوجهـا « برنارد جارستن » — والد كيتى — من حملة وسام الحمام بدرجة « كومودور » ، ولم يكن ثمة

ما يحول دون أن يعين يوماً قاضياً .. ثم إن الأسرة كانت تعيش فى حى «ساوث كنسنجتون» الراقى ، على أية حال !

— ٤ —

● ولقد كان قاسياً على نفس كيتى حين وفدت على هونج كونج عقب زواجها ، أن تجد نفسها مضطرة إلى أن ترتضى الواقع الذى تمثل فى أن مكانتها الاجتماعية كانت مرتبطة بمنصب زوجها .. صحيح أن كل فرد كان يبدى لهما عطفاً كريماً ، وأنهما قضيا شهرين أو ثلاثة وهما يحضرا الحفلات فى كل ليلة تقريباً ، وعندما دعيا إلى العشاء فى دار الحكومة ، آثرها الحاكم برعايته بوصفها عروساً .. لكنها سرعان ما أدركت أنها — كزوجة لبكتريولوجى الحكومة — ليست ذات مكانة ممتازة .. الأمر الذى أثار حنقها ، فقالت لزوجها: «هذا إسفاف فى السخف ! .. لا يكاد يكون بين القوم هنا من يستحق أن يعنى المرء به خمس دقائق لو أننا كنا فى وطننا .. وما كانت أمى لتفكر فى أن تدعو أياً منهم للعشاء فى دارنا» .. فأجابها زوجها بقوله: «لا تهتمى بذلك ، فهى مسألة لا قيمة لها كما تعرفين ..» .

— حقاً إنها مسألة تافهة ، ولا تنم إلا عن مدى غبائهم .. ولكن من السخرية حقاً أن نعامل هنا كما لو كنا من الأوشاب ، لاسيما إذا فكرت فى مكانة أولئك الذين اعتادوا أن يترددوا على دارنا فى الوطن ..

فقال مبتسما : «ليس لرجل العلم وجود ، من وجهة النظر الاجتماعية» .

ولقد أدركت ذلك الآن ، لكنها لم تكن تدركه حين تزوجت منه .. فقالت وهى تضحك لكى لا يبدو فيما قالته شىء من الادعاء والغرور : «ما أرانى أسر على أية حال لو دعانى وكيل إحدى الشركات هنا إلى تناول العشاء» .

ولعل الزوج أحس بالحسرة الكامنة خلف ما تظاهرت به كيتى من عدم اكتراث ، فقد تناول يدها فضغطها فى خجل وقال : «لشد ما أنا آسف ياعزيزتى كيتى ،ولكن لاتدعى هذا يعكر عليك صفوك».

— بالطبع .. لن أدعه !

— ٥ —

● لا .. لم يكن من المعقول أن يكون «وولتر» هو الذى حرك مقابض الأبواب بعد ظهر ذلك اليوم .. لابد أنه كان أحد الخدم ، وما كانت ثمة قيمة لذلك ، فإن الخدم الصينيين يعرفون كل شىء عن علاقتها بتشارلى على كل حال ، ولكنهم يمسكون ألسنتهم !

وازدادت خفقات قلبها إسراعاً إذ تذكرت كيف كانت الأكرة الخزفية البيضاء تتحرك على مهل .. لا ينبغى لهما أن يقدما مرة أخرى على هذه المخاطرة .: كان الذهاب إلى متجر التحف خيراً وأفضل ، فما كان ليساور أى شخص يراها تدخل ذلك المتجر أى هاجس ، كما أنهما كانا هناك بمأمن تام ، إذ كان صاحب المتجر يعرف تشارلى ومركزه ، ولم يكن من الحمق بحيث يؤلب على نفسه مساعد الحاكم .. ثم ما الذى كان يهمها ، اللهم إلا أن تشارلى كان يحبها !

وتحولت عن الشرفة عائدة إلى غرفة الجلوس ، فألقت بنفسها على الأريكة ، ومدت يدها لتتناول سيجارة ، فلمحت وريقه على أحد الكتب .. وبسطتها فإذا هى مكتوبة بالقلم الرصاص بخط إحدى صديقاتها :

« عزيزتى كيتى : هاك الكتاب الذى كنت تريدين . كنت على وشك إرساله حين قابلت الدكتور فين فقال إنه سيحمله إليك بنفسه إذ كان ماراً بالمنزل — ف . ه » .

ودقت الجرس . فلما وافاها الخادم سألته عمن أحضر الكتاب ، ومتى ، فأجاب : « أحضره السيد ياسيدتى ، بعد الظهر » .

إذن ، كان « وولتر » هو الذى حرك مقبضى البابين ! .. واتصلت تليفونياً لفورها بمكتب الحاكم وسألت عن تشارلى ، ثم أفضت إليه بما علمت .. وسادت فترة صمت قبل أن يجيب .. فساءلته : « ماذا أفعل ؟ » .

— إننى الآن فى اجتماع هـام ، وأخشى أن لا أستطيع الحـديث معك الآن .. ونصيحتى إليك أن تثبتى وتتجلدى ..

وأعادت السماعة إلى مكانها ، وقد أدركت أنه لم يكن وحيداً ، مما أثارها ضد عمله .. فجلست وأسندت رأسها إلى يديها وأخذت تمعن التفكير فى الموقف : كان من الطبيعى أن لا يكون « وولتر » قد ظن شيئاً اللهم إلا أنها كانت نائمة ، وفى هذه الحالة كان منطقياً أن توصد باب مخدعها أثناء نومها .. وحاولت أن تتذكر هل كانت و « تشارلى »

يتكلمان حين تحركت الأكرة ؟ .. كان من المؤكد أنهما لم يتكلما بصوت مرتفع .. ولكن ، كانت القبعة هناك .. وفى الواقع كان من الجنون أن يتركها « تشارلى » فى ردهة الطابق الأسفل .. غير أنه لم تك ثمة جدوى من لومه على ذلك ، إذ كان هذا التصرف منه طبيعياً .. ولم يكن هناك ما يوحى بأن « وولتر » قد لاحظها ، فمن المحتمل أنه كان فى عجلة فترك الكتاب والرسالة عليه ، وهو فى طريقه إلى موعد يرتبط بعمله .. ولكن الغريب فى الأمر فى هذه الحالة أن يكون قد حاول فتح باب المخدع ، ثم بابى الشرفة .. وإن يكن أغلب الظن أنه إذ فعل ، ولم تفتح الباب ، ظنها نائمة فلم يشأ إزعاجها .. فعلام إذن كل هـذه الهواجس الحمقاء !

وهزت نفسها لتفيق من هواجسها .. ومرة أخرى عاودها ذلك الألم المستعذب الذى أحسته فى فؤادها حين فكرت فى « تشارلى » .. كانت متعة اللقاء تستحق المخاطرة ! .. ولقد قال إنه سيقف إلى جوارها لو أن الأمور تطورت إلى أسوأ درجاتها .. إذن ، فليثر « وولتر » ضجة إن شاء ، فماذا يهمها ما دام تشارلى معها ؟ .. بل لعل من الخير لو ولتر أن يعرف ، فما اكترثت يوماً به .. وقد كان يسئمها ويمضها — منذ أحبت تشارلى تاونسند — أن تنصاع لعناق زوجها ! .. كانت ترجو أن تنقطع الصلات بينها وبينه .. ولم تكن تخشى أن يثبت عليها أية خيانة ، فما كانت ترى له أى سبيل إلى ذلك . ولو حدث أنه اتهمها لكان فى وسعها أن تنكر .. وإذا بلغ السيل الزبى ، ولم يعد فى وسعها

المضى فى الإنكار ، فإنها لن تتورع عن أن تلقى بالحقيقة فى وجهه ، وليفعل ما يحلو له !

-٦-

● لم تكن قد انقضت شهور ثلاثة على زواج كيتى ، حين تبينت أنها أخطأت .. ولكنها كانت غلطة أمها أكثر مما هى غلطتها ..

وكانت فى الغرفة صورة لأمها ، فوقعت نظرات كيتى المفعمة بالضيق عليها .. لم تكن تدرى لم احتفظت بها ، فهى لم تكن مشغوفة بأمها .. وكانت فى المنزل صورة لأبيها أيضاً ، ولكن هـذه كانت فوق المعزف فى الطابق الأسفل ، وكانت قد التقطت له حين عين فى المجلس الاستشارى للملك ، فكانت تمثله وهو بالشعر المستعار والعبـاءة .. ولكن هذين لم يفلحا فى إضفاء المهابة عليه ، فقـد كان ضئيل الجسم ، ذا عينين كليلتين ، وشفة عليا طويلة ، وفم رفيع ، ولعل المصور كان طيباً فسأله أن يبدو بشوشاً ، لكنه لم يفلح إلا فى أن يبدو صارم الطلعة .. وقد كان ذلك هو السبب الذى جعل « مسز جارستين » تختار هذه الصورة من بين « البروفات » العديدة ، ظناً منها أنها تبديه فى هيئة القضاة ، إذ كان ركنا فمه ملتويين فى العادة إلى أسفل ، وعيناه كئيبتين ، مما كان يضفى عليه وجوماً ووقوراً ! .. أما صورتها هى ، فكانت تظهرها فى الثوب الذى حضرت فيه حفلة الاستقبال فى البلاط الملكى حين نصب زوجها مستشاراً للملك .. وكانت تبدو ضخمة فى الثوب المخملى ، وقد نسق ذيله الطويل ليزيد

من رواء مظهرها ، بينما ثبتت بعض الريش فى شعرها ، وأمسكت بزهور فى يدها .. وكانت الأم امرأة فى الخمسين ، معتدلة القامة ، ذات صدر منبسط ، ووجنتين برزت عظامهما ، وأنف كبير معتدل .. وكان لها شعر أسود كثيف مفرط النعومة ، طالما ارتابت كيتى فى أن يد الصـانع عملت على تجميله ، ما لم يكن مصبوغاً .. وكانت أبرز ما فيها عينان بديعتا السواد ، لا تستقران قط ، إذ كان يأخذك وأنت تتحدث إليها أن ترى تلكما العينين لا تهدآن وسط وجهها الشاحب بل تتنقل نظراتهما من جزء منك إلى آخر ، ثم تنتقل إلى الأشخاص الآخرين فى الغرفة ، ولا تلبث أن ترتد إليك ، فتشعر بأنها تنتقدك ، وتسبر غورك ، وهى فى الوقت ذاته ترقب كل ما يجرى حولها .. كما تشعر بأن لا علاقة لفكرها بالكلمات التى تقولها ! ..

-٧-

● كانت مسز جارستين امرأة صعبة المراس ، متسلطة ، طموحاً شحيحة ، غبية .. كانت إحدى بنات خمس رزق بهن محام فى ليفربول .. وقد التقى بها « برنارد جارستين » حين كان عضواً فى الدائرة القضائية الشمالية ، وكان إذ ذاك يبدو شاباً ذا مستقبل ، قال عنه أبوها إنه لن يلبث أن يرقى سلم التقدم .. ولكنه لم يرق .. كان مجداً ، عاملا ، قديراً ، لكنه لم يؤت الإرادة التى تمكنه من أن يتقدم .. فكانت جارستين تزدريه ، بيد أنها كانت تدرك – فى مرارة – أن لا سبيل لها إلى النجاح إلا عن طريقه ، فوطدت العزم على أن تدفعه إلى حيث كانت تريد

أن تصل ، وراحت تضايقه فى غير ما رحمة ، إذ اكتشفت أنها إذا
أرادت منه أن يفعل شيئاً تستنكفه إحساساته ، فليس عليها سوى أن
توسعه مضايقة ، فلا يلبث إذا ما أرهق أن يستسلم لإرادتها .. وشرعت
من ناحيتها تتقرب إلى من يكون لهم نفع من الناس ، فتتملق الوكلاء
القانونيين ليحيلوا قضاياهم على زوجها ، وتتقرب إلى زوجاتهم ...
وتلين جانبها للقضاة ونسائهم ... وتبدى الإكبار للسياسيين الذين
يرتقب لهم مستقبل ... إلخ .

وهكذا ، خلال خمس وعشرين سنة ، لم تدع مسز جارستين أحداً
لتناول العشاء فى دارها ، عن مودة أو محبة خالصة .. كانت تقيم
ولائم عشاء كبيرة فى فترات منتظمة، ولكن الشح كان لا يقل عن
الطموح فى أخلاقها .: كانت تكره إنفاق المال .. وكانت تزهو
بأنها تستطيع أن تظهر كخير ما تظهر أية سيدة أخرى ، بنصف
النفقات اللازمة ! .. وكانت مآدبها حافلة ، متقنة الإعداد ، ولكن
الاقتصاد كان يشيع فيها .. فما كانت لتصدق أن الناس يفطنون إلى
أى نوع من الشراب هم يشربون أثناء انصرافهم إلى الأكل أو الحديث
.. وكانت تلف زجاجة الشراب المتوسط الجودة فى فوطة وهى معتقدة
أن الضيوف سيأخذونها على أنها « شامبانيا » !

وكان زوجها « برنارد جارستين » على قدر لا بأس به من المعرفة ،
ولكنه لم يؤت تجربة أو خبرة واسعة ، فلم يلبث الرجال الذين كانوا
متخلفين عنه ، أن سبقوه ! .. ولقد دفعته مسز جارستين إلى أن يرشح

نفسه للبرلمان ، وتحمل الحزب نفقات الحملة الانتخابية ، غير أن
تقتيرها عرقل طموحها فى هذا الميدان أيضاً ، لأنها لم تقو على أن تقنع
نفسها بإنفاق ما يكفى لكسب الدائرة .. وكانت التبرعات التى قدمت
باسم برنارد جارستين للهيئات التى لا حصر لها ، والتى يرتقب من
المرشح أن يتبرع لها ، أقل مما ينبغى بنسبة بسيطة ، ومن ثم فقد هزم .:
وتقبلت مسز جارستين الخيبة بجلد ، وإن كانت قد تمنت لو أنها
أصبحت زوجة عضو برلمانى .: على أن ترشيح زوجها قد عرفها
بعدد من الأشخاص المبرزين ، فأقبلت على كسب ودهم وضمهم
إلى مدعويها فى المآدب ! .. كانت تعرف أن برنارد ما كان ليبرز فى
مجلس النواب ، وإنما أرادته أن يسجل لنفسه على حزبه فضلا يستطيع
أن يدعيه لنفسه ، ليستغله فيما بعد للوصول إلى الوسام الذى كانت
تحلم به .: بيد أنها لقيت فى هذا الصدد عناداً من زوجها لم يكن لها به
عهد منذ سنوات ، فقد كان يخشى أن يقل عدد أصحاب القضايا الذين
ينشدون مشورته ، إذا ما حاز وسام الحمام وصار مستشاراً فى المجلس
الملكى الخاص ، وراح يقول لها إن عصفوراً فى اليد خير من اثنين على
الشجرة ، فكانت تجيبه بأن الحكم والأمثال آخر ما يلجأ إليه ذوو
العقل الناضج ! .. وأوحى إليها بأن دخله قد يهبط بعد الوسام إلى
النصف — وهو يدرك أن لا شىء يقنعها قدر الحديث عن نقص الدخل —
ولكنها لم تشأ أن تصغى لحجته ، ووصفته بأنه هياب متقاعس ، وراحت

تنغص عيشه :: حتى انصاع لها فى النهاية كعادته ، وسعى إلى الوسام حتى ناله !

وصدقت مخاوفه ، فإنه لم يتقدم خطوة نحو الزعامة السياسية ، كما أن قضاياه قلت عدداً ، بيد أنه كان يخفى كل استياء يساوره ، وكان إذا أنحى باللائمة على زوجته ، لامها فى نفسه دون أن يجرؤ على الجهر :. ولعله ازداد جنوحاً إلى الصمت ، ولما كان صامتاً فى بيته بطبعه ، فإن أحداً فى الأسرة لم يلحظ أى تغيير عليه .:

وكانت ابنتاه لا تنظران إليه إلا كمصدر للدخل ! :: كان يبدو لها أن من الطبيعى أن يشقى ويكدح ليوفر لهما المأوى ، والكساء ، والنزهات فى العطلات ، والمال اللازم لمطالبهما .. فلما خيل إليهما أن الذنب كان ذنبه فى انخفاض دخله ، خالط عدم اكتراثهما له شىء من السخط :. وما خطر لها أن تسائلا نفسيهما عن مشاعر الرجل الضئيل الجسم ، المغلوب على أمره ، الذى كان يغادر داره مبكراً فى الصباح ، ولا يعود فى المساء إلا قبيل العشاء :. فقد كان أشبه بالغريب عنهما ، ولكنهما كانتا مطمئنتين إلى أن من واجبه أن يحبهما وأن يعنى بهما ، ما دام أبوهما !

— ٨ —

● على أن مسز جارستين أوتيت نوعاً من الشجاعة كان فى حد ذاته يدعو إلى الإعجاب :: فهى لم تدع فرصة لأحد من المتصلين بها عن قرب — والذين كانوا يؤلفون دنياها الخاصة — كى يستبين مدى

أساها لخيبة آمالها .. ومن ثم لم تبدل شيئاً من نهجها فى الحياة ، بل استطاعت بشىء من التدبير أن تواصل إقامة المآدب الفخمة التى كانت تقيمها من قبل ، ومضت تقابل أصدقاءها بنفس البشاشة التى راضت نفسها عليها منذ زمن ، وكان لديها رصيد من الثرثرة تحيله فى المجتمع الذى كانت تظهر فيه إلى أحاديث ! .. وكانت ضيفاً نافعاً لدى أولئك الذين لا يسهل عليهم فتح أبواب الحديث ، فكانوا يعتمدون عليها فى المبادرة إلى تبديد أى صمت واجم ، بابتكار ملاحظة مناسبة تعيد سير الحديث ..

ولم يعد من المحتمل أن يعين برنارد جارستين بين قضاة المحكمة العليا ، بيد أن الأمل بقى فى أن يعين قاضياً فى محكمة إحدى المقاطعات ، أو — على أسوأ الاحتمالات — أن يعين فى أحد مناصب المستعمرات . وارتاحت الزوجة ، ريثما يتحقق شىء من هذا ، إلى أن تراه يعين « مسجلا » فى إحدى مدن مقاطعة « ويلز » .. وفى أثناء ذلك حولت آمالها إلى ابنتيها ، فقد داخلها الرجاء فى أن تستطيع — بتدبير زيجتين طيبتين لها — أن تعوض ما أصاب جهودها بشأن زوجها من خيبة .. ولم تكن صغراهما « دوريس » قد أوتيت شيئاً من الملاحة ، إذ كان أنفها مفرط الطول ، وشكلها ضخماً غير متناسق .. لذلك لم تكن مسز جارستين ترجو لها أكثر من أن تتزوج شاباً عادياً يمارس مهنة مناسبة .

أما الابنة الكبرى « كيتى » فكانت جميلة ، وكانت منذ طفولتها

توحى بأنها ستغدو كذلك ، إذ كانت لها عينان سوداوان واسعتان ، متألقتان أخاذتان ، وشعر مجعد ، بنى اللون مشوب بحمرة خفيفة .. وأسنان ناصعة ، وبشرة بديعة .. ولو أخذت ملامحها ، كل على حدة ، لما كان لها طابع ممتاز فى الحسن ، إذ كانت ذقنها عريضة، كما كان أنفها ضخماً — وإن لم يكن فى طول أنف « دوريس » — وإنما كان جمالها يستند إلى شبابها .. وقد أدركت مسز جارستين أنها يجب أن تتزوج فى باكورة أنوثتها ، فما هى أن أصبحت فى طور الشباب حتى غدت خلابة . كانت بشرتها لا تزال أعظم عناصر جمالها ، وأما عيناها، بأهدابهما الطويلة ، فكانتا ذاتى وميض هادئ، ونظرات دافئة — فى نفس الوقت — حتى إن قلبك ليخفق إذا ما تطلعت إليهما !.. وقد أوتيت بشاشة ورغبة فى أن ترضى كل إنسان ، فأضفت أمها مسز جارستين عليها كل حنانها .. وكان حناناً جافاً ، متحفزاً ، لا ينفك يحسب ويقدر .. وراحت تحلم برؤى قد نسجها الطموح .. ولم تقف عند حد الأمل فى زيجة طيبة لابنتها ، بل طمعت فى زواج باهر !

ولقد نشأت كيتى وهى تدرك أنها ستغدو امرأة جميلة ، كما أوحت إليها مطامع أمها التى تمشت مع رغباتها :: وما لبثت مسز جارستين أن دفعتها إلى المجتمع ، ولم تدخر وسعاً فى السعى لأن تدعى إلى الحفلات الراقصة حيث يحتمل أن تلتقى ابنتها بالرجال الذين يليقون بها .. وصادفت كيتى نجاحاً ، فقد كانت لطيفة بقدر

ما هى جميلة ، وسرعان ما اقتنصت عدداً من الرجال الذين هاموا بها ، ولكن أحداً منهم لم يكن ليلائمها ، ومن ثم حرصت كيتى — فى لطف ومودة — على أن لا تمادى فى علاقتها بأى منهم .. وأصبحت قاعة الاستقبال فى دار الأسرة بجهة «ساوث كينسنجتون» تزخر فى الأصيل من أيام الآحاد، بالشبان المتيمين .. بيد أن مسز جارستين لاحظت — فى ابتسامة راضية — أنها لم تكن فى حاجة إلى أن تبذل أى جهد لتبقيهم بمنأى عن كيتى .. فقد كانت كيتى على استعداد لأن تلعب بهم ، وكان يحلو لها أن تضرب الواحد منهم بالآخر ، ولكنها كانت إذا ما عرضوا عليها الزواج — وما أحجم واحد منهم عن المحاولة — رفضت فى لباقة وحزم !

ومر الفصل الأول لظهورها فى المجتمعات ، ولما يتقدم إليها الخطيب المثالى المرجو !.. وتلاه الفصل الثانى .. ولكنها كانت صغيرة وفى وسعها أن تنتظر .. وراحت مسز جارستين تقول لصديقاتها إنها ترثى للفتاة التى تتزوج قبل الحادية والعشرين ! .. بيد أن عاماً ثالثاً تقضى ، وأعقبه رابع .. وعاد اثنان أو ثلاثة من المعجبين القدماء يطلبون يدها ، غير أنهم كانوا لايزالون معدمين .. وخطبها واحد أو اثنان كانا أصغر منها سناً .. كذلك تقدم إليها أحد الموظفين المدنيين السابقين بحكومة الهند ، إلا أنه كان فى الثالثة والخمسين من عمره !.. وكانت كيتى لا تزال تتردد على حفلات الرقص ، والمسارح الراقية ، وميادين السباق ، غير مدخرة وسعاً

فى الترفيه عن نفسها والاستمتاع بما فى تلك المحافل .. ومع ذلك ، فقد ظلت دون أن يتقدم أحد ذو مركز ودخل يبعثان على الرضى ، يسألها الزواج ..

وبدأت مسز جارستين تشعر بقلق متزايد ، إذ لاحظت أن كيتى لم تعد تجتذب سوى أبناء الأربعين وما بعدها ، فراحت تذكرها بأنها لن تظل على جمالها عاماً آخر أو عامين ، وأن ثمة أجيالا من الشابات تبرز إلى المجتمع تباعاً .. ولم تقتصد مسز جارستين فى كلماتها أو تخفف من وقعها فى وسط الأسرة ، بل مضت تنذر ابنتها فى لهجة لاذعة بأن سوقها لن تلبث أن تكسد !

وكانت كيتى تهز كتفيها ، وهى تظن نفسها جميلة كعهدها – بل أجمل ، لأنها تعلمت فى السنوات الأربع الأخيرة كيف تنتقى ثيابها وتحسن ارتداءها – وتخال أن الزمن لا يزال فسيحاً أمامها .. ولو أنها شاءت أن تتزوج – لمجرد الزواج – لكان أمامها أكثر من عشرة من الشبان على استعداد لتلقف الفرصة .. ومن المؤكد أن الرجل المنشود والملائم لن يلبث أن يأتى ، طال الأمد أو قصر .. ولكن مسز جارستين كانت ترقب الموقف فى توجس ، ومن ثم خففت من تعنتها إزاء الزوج المنتظر ، والسخط يملك نفسها على الابنة الجميلة التى أضاعت الفرص .. فولت وجهها شطر طبقة أصحاب المهن الحرة التى كانت فى البداية تمتعض منها فى كبرياء ،

وبدأت تبحث عن محام شاب أو رجل أعمال يوحى لها مستقبله بالثقة ..

وبلغت كيتى الخامسة والعشرين ولما تكن قد تزوجت ، فنفد صبر مسز جارستين ، ولم تعد تتردد فى أن تجاهر كيتى فى مناسبات كثيرة بأسوأ ما فى ذهنها .. فكانت تسألها إلى متى تتوقع أن يعولها أبوها ، وقد أنفق فوق طاقته لكى يتيح لها الفرصة فلم تنتهزها !؟.. وما خطر ببال مسز جارستين أن تعنتها هى ربما كان السبب فى إرهاب الرجال الذين شجعتهم بمنتهى الحفاوة على التردد على دارها ، من أبناء ذوى اليسار أو ورثة الألقاب .. وإنما عزت فشل كيتى إلى غبائها !

ثم آن للابنة الصغرى « دوريس » أن تظهر فى المجتمعات ، وكانت لا تزال طويلة الأنف ، ولم تك تحسن الرقص .. ومع ذلك فقد خطبت فى الموسم الأول إلى « جفرى دنيسن » ، وكان الابن الأوحد لجراح ثرى حصل على لقب « سير » خلال الحرب .. ومن ثم كان مقدراً لجفرى أن يرث اللقب .. وقد لا يكون الطبيب « السير » رفيع المقام إلى الدرجة المنشودة ، ولكن للقبه وقعه على أية حال ، والحمد لله .. فضلا عما وراءه من ثروة طيبة ..

وهكذا ، وفى ذعر ، اضطرت الأخت الكبرى « كيتى » إلى قبول الزواج من « وولتر فين » .

- ٩ -

• كانت قد تعرفت إليه قبل ذلك بأمد وجيز فلم تحفل به كثيراً .. ولم تكن تذكر متى التقيا لأول مرة ولا أين ، حتى أنبأها بعد خطوبتهما بأن ذلك حدث فى حفلة راقصة صحبه إليها بعض الأصدقاء .. وكان من المحقق أنها لم تنتبه إليه إذ ذاك ، وأنها إذا كانت قد راقصته فلأنها كانت سمحة النفس تراقص أى شخص يسألها .. ولم تعرفه حين تقدم منها بعد يوم أو يومين – فى حفلة راقصة أخرى – وتحدث إليها .. ثم لاحظت أنه كان يحضر كل حفلة راقصة تذهب إليها .. فما لبثت أن قالت له أخيراً فى لهجتها الضاحكة : « لقد رقصت معك أكثر من عشر مرات كما تعرف ، وقد آن لك أن تنبئنى باسمك .. » .

وبدا عليه أنه بهت .. وسألها : « أتعنين أنك لا تعرفينه ؟.. لقد قدمت إليك ! » .

– ولكنك تعلم أن الناس دائماً يدغمون حروف الأسماء أثناء التعريف :. ولن يدهشنى إذا تبينت أن ليست لديك أية فكرة عن اسمى :.

فابتسم .. وكانت ابتسامته عذبة رغم أن وجهه كان جامد الملامح ، يسيطر عليه شىء من الصرامة .. وقال : « بل إننى أعرفه » .. وسكت لحظة أو اثنتين ، ثم سألها : « أليس بك شىء من الفضول ؟ » .

– بى منه ما بمعظم النساء ..

– ومع ذلك فلم يخطر لك أن تسألى هذا أو ذاك عن اسمى ؟

وتولاها بعض الدهشة ، وعجبت مما يدعوه إلى الظن بأنها اهتمت به أدنى اهتمام !.. لكنها كانت تميل دائماً إلى أن تدخل السرور على القلوب ، ولذا تطلعت إليه بابتسامتها الخلابة ، فإذا عيناها الجميلتان تفيضان رقة فاتنة ، وقد لاحتا كبحيرتين رقراقتين بين أشجار غابة .. وقالت : « فما اسمك إذن ؟ » .. وأجاب : « وولتر فين » .

ولم تكن تدرى لم كان يتردد على الحفلات الراقصة ، فهو لم يكن يحذق الرقص ، ولا كان يعرف كثيراً من القوم .. وطاف ببالها أنه ربما كان قد أحبها ، ولكنها طرحت عنها هذا الخاطر بهزة من كتفيها ، فلطالما عرفت فتيات يخلن أن كل رجل قابلنه قد وقع فى هواهن ، فكانت تعتبرهن سخيفات .. على أنها أولت « وولتر فين » بالتدريج مزيداً من اهتمامها ، فتبينت أنه لم يسلك مسلك الشبان الآخرين الذين أحبوها .. إذ أن معظمهم كان يفاتحها بحبه فى صراحة ويسعى إلى أن يقبلها .. كثيرون فعلوا ذلك .. بيد أن « وولتر فين » لم يتحدث قط عنها ، وقلما تحدث عن نفسه .. وإنما كان يميل إلى الصمت ، ولم تجد فى هذا ضيراً ، إذ كان لديها مورد لا ينضب من الأحاديث ، وكان يسرها أن تراه يضحك إذا صدرت عنها ملاحظة فكهة .. أما حين كان يتكلم ، فقد كان كلامه بعيداً

عن السخف والغباء .. كان من الجلى أنه خجول .. وظهر لها أنه كان يقيم فى الشرق ، وأنه جاء إلى انجلترا فى عطلة .

وفى أصيل يوم أحد ، ظهر فى دار أسرتها فى (ساوث كينسنجتون) .. وكان ثمة عدد من الناس ، فجلس بعض الوقت فى غير ارتياح ، ثم انصرف .. وعندما سألتها أمها عنه فيما بعد ، قالت : « ليست لدى أية فكرة عن سبب حضوره ، فهل دعوته ؟ » .

فأجابت الأم : « أجل .. قابلته لدى آل (باديلى) ، وقد قال : إنه رآك فى عدة حفلات راقصة ، ومن ثم ذكرت له إننى عادة أمكث فى البيت فى أيام الآحاد » .

– إن اسمه « فين » ، وهو يتولى منصباً فى الشرق ..

– أجل .. إنه طبيب .. أفهل هو يحبك ؟

– لعمر الحق .. لست أدرى !

– كان خليقاً بك أن تكونى قد أصبحت تميزين ما إذا كان أى شاب يحبك ..

فقالت كيتى فى استخفاف : « ما أرانى أتزوجه ولو كان يحبنى » .

ولم تجب مسز جارستين ، ولكن صمتها كان مكفهراً بالاستياء .. وتضرج وجه كيتى وقد أدركت أن أمها لم تعد تحفل بمركز من يتقدم للزواج منها قدر ما تحفل بأنه سيحمل عنها عبء إعالتها !

– ١٠ –

● وقابلته « كيتى » فى الأسبوع التالى فى ثلاث حفلات راقصة ، فبدأ يخرج عن صمته وقد خف خجله واستحياؤه .. فتبينت أنه كان طبيباً بالفعل ، ولكنه لم يمارس الطب العلاجى ، إذ كان بكتريولوجياً – أى أخصائياً فى التحليل الطبى وأبحاث المعامل – وإن لم تكن كيتى تدرك هذا المعنى على أتمه .. وكان يتولى منصباً فى (هونج كونج) ، سيعود إليه فى الخريف .. وراح يكثر من التحدث إليها عن الصين .. وكانت قد راضت نفسها على أن تبدى الاهتمام بما يحدثها عنه الناس .. والواقع أن الحياة فى هونج كونج بدت لها من خلال أحاديثه مشرقة ، فقد كانت ثمة منتديات ، و « تنس » وسباق خيل ، و « بولو » ، و « جولف » ... إلخ .

وسألته : « أو يقيم الناس حفلات راقصة كثيرة هناك ؟ » .

– آه .. أجل .. أظن ذلك ..

وساءلت « كيتى » نفسها عما إذا كان قد أخبرها بهذه الأمور مدفوعاً بحافز ما ؟.. كان يلوح أنه يستعذب صحبتها ، ولكنه لم يعمد قط إلى ضغطة من يد ، أو نظرة ، أو كلمة توحى بأنه إشارة إلى أنه يعتبرها أكثر من فتاة التقى بها وراقصها .. ولكنه عاد إلى زيارة دارها فى يوم الأحد التالى .. وصادف أن عاد أبوها أيضاً إلى الدار ، إذ حرمه المطر من لعب « الجولف » ، فتجاذب الحديث طويلا مع « وولتر فين » .. وسألت أباها فيما بعد عما دار بينهما ، فقال :

– يبدو أنه موظف فى هونج كونج ، حيث كبير القضاة من زملائى القدامى فى المحاماة .. ويظهر أنه شاب ذو ذكاء فذ .

وكانت تعلم أن أباها كان يضيق بالشبان الذين اضطر لعدة سنوات أن يستقبلهم من أجلها ، ثم من أجل أختها .. فقالت : « ما رأيتك تميل كثيراً إلى أصدقائى الشبان يا أبت » .

فاستقرت نظراته الرحيمة المنبعثة من عينيه الكليلتين عليها ، وقال : « هل خطر لك أن تقبلى الزواج منه ؟ » .

– لا ، بالتأكيد ..

– هل هو يحبك ؟

– لم يبدر منه ما ينم عن ذلك ..

– هل تميلين إليه ؟

– ما أظننى أميل إليه كثيراً .. بل إنه يضجرنى بعض الشيء .

والواقع أنه لم يكن من طرازها .. كان قصيراً ، ولكنه لم يكن ربعة ممتلىء الجسم ، بل كان يميل إلى النحول ، وكان أسمر البشرة ، حليقاً ، ذا قسمات منتظمة ، متناسقة ، بديعة .. وكانت عيناه سوداوين تقريباً ، ولكنهما لم تكونا واسعتين ، ولا كثيرتى الحركة ، بل كانتا تستقران على الشيء فتطيلان النظر إليه .. وكان أنفه المستقيم الرشيق ، وجبينه الوضاء ، وفمه البديع ، كفيلة بأن تجعله مليح الشكل .. ولكنه لم يكن كذلك .. مما كان يبعث على الدهشة !..

ولقد عجبت كيتى – إذ شرعت تفكر فيه – من أن تكون له هذه

القسمات المليحة ، إذا فحصت كل منها على حدة ، ثم لا يجذبها مع ذلك !.. وكانت سيماه تنم عن شيء من السخرية الناقدة .. وقد أدركت كيتى – إذ عرفته أكثر من ذى قبل – أنها لم تك ترتاح إليه لأنه لم يكن على شيء من المرح ..

وما أن أشرف الموسم على نهايته حتى كانا قد تقابلا كثيراً ، ولكنه ظل على ما كان عليه ، لا يشف عن شيء .. ولم يكن ما يتولاه فى حضرتها خجلا ، وإنما كان ارتباكاً وحرجاً .. وظل حديثه بعيداً عن شخصيهما ، مما انتهى بكيتى إلى أن تستنتج أنه لم يكن لها أى حب ، وإنما كان يميل إليها ، ويستطيب الحديث معها ، ولن يلبث إذا ما عاد إلى الصين فى نوفمبر أن يكف عن التفكير فيها .. بل إنها لم تر من المستبعد أنه كان طيلة الوقت على ارتباط بخطيبة ، لعلها ممرضة فى أحد مستشفيات هونج هونج ، أو ابنة أحد رجال الدين .. خطيبة بليدة الفهم ، بسيطة ، ذات قدمين مسطوحتين لا تنى عن العمل فى دارها .. فقد كان هذا هو الطراز الذى يليق به من الزوجات !

ثم جاءت خطبة دوريس إلى جفرى دنيسن .. كانت دوريس فى الثامنة عشرة ، ومع ذلك فقد وفقت إلى زواج مناسب .. أما هى فلم تخطب أو تتزوج برغم أنها بلغت الخامسة والعشرين !.. ولعلها لن تتزوج البتة ، فإن الوحيد الذى تقدم فى هذا الموسم يطلب يدها لم يكن سوى صبى فى العشرين من عمره لا يزال يطلب العلم فى

أكسفورد – وما كان لهـا أن تتزوج من فتى يصغرها بخمس سنوات !:: لقد أضاعت الفرص التى سنحت لهـا : ففى العام الماضى رفضت أرملا يحمل لقب « سير » وقد خلفت له زوجته السابقة ثلاثة أطفال ، فودت الآن لو أنها لم ترفضه ، سيما وأن أمها لن تلبث أن تسف فى فظاظتها :: كما لن تلبث دوريس – دوريس التى طالما أهملت من أجلها ، إذ كان الأمل معقوداً على كيتى فى اصطياد الزوج اللامع – دوريس هذه ، لن تلبث أن تسخر منها :

وأحست كيتى بقلبها يغوص فى صدرها تحت ثقل أساها !

– ١١ –

● بيد أنها لم تلبث ذات أصيل – وكانت تتمشى فى طريقها من منتدى (هارود) إلى دارها – أن صادفت « وولتر فين » فى طريق (برومبتن) ، فوقف يجاذبها أطراف الحـديث :: ثم سألها عفواً عما إذا كان يروق لهـا أن تصحبه إلى نزهة فى حدائق (بارك) ؟ ولم تكن بها رغبة ملحة فى العودة إلى الدار ، سيما وإن الدار لم تكن فى تلك الآونة بالمكان الذى ترتاح إليه ، فراحـا يتمشيان وهمـا يتجاذبان أطراف الحديث فيما ألفاه من موضوعات عابرة :: وسألها عن المكان الذى ستقضى فيه الصيف ، فقالت :

– آه :: إننا ندفن أنفسنا عادة فى الريف :: فإنك لتعلم أن أبى يكون مرهقاً بعد الدورة القانونية ، ومن ثم فنحن نقصد أهدأ مكان نستطيع أن نجده ::

وكانت كيتى تتكلم محجمة ، إذ كانت تعلم أن أباها لا يكاد يجد من العمل ما يضنيه .. وحتى إذا وجد العمل الذى يرهقه ، فإن راحته لم تكن بين العوامل التى يحسب لهـا حساب فى اختيار مقصد الأسرة فى العطلات !.. وإنمـا كانت تختار الأماكن الهـادئة لقلة نفقاتها !

وسألها وولتر فجأة : « ألا ترين أن هذين المقعدين يغريان بالجلوس ؟ » :: وتبعت نظراته ، فرأت مقعـدين أخضرين بمعزل فوق العشب تحت إحدى الأشجار ، فقالت : « لنجلس عليهما » :

ولكنهما لم يكادا يجلسان حتى بدأ ذهنه يشرد بشكل عجيب :: كان مخلوقاً غريباً !:: على أنها مضت تثرثر بقدر ما وسعهـا من انطلاق ، وهى تسائل نفسها عما دعاه أن يسألهـا أن تتمشى معه فى المتنزه :: لعله كان يوشك أن يفضفض إليها بشغفه بالممرضة ذات القدمين المسطوحتين التى تركها فى هونج كونج !؟

وفجأة ، استدار نحوها ، فقطع عليهـا عبـارة كانت ماضية فى ذكرها ، ممـا نم عن أنه لم ينصت إليها ، وقال وقد صار وجهه فى بياض الطباشير : « أريد أن أقول لك شيئاً » :

وأسرعت تتطلع إليه ، فرأت عينيه تفيضان بانفعال عرم :: وقبل أن تسائل نفسها عما وراء هذا الانفعال ، عاد يقول : « أريد أن أسألك :: هل تقبلين الزواج منى ؟ » :

فأجابت وهى تحدق فيه دون مواراة لفرط دهشتها : « هذه مفاجأة لم أك أتوقعها » .

– أو ما دريت أننى كنت مغرقاً فى حبك ؟

– إنك لم تكشف لى عما يوحى بذلك !

– إننى خجول ، حيي ، يشق على دائماً أن أقول ما أقصد قوله ، فلا أملك سوى أن أقول ما لا أقصد ..

وتسارعت دقات قلبها قليلا .. ما أكثر ما فوتحت فى الزواج من قبل ، ولكن الحديث كان عادة بهيجاً ، أو عاطفياً .. وكانت تجيب بنفس الروح .. فما سألها أحد الزواج بمثل هذه الطريقة الجافة المفاجئة ، ذات الطابع الواجم الغريب .. وقالت مستريبة : « هذا تلطف منك » .

– لقد وقعت فى هواك منذ أول مرة رأيتك فيها ، وكنت أريد أن أفاتحك من قبل ، ولكننى لم أفلح قط فى الإقدام ..

فضحكت قائلة : « ما أظنك تعنى هذا حقاً ؟ » .

وسرها أن وجدت فرصة للضحك ، فقد بدا أن الجو المحيط بهما ، فى ذلك اليوم الصحو الجميل ، قد استحال فجأة راكداً ، ثقيلا :: وعبس هو متجهماً ، ثم قال :

– أواه .. إنك لتدرين ما أعنى .. لم أشأ أن أفقد الأمل .. وأما وأنت تتأهبين للسفر للمصيف ، وأنا أستعد للعودة إلى الصين فى الخريف ..؟

قالت فى حيرة : « ما فكرت فيك – من هذه الناحية – من قبل » :

ولم يقل شيئاً ، بل غض من بصره فى وجوم .. كان مخلوقاً غريباً إلى الغاية ، بيد أنها بدأت تشعر – بطريقة غامضة – وقد صارحها بما صارحها به ، أن حبه من نوع لم تصادفه أبداً من قبل .. وأحست بشيء من الذعر ، ولكنها أحست فى الوقت ذاته بشيء من التخفف ، فقالت :

– يجب أن تمهلنى ريثما أفكر ..

وظل صامتاً لم ينبس ببنت شفة ، أو يحر حراكاً .. أو تراه كان مزمعاً أن يستبقيها حيث كانا إلى أن تتخذ فى الأمر رأياً ؟.. إنه ليكون عنواناً للسخف بعينه ، لو فعل !.. إذ ينبغى أن تبحث الأمر مع أمها .. ومن ثم كان خليقاً به أن يدعوها إلى الانصراف حين وعدته بالتفكير ..

وترقبت ، ظناً منها أنه لن يلبث أن يجيب ، وقد أحست بأن من العسير عليها أن تتحرك فى مجلسها ، دون أن تدرى لذلك داعياً .. ومع أنها لم تنظر نحوه ، فإنها كانت تحس بما يبدو عليه منظره .. قط ما خطر لها أن تتزوج من رجل لا يجاوزها طولا إلا بالقليل ! رجل إذا جلست بالقرب منه ، تبينت مدى وسامة قسماته، ومدى جمود تعبيرات وجهه ، ومع ذلك فقد كان من العجيب أن لا تتمالك نفسك من الشعور بالوجد المتأجج فى قلبه !

وعادت تقول بصوت متهدج : « إننى لم أعرفك بعد .. لم أعرفك قط » .

ونظر إليها ، فأحست بعينيها تنجذبان نحوه .. كان فى نظراته حنان لم تره فيها من قبل .. وفى عينيه شىء من الذلة ، شبيه بما يفيض من عينى كلب مضروب ، مما أثر فى نفسها .. وما عتم أن قال : « أظننى قميناً بأن أكشف عن نواح طيبة إذا ما ازددت تعرفاً بى » .

– أجل .. إننى لأدرك إنك خجول .. ألست كذلك ؟

كان أعجب حديث سمعته فى مناسبة كهذه .. ولاح لها أن كلا منهما يفضى لصاحبه بآخر ما يرتقب منه فى معرض الخطوبة .. إنها لم تكن تشعر نحوه بأتفه حب .. ولكنها لم تدر لماذا ترددت فى أن ترفض عرضه بمجرد أن صارحها به !

وأردف يقول : « إننى مفرط الغباء .. كان خليقاً بى أن أقول لك : إننى أحبك أكثر من الوجود كله ، ولكنى أجد عناء شديداً فى أن أقول ذلك ! » .

وهذا أيضاً كان غريباً بدوره ، إذ أنه مس أوتار قلبها دون أن تدرى لذلك سبباً !.. لا ، إنه لم يكن فاتر العاطفة ، ولا بارداً ، إنما كانت طبيعة خلقه هى كل عيبه .. وأحست بأنها قد مالت إليه فى تلك اللحظة أكثر مما مالت من قبل .. وكانت دوريس مقدمة على الزواج فى نوفمبر ، ولسوف يكون هو إذ ذاك فى طريقه إلى الصين ، ولابد لها من أن ترافقه لو أنها تزوجت منه .. ولم يكن



قالت فى حيرة : « ما فكرت فيك — من هذه الناحية — من قبل »
ولم يقل شيئاً ، بل غض من بصره فى وجوم ..

مما يسرها أن تكون وصيفة شرف فى زفاف دوريس ، ومن ثم فقد كان يسعدها أن تفلت من هذا الموقف !.. ثم طاف بذهنها حالها حين تغدو دوريس زوجة وهى بعد عذراء !.. كان كل امرىء يعرف دوريس وما كانت عليه ، ومن ثم فإن زواجها قمين بأن يبدى « كيتى » أكبر سناً مما هى .. وأن يدفع بها إلى أحضان الإهمال والعنوسة .. ولو أنها تزوجت من « فين » لما كان هذا خير زواج لها . ولكنه سيكون زواجاً على أية حال .. سيما وأنها ستقيم معه فى الصين .. وكانت تخشى لسان أمها اللاذع .. لقد تزوجت كل لداتها منذ أمد طويل ، وأصبح لكثير منهن أطفال !.. ولقد أسأمها أن تزورهن وأن تراهن يبالغن فى الحديث عن أطفالهن !

وها هو ذا « وولتر فين » يعرض عليها حياة جديدة ..

والتفتت إليه وعلى شفتيها ابتسامة كانت توقن من فعلها ، وقالت : « لو أننى تسرعت فى تهور وقلت إننى أقبل الزواج منك ، فمتى تريد أن يتم الزواج ؟ » .

وشهق فجأة فى ابتهاج ،وسرى الدم فى وجهه الشديد الشحوب ، وقال : « الآن .. فوراً .. بأسرع ما يمكن .. وسنذهب إلى إيطاليا لقضاء شهر العسل .. بل نقضى هناك شهرى أغسطس وسبتمبر » .

وكان هذا كفيلا بأن يجنبها قضاء الصيف فى الريف مع أبيها وأمها .. واستعرضت فى ذهنها بسرعة البرق نبأ الخطوبة إذ ينشر فى صحيفة « مورنينج بوست » ، وما سيكتب عن اضطرار العروس

إلى العودة إلى الشرق ، ومن ثم إلى إتمام الزواج فوراً !.. وكانت تعرف أمها حق المعرفة ، وتدرك أن فى وسعها أن تعتمد عليها فى خلق ضجة تدفع « دوريس » جانباً بعض الوقت .. فإذا ما حان زواج « دوريس » الفخم ، فإنها ستكون قد غادرت البلاد !

وبسطت يدها قائلة : « أعتقد أننى أميل كثيراً إليك ، ويجب أن تتيح لى وقتاً آلفك فيه » .

فقطع عليها الكلام متسائلا : « أو هذا قبول ؟ » .

ـ أظن ذلك ..

- ١٢ -

● لم تكن إذ ذاك تعرفه إلا قليلا .. جداً .. ومع ذلك فإنها لم تزدد معرفة به ، زيادة تذكر ، بعد أن انقضى حوالى العامين على زواجهما !.. وقد تأثرت فى البداية لترفقه وتلطفه .. وازدهاها ـ وإن كان قد أدهشها ـ تأجج عاطفته .. كان فى منتهى الرصانة ، وكان شديد الاحتفاء براحتها ، فما أعربت مرة عن أتفه رغبة إلا وسارع إلى إرضائها .. وكان يغمرها فى كل مناسبة بالهدايا الصغيرة .. وإذا أحست بوعكة ، لم يكن ثمة من هو أرحم وأكثر انشغالا بها منه .. وكأنما توليه صنيعاً إذا هى أتاحت له فرصة القيام بعمل ـ ينطوى على شىء من التعب ـ من أجلها !.. وكان دائماً مفرط للتأدب ، فإذا دخلت عليه غرفة نهض قائماً ، وإذا ركبا سيارة مد يده يساعدها ، وإذا صادفها فى الطريق رفع قبعته ، وكان يتكلف

عناء فتح البـاب لهـا حين تغـادر غرفة يكونان فيها .. وما ولج مرة
مخدعها أو غرفتها الملحقة به دون أن يطرق الباب .. ولم يكن يعاملها
كما رأت معظم الرجال يعاملون زوجاتهم ، وإنمـا كان يحتفى بهـا كما
لو كانت ضيفة فى بيته ! .. وكانت هذه المعاملة كفيلة بإرضائها ،
ولكنها كانت تنطوى على شىء يثير ضحكها : ولو أنه كان أقـل
احتفاء لازدادت ألفة معـه .. كما أن علاقاتهما الزوجيـة لم تزدها قرباً
منه ، إذ كان خلالهـا يستحيل مشبوب العاطفـة ، عنيفاً ، متأجج
الأحاسيس ، بل لعل من الغرابة أنه كان يبدو متهوس الانفعال ..

وكان يحيرها أن تتبين مدى التهاب عواطفه .. كانت رزانتـه
وليدة حيائه ، أو لعلها نتيجة المران الطويل — فما استطاعت أن تدرى
إلى أيهما تعزوها — وكان يثيرها بعض الشىء أن تشعر وهى بين ذراعيه
وقد هدأت شهوته ، إن هذا الذى كان يخجل من التفوه بالتوافه ،
والذى كان يخشى أن يبدو سخيفاً ، كان ينقلب فيحلو له أن يعمد إلى
لهجة الأطفال فى الكلام ! .. ولقد آلمته مرة فى قسوة إذ ضحكت
وقالت إنه يتفوه بأسخف حديث .. فأحست بذراعيه تجمدان حولها ،
وظل ساكناً صامتاً برهة ، ثم أفلتها من أحضانه دون أن ينبس ببنت
شفة وانصرف إلى حجرته .. ولم تكن قد أرادت أن تجرح شعوره ،
فقالت له بعد يوم أو يومين : « لست أضيق أيها الأبله بأى هراء تهرف
به » .. فضحك فى استحياء ..

ولم تلبث أن اكتشفت أنه كان عاجزاً كل العجز عن أن ينسى

نفسه :: كان دائماً يفطن إلى كل كلمة تصدر عنه أو حركة تبدر منه ..
فإذا غنى جميع الحاضرين فى إحدى الحفلات التى كانا يدعيان إليها ،
عجز « وولتر » عن مجاراة القوم .. بل كان يجلس مبتسما ليريهم أنه
مسرور وقرير ، غير أن ابتسامته كانت مغتصبة مفتعلة ، أشبه
بالاستهجان الساخر بحيث توحى بأن صاحبها يعتبر جميع أولئك الذين
ينساقون فى جو المرح والانشراح حفنة من الحمقى !.. وكان لا يقوى
على حمل نفسه على الاشتراك فى الألعاب الجماعية التى كانت « كيتى »
— بما أوتيت من خفة روح — تجد فيهـا مسرة ومرحاً .. ولقد رفض
رفضاً تاماً أثناء رحلتهما إلى الصين أن يرتدى فى إحدى الحفلات ثياباً
تنكرية كبقيـة المسافرين .. وكان مما عكر سرور زوجتـه أنه بدا
ضجراً من الحفلة كلها !

وكانت « كيتى » مرحة ، تود لو أتيح لها أن تتكلم طيلة النهار ،
وأن تضحك فى حرية وانطلاق .. ولكن صمته كان يحيرها ويثير
الاضطراب فى نفسها .. وكان مسلكه فى عدم الرد على ما تبدى من
ملاحظات عابرة يضايقها .. ومن الصحيح أن أمثال تلك الملاحظات
لم تكن تستدعى رداً ، ولكن الرد كان كفيلا بأن يرضيها .. فلو أنها
قالت وهى ترى السماء تمطر : « لقد تفتحت ميازيب السماء » ، لظل
صامتاً .. بينما تتمنى لو أنه أجاب : « أجل .. أليست كذلك حقاً ؟ » ..
ولكم ودت فى بعض الأحيان أن تهزه لينطق .. ولكنها كانت تكتفى

بأن تكرر عبارتها : « أقول إن ميازيب السماء قد تفتحت » .. وإذ ذاك كان يكتفى بأن يقول مبتسما : « لقد سمعتك » !

- ١٣ -

● والواقع أنه كان مجرداً من كل فتنة .. وكان هذا هو السر فى أنه لم يكن بارزاً لامعاً ، الأمر الذى اكتشفته قبل أن يمضى على وصولها إلى هونج كونج أمد طويل .. ولقد ظلت على غير دراية واضحة بعمله .. وكان حسبها أن تدرك — وقد أدركت فعلا — أن انتسابها ، كزوجة ، إلى الطبيب البكتريولوجى للحكومة ، ليس بالشرف الرفيع .. وكان يبدو عليه أنه عزوف عن أن يتناول هذه الناحية من حياته بالحديث معها .. ولما كانت هى ميالة — ولا سيما فى البداية — إلى الاهتمام بكل شىء ، فقد سألته عن عمله .. ولكنه ردها عنه بإشارة مقتضبة : وفى مناسبة أخرى قال : « إنه عمل ممل وفنى للغاية .. ثم إن الأجر الذى يدفع عنه أقل بكثير مما يستحق .. » .

وكان شـديد التحفظ ، حتى أن كل ما عرفتـه عن ماضيـه ، ومولده ، وتربيته ، وحياته قبل أن يلقاها ، لم يتسن لها إلا عن طريق انتزاعه من فمه بالأسئلة الصريحة المباشرة التى كانت توجهها إليه ! .. ومن الريب أن السؤال كان الشىء الوحيد الذى يثير ضيقه واستياءه . وكانت إذا أغرقته — بدافع من فضولها الطبيعى — بسيل من الأسئلة تباعاً ، ازدادت إجاباته اقتضاباً مع كل سؤال .. وأفهمها ذكاؤها أنه لايضن بالإجابة لأن لديه مايحب أن يخفيه عنها ، وإنما لمجرد أنه فطر

على التكتم .. كان يمضه أن يتحدث عن نفسه ، إذ كان ذلك يضاعف من حيائه وارتباكه .. فما كان يدرى كيف يكشف عن جلية نفسه ..

وكان مشغوفاً بالقراءة ، ولكن الكتب التى كان يقرأها كانت تبدو لكيتى ثقيلة مملة ، فإنه إذا لم يعكف على موضوع علمى ، كان يقرأ الكتب التى تدور حول بلاد الصين التى يعيش فيها ، أو المؤلفات التاريخية .. قط لم يكن يتخفف من العمل والقراءة الجدية ، حتى لقد خيل إليها أنه عاجز عن التخفف .. وكانت اللعبتان الوحيدتان اللتان يحبهما هما « التنس » و « البريدج » ..

وكانت تعجب فى نفسها مما جعله يقع فى هواها ، فما كانت ترى بين النساء من هى أبعد منها ملاءمة لهذا الرجل الدؤوب ، الجامد الحس ، الرصين .. ومع ذلك ، فقد كان — بكل تأكيد — مدلهاً فى غرامها ، حتى إنه لم يكن يتورع عن أن يفعل أى شىء يرضيها .. كان كالشمع الطرى بين يديها ! .. وكانت كلما فكرت فى الجانب الوحيد الذى أطلعها عليه من نفسه ، أحست بشىء من الازدراء نحوه :: وكانت تسائل نفسها عما إذا كانت طبيعتـه الساخرة الناقدة — وما يصحبها من تحمله فى ذلة كثيراً من الأشخاص والأشياء التى تعجب بها — مجرد ستار يخفى وراءه ضعفاً تاماً ؟! .. ذلك أنهـا فى الوقت الذى كانت تراه فيه ماهراً — وكذلك كان يحسبه كل امرىء — لم تكن هى تجد لديه استعداداً لأن يكون مقبولا ، اللهم إلا فى حالات

نادرة جداً ، حين يجلس إلى الإثنين أو الثلاثة الذين كان يميل إليهم – من بين الناس طراً – وهو فى حالة مرح وتبسط ..

والخلاصة أنه كان يثير الضجر – كل الضجر – فى نفسها .. حتى لقد جعلها تستهين به ولا تقيم له وزناً !

– ١٤ –

● قضت « كيتى » بضعة أسابيع فى هونج كونج قبل أن ترى « تشارلس تاونسند » – مع أنها التقت بزوجته فى عدد من مآدب الشاى – وهكذا لم تتعرف عليه إلا حين رافقت زوجها لتناول العشاء فى داره .. وكانت كيتى متحفظة ، حذرة ، إذ أن تشارلس تاونسند كان مساعد حاكم المستعمرة ، ولم تكن راغبة فى أن تدعه يعاملها بتلك الروح المتكرمة ، المتكلفة التواضع ، التى كانت تحسها من مسز تاونسند رغم طيب طباعها ..

وكانت القاعة التى استقبلا فيها رحبة واسعة ، وقد فرشت بما فرشت به كل غرفة استقبال أخرى ولجتها فى هونج كونج .. أثثت على نمط مريح .. وكان المدعوون كثيرين ، وقد كانت كيتى وزوجها آخر من وصل منهم ، فوجدا الخدم الصينيين يدورون على الحضور بكؤوس الكوكتيل والزيتون .. ورحبت بهم مسز تاونسند بطريقتها المتكلفة ، ثم تأملت قائمة مكتوبة ، وذكرت لوولتر اسم زميلته التى ستجلس إلى جواره حول المائدة ..

ورأت كيتى رجلا طويلا ، مفرط الأناقة ، يقبل نحوهم .. فقالت مسز تاونسند : « هذا زوجى .. » .

وقال لها الرجل : « ستكون لى حظوة الجلوس إلى جانبك » .

وأحست لفورها بارتياح ، وتلاشى من صدرها كل شعور بالنفور .. ولمحت فى عينيه المبتسمتين ومضة سريعة من الدهشة والمفاجأة ، لم يخف عليها معناها ، فودت لو استطاعت أن تضحك !

وقال الرجل : « لن أستطيع أن أصيب شيئاً من العشاء ، مع ما أعلمه عن أصناف دوروثى الشهية » .

فسألته : « ولماذا ؟ » .

– كان يجب أن يخبرونى من قبل .. كان يجدر بهم أن ينذرونى ..

– عم .. وبم ؟

– لم يفض أحد بكلمة واحدة ، فكيف كان لى أن أعلم أننى سأقابل جمالا باهراً خلاباً ؟

– آه .. بماذا ترانى أجيب عن هذه المجاملة ؟

– بلا شىء .. دعى الكلام لى ، ولسوف أردد هذا القول مراراً وتكراراً !

ولم تؤخذ كيتى بمجاملاته ، وإنما تمنت لو أنها عرفت ما قالته له زوجته عنها .. لابد أنه سألها عنها !

وتذكر تاونسند فجأة ، وهو يطل عليها بعينيه الضاحكتين ،

أنه تساءل حين أنبأته زوجته بأنها قابلت عروس الدكتور فين :
« وما شكلها يا ترى ؟ »

– شابة لطيفة صغيرة .. كالممثلات ..

– هل كانت تعتلى المسرح ؟

– لا .. ما أظن ذلك .. إن أباها طبيب ، أو لعله محام ، أو أى
شىء آخر .. أعتقد أن علينا أن ندعوهما إلى العشاء ..

– لا داعى للعجلة .. أليس كذلك ؟

وقال لكيتى وهو يجاورها حول المائدة إنه عرف زوجها « وولتر
فين » مذ وفد على المستعمرة .. واستطرد قائلا : « اعتدنا أن نلعب
البريدج معاً .. إنه أحسن وأبرع لاعب بريدج فى المنتدى » .

ولقد ذكرت ذلك لوولتر وهما فى طريقهما إلى دارهما فقال :
« هذا إسراف منه فى المجاملة كما ترين » .

– وهل هو يجيد اللعب ؟

– لا بأس به كلاعب .. إنه يجيد دوره إذا كانت الأوراق
ملائمة .. ولكنه ينهار إذا أوتى أوراقاً سيئة ..

– هل يعادلك مهارة فى اللعب ؟

– لست أدرى مدى مهارتى .. إننى أعتبر نفسى لاعباً جيداً من
الدرجة الثانية ، أما تاونسند فيرى أنه من لاعبى الدرجة الأولى .. ولكنه
ليس كذلك !

– ألست تميل إليه ؟

– لست أحبه ، ولا أكرهه .. وأعتقد أن لابأس به فى عمله ،
كما يقول كل امرىء إنه رياضى حاذق .. لكنه لايروق لى كثيراً ..

ولم تكن هذه هى المرة الأولى التى يثير فيها تزمت « وولتر »
غيظها ، فساءلت نفسها عما يضطره إلى التزام هذه الرزانة الحكيمة ؟
.. إننا عادة إما أن نحب الناس أو لا نحبهم ! .. ولقد ارتاحت هى إلى
تشارلى تاونسند كثيراً ، وما كانت تتوقع ذلك .. كان يكاد يعتبر
أحب وأشهر رجل فى المستعمرة ، وكان من المرتقب أن يحال إلى
المعاش عما قريب فتمنى كل فرد لو يخلفه تاونسند .. ثم إنه كان يلعب
« التنس » و « البولو » و « الجولف » ، ويقتنى جياداً للسباق .. وكان
دائماً على استعداد لأن يولى أى فرد صنيعاً ، فما ترك « الروتين »
يعترض طريقه قط .. لا ولم يكن يصطنع المظاهر .. ولم تدر « كيتى » لم
كانت تنفر من أن تسمع إطراء له ، إذ لم تكن تتمالك أن تظنه مزهواً
شديد الغرور .. لكنها كانت مخطئة ، فإن الزهو والغرور كانا آخر
ما يمكن أن يتهم به !

ولقد استمتعت بالسهرة فى تلك الليلة .. تحدثت معه عن مسارح
لندن . وميادين السباق ، وكل الأشياء التى كانت تعرفها ، كما لو
كانت قد قابلته فى إحدى الدور الراقية فى حى « لينوكس جاردنز » !
.. وعندما أقبل الرجال على قاعة الجلوس – بعد العشاء – تقدم بخطى
واسعة وجلس إلى جانبها .. ومع أنه لم يقل شيئاً يدعو إلى الضحك ،
إلا أنه أثار ضحكها بطريقة ما ، قد تكون فى اللهجة التى تعمد أن يلقى

بها كلامه .. وكان فى صوته العميق ، الغنى بالنبرات ، حنان عذب .. وفى عينيه الرحيمتين ، الزرقاوين ، المتألقتين ، نظرة بهيجة تجعلك تحس بألفة تربطك إليه .. كان ساحراً حقاً .. وكان هذا هو السر فى لطفه ..

وكان طويل القامة – قدرت هى طوله بستة أقدام وبوصتين على الأقل – وكان شكله جميلا ، ومن الجلى أن صحته كانت جيدة ، وأن وزنه لم يكن يزيد عما يتناسب مع طوله .. ثم إنه كان أنيق الملبس ، أكثر الرجال الذين كانوا فى الحجرة أناقة . وكانت كيتى تحب فى الرجل أن يكون وجيهاً ! .. وتحولت نظراتها إلى « وولتر » .. كان يخلق به أن يزيد من عنايته بمظهره .. ولقد لاحظت أزرار كمى قميص تاونسند ، وأزرار صديريته .. كانت قدرأت مثلها معروضاً فى محلات « كارتيير » الكبرى ، ومن ثم فلابد أن لآل تاونسند دخلا خاصاً !

وكان وجهه شديد السمرة ، بيد أن الشمس لم تسلب وجنتيه حمرة الصحة .. ولقد أحبت فيه ذينك الشاربين المفتولين عند طرفيهما القصيرين ، دون أن يخفيا شفتيه الشديدتى الاحمرار .. وكان ذا شعر أسود ، قصير ، شديد اللمعان ، نسقته الفرشاة بعناية .. على أن عينيه القابعتين تحت حاجبين كثيفين ، عريضين ، كانتا أفضل قسماته : كانتا شديدتى الزرقة ، فيهما حنان ضاحك يجعلك تؤمن بلطف روحه وعذوبة طبعه : وليس فى وسع رجل أوتى هاتين العينين الزرقاوين أن يقوى على إيذاء أحد !

ولم يكن فى وسعها أن تغفل الأثر الذى أحدثته فى نفسه .. ولو أنه لم يفض إليها بأعذب الأقوال ، لما عجزت عيناه ، وما كان يفيض منهما من نظرات دافئة مفعمة بالإعجاب ، عن أن تشيا به ! .. وكانت بساطته عذبة ، تبعث فى النفس شعوراً بالانشراح . ولم يكن معتداً بنفسه إلى درجة اصطناع الرزانة والوقار .. وقد أعجبت كيتى بالطريقة التى كان يعمد بها خلال المزاح الذى ساد حديثهما إلى إزجاء عبارات المجاملة والغزل المستعذبة .. وعندما صارحته وقد همت بالانصراف ، ضغط راحتها بطريقة ما كانت لتخطىء معناها .. ثم قال عرضاً : « أرجو أن أراك ثانية عما قريب » .. غير أن عينيه أضفتا على كلماته معنى لم تغفله .. فقالت : « إن هونج كونج مدينة صغيرة .. أليس كذلك ؟ » .

– ١٥ –

● من كان يظن إذ ذاك أن العلاقات بينهما تغدو فى شهور ثلاثة إلى ما أصبحت عليه ؟ .. لقد حدثها بعد ذلك بأنه افتتن بها منذ الأمسية التى رآها فيها لأول مرة .. كانت أجمل من رأى فى حياته .. وقد ظل يذكر الثوب الذى بدت فيه .. كان ثوب زفافها ، وقد قال إنها لاحت فيه كزنبقة فى واد !

ولقد أدركت أنه أحبها قبل أن يفاتحها ، فتولاها شىء من الفزع وأخذت تباعده عنها .. ولكنه كان مستهتراً ، مندفعاً .. وكان الأمر شاقاً عليها ، حتى لقد أحست بالخوف من أن تدعه يقبلها ، بل إن مجرد

التفكير فى ذراعيه حولها كان يبعث خفقات قلبها متسارعة ! .. إنها ما عرفت الحب قط من قبل ، فإذا بها تجده رائعاً ! .. وأحست فجأة بإشفاق على « وولتر » لما كان يكنه لها من هوى، فأخذت تداعبه فى تدلل ، وتلمس مدى استعذابه لذلك .. ولعلها كانت تخشاه هوناً ما ، بيد أنها ما لبثت أن اطمأنت ووثقت فى نفسها، فراحت تغازله فى جرأة ، وكان يلذ لها أن تتمثل ابتسامة الدهشة والتردد التى تلقى بها دعاباتها فى بادىء الأمر ، وإن خيل إليها أنه لن يلبث أن يغدو يوماً كغيره من البشر ! .. ولقد لذ لها — إذ عرفت شيئاً عن الوجد والهيام — أن تعبث بعواطفه فى خفة ، كالعازف إذ يجرى أحد أنامله على أوتار قيثارته .. وكانت تضحك إذ تستبين مدى ما تسببه له من حيرة وارتباك !

وأصبح الموقف بينها وبين وولتر يبدو — بعد أن غدا تشارلى عشيقها — فى منتهى السخف .. كانت لا تكاد تستطيع أن ترفع بصرها إليه دون أن تضحك لمنظره الرزين الوقور .. وبدأت تجد سعادة قصوى فى أن تقسو فى شعورها نحوه .. ولو أنها لولاه — رغم كل شىء — ما عرفت تشارلى أبداً ! .. ولقد ترددت بعض الوقت قبل أن تقدم على الخطوة النهائية ، لا لأنها كانت زاهدة فى الاستسلام لغرام تشارلى المشبوب — فقد كان هيامها به لا يقل تأججاً — وإنما لأن تربيتها وجميع المبادىء التى اعتنقتها فى حياتها كانت تنفرها وتعوقها .. ولقد جاءت الخطوة النهائية عفواً ، إذ لم يفطن أحد منهما إلى الفرصة حتى

وجدها أمامه ماثلة .. وشد ما دهشت إذ تبينت أن شعورها بعد هذه الخطوة لم يختلف فى شىء عنه قبلها ! .. لقد كانت تتوقع أن ينتابها تغير خيالى — لم تدرك كنهه — يشعرها بأنها ليست المرأة التى عهدتها من قبل .. فإذا بها تدهش ، كلما سنح لها أن ترى نفسها فى المرآة ، إذ ترى أمامها نفس المرأة التى رأتها فى اليوم السابق !

ولقد سألها تشارلى عقب تلك الخطوة : « أغاضبة أنت منى ؟ »

فهمست قائلة : « بل إنى أعبدك ! » .

— ألا ترين إنك كنت غبية جداً إذ أضعت علينا كل هذا الوقت؟

— بل كنت غاية فى الغباء ..

— ١٦ —

● وكانت سعادتها تفيض أحياناً عما تستطيع أن تحتمل ، فتجدد من حسنها وجمالها .. وكانت قبيل زواجها قد بدأت تفقد شيئاً من نضارة شبابها ، فبدت كليلة ، متراخية — بحيث زعم قساة القلوب أنها بدأت تذبل — ولكن ما أعظم الفارق بين الفتاة ابنة الخامسة والعشرين وبين المرأة المتزوجة التى فى السن ذاتها ! .. لقد كانت كزهرة بدأت الصفرة تعدو على حواف أوراقها ، رغم أنها لم تستكمل تفتحها ، ثم تحولت فجأة إلى وردة فى أوج نضارتها : فاكتسبت عيناها الضيقتان نظرات جديدة حافلة بالمعانى ، وأصبحت بشرتها — التى كانت دائماً مبعث فخرها وموضع عنايتها — تبهر الأبصار بسناها ، بحيث يشبه بها الخوخ المتورد أو الزهرة ، وليست هى التى تشبه بهما!

.. لقد ارتدت تبدو كابنة الثامنة عشرة ، تتألق فى أوج فتنتها الباهرة ، حتى لقد كان من المستحيل أن لاتفطن العين إلى ما أصابها من تحول .. فأخذت صديقاتها يسائلنها فى ود وهن ينتحين بها جانباً ، عما إذا كانت توشك أن تنجب طفلا ؟ .. وأصبحت المتجنيات اللاتى كن يقلن إنها ليست سوى امرأة رشيقة ذات أنف طويل ، يعترفن بأنهن ظلمنها بهذا الحكم ! .. وبالاختصار فقد صارت ، كما وصفها تشارلى حين رآها للمرة الأولى ، ذات جمال باهر خلاب !

واستطاعا أن يخفيا علاقتهما بمهارة .. كان مركـزه وسلطانه يحميانه كما كان يقول لها ، فليس يهمه هو من الأمر شىء ، وإنما كان عليهما أن يتجنبا أتفه مغامرة من أجلها هى .. ولم يكونا يلتقيان كثيراً على حدة — حتى ولا نصف المرات التى كان تشارلى يتوق إليها ! — إذ كان يؤثر أن يفكر فيها أولا .. وكانت هذه المقابلات القليلة تحدث أحياناً فى متجر العاديات والتحف .. أو فى دارها ، بين آن وآخر ، بعد الغداء ، عندما لا يكون ثمة رقيب .. على أنها إلى جانب ذلك كانت تراه كثيراً فى الأماكن العامة ، فكان يروق لها أن تشهد الطريقة « الرسمية » التى كان يتحدث بها إليها ، فى رفق وتلطف — شأنه مع كل إنسان فى العادة — وهل كان فى وسع أحـد أن يتصور إذ يسمعه يثرثر معها بطريقته المرحة الساحرة ، أنه كان يحتضنها قبل ذلك بوقت قريب ، فى وجد متقد ؟

وصارت تعبده .. كان رائعاً فى حذاءيه العاليين وغطائى ساقيه

وهو يلعب « البولو » .. وفى ثياب التنس كان يبدو مجرد غلام يافع .. والواقع أنه كان فخوراً بشكله . وكان يتجشم عناء فى سبيل الاحتفاظ به ، فكان لا يأكل الخبز أو البطاطس أو الزبد على الإطلاق ، فى للوقت الذى يهتم فيه غاية الاهتمام بالتدريبات الرياضية .. وكانت تعجب بعنايته بيديه ، إذ كان يطلى أظافره فى كل أسبوع مرة ! .. ثم إنه كان رياضياً رائعاً ، فاز فى العام السابق ببطولة التنس المحلية .. كما كان — بالتأكيد — أبرع راقص راقصته ! كان الرقص معه حلماً عذباً .. وأخيراً ، ما كان أحد ليظن أنه قد بلغ الأربعين .. ولقد أنبأته مرة بأنها هى نفسها لاتصدق ذلك ، وأردفت : « أعتقد أنها خدعة ، وأنك لم تجاوز الخامسة والعشرين ! » .. فضحك وقد طرب لذلك ، وقال : « أواه ياعزيزتى إن لى ابناً فى الخامسة عشرة .. إننى رجل فى أوسط العمر ولن ألبث بعد عامين أو ثلاثة أن أغدو مسناً مترهلا » .

— بل ستظل تدير الرؤوس حتى لو بلغت المائة !

وكانت تحب حاجبيه الأسودين الكثيفين ، وتتساءل هل هما اللذان يضفيان على عينيه الزرقاوين تلك النظرة التى يخيل إليك أنها تستشف ما فى أعماقك ! ؟

ثم إنه كان حاذقاً فى كل شىء ، بحيث لم تكن تصدق أن ثمة شيئاً لا يستطيع أن يؤديه : كان يجيد العزف على « البيانو » — فى أوقات اللهو طبعاً — وكان يغنى أغانى هزلية بصوت غنى النبرات ، وروح خفيفة مرحة .. هذا إلى جانب أنه كان بارعاً فى عمله ، وكم كانت

تشاطره سروره كلما أخبرها مثلا بأن الحاكم قد عنى بتهنئته على الطريقة التى أدى بها مهمة عويصة ! .. كان يضحك وعيناه تومضان بالحب الذى يكنه لها ، وهو يقول : « ومع أننى أكره امتداح نفسى ، إلا أنه لا يوجد فى الخدمة من كان يستطيع أن يؤدى هذه المهمة خيراً مما فعلت ! » .

أواه ! .. لشد ما صارت تتمنى لو أنها كانت زوجته ، وليست زوجة « وولتر » !

- ١٧ -

● لم يكن من المؤكد أن « وولتر » قد ألم بالحقيقة فى عصر ذلك اليوم الذى فوجىء فيه العاشقان بحركة مقابض الأبواب .. وإذا لم يكن قد ألم بها ، فلعله كان من الخير ترك المسألة جانباً ، أما إذا كان قد فعل ، فلا بأس ، قد يكون هذا أفضل بالنسبة لهم جميعاً .. فلقد كانت كيتى فى البداية قانعة — إن لم تكن راضية — بأن لا ترى تشارلى إلا خلسة ، بيد أن الزمن أذكى وجدها ، فأخذ صبرها يزداد نفاداً — منذ أمد — إزاء العقبات التى كانت تحول دون أن يكونا معاً على الدوام ! .. وكثيراً ما كان يقول إنه يلعن مركزه الذى يضطره إلى التزام هذا التكتم ، ويلعن الروابط التى تقيده ، والروابط التى تقيدها .. ويحلم بسعادتهما فيما لو كانا طليقين !

ولقد قدرت وجهة نظره ، فليس من إنسان يرغب فى الفضيحة ، كما أن الإقدام على تغيير مجرى حياتك يقتضيك بالطبع تفكيراً

طويلا .... ولكن .. كم يصبح كل شىء سهلا لو أن الحرية فرضت عليهما فرضاً ! .. ولم يكن يبدو أن أحداً منهما سيتألم كثيراً لهذا .. فقد كانت كيتى تدرك تماماً مدى علاقة تشارلى بزوجته ، وكيف كانت هذه فاترة العواطف ، حتى لقد انقضت سنوات لم يقم بينهما خلالها حب أو علاقة غرام ! .. والواقع أنه لم يكن يستبقيهما على رباط معاً سوى حكم العادة .. والأولاد طبعاً ! .. ومن ثم كان التحرير بالنسبة لتشارلى أهون منه بالنسبة لها ، وهى التى كان زوجها وولتر مدلهاً فى هواها .. بيد أنه كان من ناحية أخرى مستغرقاً فى عمله ، لا يكاد يشغل بسواه اللهم إلا بالمنتدى طبعاً .. ولعله سوف يصدم فى البداية ، ولكنه لن يلبث أن يتغلب على الصدمة ، وليس ثمة ما يحول بينه وبين أن يتزوج ثانية من سواها .. ولقد قال لها تشارلى إنه لا يكاد يفهم كيف قبلت أن تلقى بنفسها إلى « هاوية » الزواج من « وولتر فين » !

وعجبت ، وقد ابتسمت هوناً ما ، مما اعتراها قبيل ذلك بقليل من ذعر حين قدرت أن وولتر قد « ضبطهما ! » .. كان من المفزع حقاً أن ترى أكرة الباب تتحرك فى تؤدة ، ولكنهما كانا — بعد كل هذا — يدركان أسوأ ما يمكن أن يفعله « وولتر » .. وكانا على أهبة لملاقاته ، فإن تشارلى لن يكون أقل منها ارتياحاً حين يفرض عليهما ما كانا يشتهيانه أكثر من أى شىء فى دنياهما !

لقد كان وولتر رجلا شهماً مهذباً ، ومن الإنصاف أن تعترف

له بهذا .. وكان يحبها ، ومن ثم فسوف يفعل ما ينبغى أن يفعل ء
فيدعها تطلقه ، إذ أنهما ارتكبا خطأ بزواجهما ، وكان من أسعد
الأمور أنهما تبيناه قبل أن يمتد بهما أجل الإيغال فيه ::

وأخذت تحدد فى ذهنها ما ستقوله له ، وكيف تعامله .. ستكون
مترفقة ، باسمة ، حازمة .. فليست بهما حاجة إلى أن يتشاجرا ..
ولسوف يسرها –بعد الطلاق– أن تراه دائماً .. بل إنها رجت مخلصة
صادقة أن تظل للعامين اللذين قضياهما معاً ، ذكرى غالية فى نفسه !..
وقالت لنفسها وهى تفكر : « ما أظن دوروثى تاونسند تأبه للطلاق
من تشارلى .. فإن ابنهما الأصغر راحل إلى انجلترا ، ومن الخير لها
أن ترحل معه هى الأخرى ، فليس لديها ما تفعله إطلاقاً فى
هونج كونج ، وإنما سيغدو فى وسعها أن تقضى كل العطلات
مع أولادها .. ثم إن أباها وأمها يقيمان فى انجلترا .. » .

إذن فقد كان الأمر سهلا للغاية، ومن الممكن تدبير كل شىء
دون ما فضيحة أو ضغينة ، فلا تلبث أن يصبح فى وسعها وتشارلى
أن يتزوجا !.. وتنفست كيتى الصعداء .. لسوف يكونان فى أوج
السعادة .. وكانت هذه الغاية تستحق أن يخوضا من أجلها بعض
المتاعب .. وأخذت الرؤى تتتابع عليها متلاحقة ، متداخلة بعضها
فى بعض : فكرت فى الحياة التى سيعيشانها معاً .. فى المسرة التى
سيحظيان بها ، وفى الرحلات القصيرة التى سيقومان بها معاً .. فى
البيت الذى سوف يقيمان فيه .. فى المركز الذى سيرقى إليه ، وفى

المعونة التى ستبذلها من أجله .. لسوف يفخر بها كل الفخر ..
أما هى .. فسوف تعبده !

بيد أن مساً من القلق كان يسرى فى جميع هذه الرؤى من أحلام
اليقظة .. كانت أحلاماً بهيجة ، كأنما كل شىء حولها كان يبعث
أعذب الألحان .. ولكن ، فى قرار تلك الأنغام كان ثمة دوى خافت
منفر ، كئيب .. فإن وولتر لن يلبث أن يعود إلى البيت ، إن عاجلا
أو آجلا !.. وتسارعت خفقات قلبها وهى تتصور لقاءه .. كان من
الغريب أن انصرف بعد ظهر ذاك اليوم دون أن يقول لها كلمة ما ؛
وراحت تردد لنفسها أنها بطبيعة الحال لم تكن خائفة منه ، إذ ماذا
يستطيع أن يفعل ، على أسوأ الافتراضات ؟ .. غير أنها عجزت
عن أن تطامن من هواجسها .. وراحت تكرر من جديد ما اعتزمت
أن تقول له : ما جدوى إثارة ضجة ؟.. إنها جد آسفة ، ويعلم الله
أنها ما أرادت أن تسبب له ألماً ما .. ولكنها لم تكن تملك من أمرها
شيئاً ، إذ لم تقو على أن تحبه .. وما كان ثمة خير يرجى من التكلف
والمداراة ، بل إن من الأفضل دائماً الاعتراف بالحقيقة .. وإنها
لترجو أن لا يشقى ، فلقد اشتركا معاً فى الخطأ إذ تزوجا ، وليس
أفضل من الإقرار بذلك .. ولسوف تظل تذكره دائماً بالخير !

وغشيتها لفحة من الخوف المباغت ، رغم أنها ما كانت تحدث
إلا نفسها !.. فإذا العرق يتفصد من إبهامى يديها .. وأحست بالحنق
والغضب يشتدان فى أعماقها عليه ، من فرط خوفها منه ! إذا شاء أن

يثير ضجة ، فليكن له ما أراد ، والذنب ذنبه .. ولا ينبغى له أن
يدهش إذا استجلب على نفسه أكثر ممـا كان يرجو .. لسوف تقول
له : إنها ما حفلت به قط ، وإنه لم يمر بهـا منذ زواجهما يوم لم تندم
فيه على زواجها منه !.. كان غبياً بليد الحس ، ولكم بعث الملل إلى
نفسها !.. لكم أضجرها !.. كان يعتبر نفسه أفضل بكثير من سواه ،
وما أدعى هذا للضحك !.. إنه لم يؤت قط أى قسط من المرح ،
وتذوق الفكاهة :: ولقد كانت تكره تزمته ، وبروده ، ورزانته ..
وما أسهل أن يتخـذ المرء سمة الرزانة إذا كان لا يهتم أو يعنى بأى
شىء ، أو أى شخص ، عدا نفسه !.. كان وولتر يثير تقززها ،
حتى أنها كانت تكره أن تدعه يقبلها :: ففيم كان غروره إذن ، وبم
كان يزدهى ويتيه ؟.. كان جـاهلا فى الرقص ، جـامد الروح فى
الحفلات ، لا يلعب ولا يغنى ، ولا يمـارس « البولو » ، ولا يتفوق
على سواه فى « التنس » ، أفكان يحذق « البريدج » ؟.. ربما ، ولكن
منذا الذى يحفل بالبريدج ؟

وهكذا راحت « كيتى » تذكى جذوة ثورتها .. فليجرؤ على
أن يلومها !.. لقد كان كل ما حدث نتيجة خطئه هو ، وإنما لتشعر
بارتياح لكونه عرف الحقيقة أخيراً ، فقـد كانت تكرهه وتتمنى
لو أنها لا تراه ثانية قط !.. أجل .. كانت مغتبطة لأن كل شىء قد
انتهى .. لم لا يدعها وشأنها ؟.: لقد ضايقها حتى ارتضت الزواج
منه ، ولكنها الآن بلغت أقصى درجات الملل والضجر ..

ورددت لنفسها بصـوت عال وهى ترتعش غضباً : « لقـد
سئمت :: سئمت .. سئمت ! » .

ثم تناهى إليهـا صوت السيارة تقف لدى باب حـديقة الدار ..
وسمعته يصعد السلم !

- ١٨ -

● وولج الغرفة ، فإذا قلبها يخفق فى عنف ، ويداها ترتجفـان
– ومن حسن الصدفة أنها كانت مستلقية على الأريكة ، وقد أمسكت
بكتاب مفتوح كما لو كانت تقرأ – ووقف وولتر على العتبة لحظة ،
ثم التقت أنظارهما .. وغاص قلبها ، وأحست فجأة بقشعريرة تسرى
فى أوصالها فارتعشت .. وسـاورها ذلك الشعور الذى تعبر عنه
بقولك : « كأن امرؤاً يمشى على قبرى ! » .

كان وجهه فى شحوب الموتى .. فهى لم تره كذلك من قبـل
إلا مرة واحدة ، يوم كانا يجلسان فى المنتزه ، فسألها أن تقبل الزواج
منه .. والآن لاحت لهـا عيناه السوداوان ، الجامدتان ، للغامضتان ،
كما لو كانتا اكتسبتا اتساعاً غير طبيعى .. كأن يعرف كل شىء !

وقالت فى تكلف : « لقد عدت مبكراً .. » .

وارتجفت شفتاه حتى كادت لا تستبين كلماته وهو يجيبهـا :
« أظننى جئت فى موعدى المعتاد تقريباً .. » .

وتولاها الفزع ، حتى خشيت أن تفقـد الوعى .. وبدا صـوته
غريباً فى أذنيها .. سيما حين ارتفع عند الكلمة الأخيرة فى جهد أراد

أن يغالب به ما كان يخالجه ، ولكنها أدركت أنه اغتصبه من حلقه اغتصاباً !.. وساءلت نفسها عما إذا كان قد رأى كل جارحة فى جسدها وهى ترتجف .. ولم تغالب الصرخة التى كادت تند عنهـا إلا بجهد !

وغض بصره قائلا : « سأذهب لأستبدل ثيابى للعشاء » .. ثم فارق الحجرة وهى مضعضعة الحواس ، حتى لقد ظلت دقيقتين أو ثلاثاً لا تقوى على الحراك .. ولكنها لم تلبث أن رفعت جسدها عن الأريكة فى عناء ، وكأنها برئت حديثاً من مرض أورثها ضعفاً ، ونهضت على قدميها ، وهى لا تدرى إن كانت ساقاها تقويان على حملها .. وراحت تستند إلى المقاعد والمناضد ميممة شطر الشرفة ، ثم اعتمـدت الحـائط بيدها ، ومضت إلى غرفتهـا ، فارتدت ثوباً ممـا يرتدى فى مناسبة تناول الشاى — فى ساعات الأصيل — حتى إذا عادت إلى غرفة زينتها ألفته واقفاً إلى جوار المـائدة ، يتـأمل الصور فى مجلة « سكيتش » .. واستجمعت كل قواها لتدفع نفسها إلى داخل الغرفة ، بينما ابتدرها هو قائلا : « هل نهبط ؟.. أحسب أن العشـاء معد ؟ » .

— هل تركتك تنتظر طويلا ؟

وضايقها أن لم تقو على السيطرة على رجفة شفتيها !.. ترى متى يتكلم فيبدد هذا الانفعال ؟.. وجلسا .. وسادهما الصمت لحظة ، ثم أبدى ملاحظة قطع بها حبل الوجوم ، ولكن تفاهة الملاحظة جعلت

لهـا جواً موحشاً .. إذ قال : « لم تصل الباخرة (امبريس) اليوم .. وأخشى أن تكون قد عاقتها عاصفة » .

— هل كانت مرتقبة اليوم ؟

— أجل ..

وتطلعت إليه إذ ذاك ، فرأت عينيه مثبتتين على طبقه .. وأبدى ملاحظة أخرى ، تشبه الأولى فى تفاهتها ، إذ كانت تدور حـول مباراة دورية للتنس توشك أن تبدأ ، فتكلم عنها وأطال الحـديث .. وكان صوته عادة مقبولا ، غنياً بالنبرات ، ولكنه اقتصر فى هـذه المرة على نبرة واحدة ، فبدا غير طبيعى إلى درجة غريبة ، جعلت كيتى تشعر كأنه يتكلم من بعد سحيق !.. وكانت عيناه طيلة الوقت تتجهـان إلى طبقـه ، أو المـائدة ، أو صـورة على الجدار .. كان يتحاشى أن يلتقى بصره ببصرها .. وتبينت أنه لا يقوى على أن ينظر إليها !.. حتى إذا ما فرغا من العشاء ، سألهـا : « هل نصـعد إلى الطابق العلوى ؟ » :

فأجابته : « إذا كان هذا يروق لك » .

ونهضت ، ففتح الباب وأمسك به كى تمر ، وهو يغض بصره ، وإذ بلغا قاعة الجلوس تناول الصحيفة المصورة من جديد ، وتساءل : « أهذا عدد جديد من (سكيتش) ؟.. ما أظننى رأيته من قبل » .

فقالت : « لست أدرى .. فما فطنت إلى وجوده » .

كانت المجلة ملقاة على المنضدة منذ أسبوعين ، وكانت كيتى

تعرف أنه تصفحها صفحة صفحة من قبل .. ومع ذلك فقد أمسك بها وجلس يتشاغل بالنظر إليها .. واستلقت هى من جديد على الأريكة ممسكة بكتابها ، مع أنه كان من عادتهما ، إذا مكثا وحيدين فى المساء ، أن يلعبا « الكونكان » أو لعبة « الصبر » .. ولكنه الليلة اضطجع فى المقعد الوثير ، فى وضع مريح ، وبدا مستغرقاً بكل انتباهه فى الصورة التى كان ينظر إليها .. لكنه لم يقلب الصفحة !.. وحاولت هى من ناحيتها أن تقرأ ، فلم تتبين الحروف الماثلة أمام عينيها ، ولاحت لها الكلمات مهتزة .. بل أحست برأسها يؤلمها فى قسوة وهى تسائل نفسها : متى تراه يتكلم ؟

وجلسا ساعة فى صمت .. وتنحت كيتى عن اصطناع القراءة وتركت الرواية تسقط فى حجرها لتتطلع إلى الفضاء ، وقد تولاها خوف من أن تصدر عنها أتفه حركة أو أتفه صوت .. أما هو فجلس هانئاً فى ذلك الوضع المريح ، وراح يحدق فى الصورة بعينيه الجامدتين الواسعتين .. وبدا لها صمته غريباً رهيباً ، كأنه وحش يتأهب للانقضاض !

وأجفلت عندما نهض فجأة ، فضمت قبضتى يديها فى شدة ، وأحست بالدماء تغيض من وجهها ، وقد خيل إليها أن اللحظة قد حانت ! ولكنه قال فى صوت هادئ ، أجوف ، وعيناه تتحاشيانها : « لدى بعض العمل ، لذلك سآوى إلى حجرة المكتب إذا لم يكن

لديك مانع .. وأظن أنك ستكونين قد أويت إلى مضجعك عندما أفرغ .. » .

— إننى متعبة الليلة بالفعل ..

— حسنا .. عمى مساء ..

— عم مساء ..

وبارح الحجرة !

- ١٩ -

● اتصلت كيتى تليفونياً بتاونسند فى أول فرصة سنحت لها فى الصباح التالى ، فبادرها متسائلا : « نعم .. ماذا لديك ؟ » .

— أريد أن أراك ..

— إننى جد مشغول يا عزيزتى .. فأنا رجل جم الأعمال .

— ولكنه أمر عظيم الأهمية .. هل أستطيع أن أوافيك فى مكتبك ؟

— أوه .. لا .. ما كنت لأفعل ذلك لو كنت فى موضعك .

— إذن ، فتعال إلى هنا ..

— ليس فى وسعى مفارقة مكتبى .. ما رأيك فى أن نلتقى بعد ظهر اليوم ؟.. ثم ألا ترين من الخير أن لا آتى إلى دارك ؟

— بل يجب أن أراك فوراً !

وران الصمت برهة ، خشيت معها أن يكون الاتصال قد انقطع فهتفت فى قلق : « أو لا تزال متصلا بى ؟ » .



وترددت فى الخارج برهة كأنما اجتذبت التحف
المعروضة إنتباههـا ..

– أجل .. كنت أفكر .. هل حدث شىء ؟

– لا أستطيع أن أخبرك خلال التليفون ..

وساد الصمت برهة أخرى قبل أن يستأنف الكلام قائلا : « حسناً ، اسمعى .. أستطيع أن أدبر أمورى بحيث أراك فى الساعة الواحدة إلا عشر دقائق .. فيحسن أن تذهبى إلى (كو – تشو) ، وسأوافيك هناك بأسرع ما أستطيع » .

فتساءلت فى استياء : « فى متجر العاديات ؟ »

فأجاب : « وما الحيلة إذا لم يكن فى وسعنا أن نلتقى فى بهو فندق (هونج كونج) فى أمان ؟ » .

وبدا لها أثر من الضيق فى صوته ، فقالت : « حسن جداً .. سأذهب إلى متجر كو – تشو » .

* * *

● وهبطت من « الريكشو » – العربة التى يجرها الخدم – فى طريق « فيكتوريا » ، ثم اجتازت الحارة المنحدرة الضيقة حتى بلغت المتجر .. وترددت فى الخارج برهة كأنما اجتذبت التحف المعروضة انتباهها ، ولكن فتى كان يقف خارج المتجر لدعوة الزبائن عرفها فابتسم لها فى تملق ، ووجه بضع كلمات بالصينية إلى شخص داخل المتجر ، فإذا صاحبه – الذى كان رجلا ضئيل الجسم بدين الوجه ، فى ثوب أسود فضفاض – يخرج إليها ويحييها ، فأسرعت

بالدخول .. وقال الرجل فى إنجليزية مهشمة : « لم يأت مستر تاونسند بعد .. هل تصعدين ؟ » .

فسارت إلى مؤخرة المتجر ، ثم صعدت السلم الواهى المعتم .. وتبعها الصينى ففتح لها الباب الذى أفضى إلى حجرة نوم مكتومة الهواء ، تشيع فيها رائحة الأفيون الحادة .. وهناك جلست على صندوق من خشب الصندل .. وإن هى إلا لحظـــة حتى سمعت وقع قدمين ثقيلتين كانت درجات السلم تئن تحتهما .. وأقبل تاونسند ، فأغلق الباب خلفه .. وكانت على وجهه سحابة قاتمة تلاشت إذ رآها ، فابتسم بطريقته المألوفة الفاتنة واحتضنها بين ذراعيه بقوة فقبلها ثم سألها : « والآن ماذا يضايقك ؟ » .

فابتسمت قائلة : « إن رؤيتك كافية لأن تسرى عنى » .

وجلس على السرير ، وأشعل سيجارة ، ثم قال : « إنك تبدين شاحبة بعض الشيء فى هذا النهار » .

فأجابت : « لا عجب .. فما أرانى أغمضت جفناً طيلة الليل ! » .

ورمقها وهو لايزال يبتسم ، بيد أن ابتسامته بدت مصطنعة ، غير طبيعية .. وخيل إليها أن ظلا من القلق بدا فى عينيه .. وأردفت: « إنه يعرف ؟ » !

ورانت لحظة صمت قبل أن يجيب قائلا : « وماذا قال ؟ » .

— لم يقل شيئاً ..

فتطلع إليها فى حدة وتساءل : « ماذا ؟ .. وماذا يجعلك تظنين أنه يعرف ؟ »

— كل شيء : نظرته .. لهجته فى الكلام أثناء العشاء ..

— هل كان يبعث على الضيق ؟

— لا .. بالعكس .. كان مؤدباً بدرجة تبعث على الريب ، ولأول مرة منذ زواجنا لم يقبلنى وهو يحيينى قبل النوم !

وغضت بصرها .. لم تكن واثقة من أن تشار لى فهم ما وراء ذلك ، فقد كان « وولتر » يحرص على أن يحتضنها ويلصق شفتيه بشفتيهـــا فلا يفلتهما .. وجسمه يلين كأنه ينصهر بالوجد الذى تثيره القبلة ..

وسألها تاونسند : « ولم تتوهمين أن لديه شيئاً لم يقله ؟ » .

— لست أدرى ..

وسادت فترة صمت ، جلست كيتى خلالها جامدة على الصندوق المصنوع من خشب الصندل ، وهى تتطلع إلى تاونسند فى قلق .. كان وجهه قد استردا كتئابه ، وقطب مابين حاجبيه ، واسترخت أعصاب ركنى فمه .. ولكنه ما لبث أن تطلع فجأة ، وأومضت عيناه بابتهاج خبيث ، ثم استطرد : « ما أرى أنه سيقول شيئاً .. » .

ولم تجب ، إذ لم تدر ماذا كان يعنى .. بينما أضاف قائلا :

« وعلى كل حال فإنه لن يكون أول رجل يغمض عينيه فى حال كهذه .. ما الذى يفيده من إثارة الشحناء ؟ .. لو أنه أراد أن يثير ضجة لكان قد أصر على ولوج غرفتك يوم كنا معاً ! » ..

وأومضت عيناه ، وانفرجت شفتاه عن ابتسامة عريضة وهو يقول : « لا بد أننا كنا سنبدو لحظتئذ نموذجين للغباء ! » .

– ليتك رأيت وجهه ليلة الأمس ..

– لعله كان مهموماً .. كانت صدمة بطبيعة الحال .. وإنه لموقف مهين لأى رجل .. لكن « وولتر » لايوحى لى بأنه من الرجال الذين يعمدون إلى غسل ثيابهم القذرة أمام الملأ !

فأجابت وهى مستغرقة فى التفكير : « ماأظنه يفعل .. إنه شديد الحساسية .. لقد تبينت ذلك » .

– هذا خير وأفضل بالنسبة لنا .. ألا ترين أن من حسن التدبير أن تضعى نفسك فى موقف غيرك ، وأن تسألى نفسك عما تفعلين لو كنت فى مكانه ؟ .. ليس ثمة سوى طريقة واحدة يستطيع بها أى رجل أن يصون كرامته إذا ما وجد نفسه فى مثل هذا الوضع ، وهى أن يصطنع الجهل بكل شىء ! .. وأراهنك بأى شىء أن هذا عين ما سوف يفعله ..

وكان تاونسند كلما مضى فى الكلام تزايد ابتهاجه ، فلمعت عيناه الزرقاوان ، واسترد مرحه ولطفه ، فأشاع جواً من الطمأنينة المشجعة .. وراح يقول : « يعلم الله أننى لا أحب أن أغض من شأنه ، ولكنك إذا راعيت الناحية الرسمية لوجدت أن الطبيب « البكتريولوجى » ليس بذى مكانة تذكر .. بينما الظروف كلها توحى بأننى سأغدو حاكماً إذا ما عاد « سيمونز » إلى الوطن ، ومن مصلحة « وولتر » أن يكون

على وئام معى .. فإن عليه أن يفكر فى مصدر عيشه ، كما نفعل جميعاً .. أفتظنين أن وزارة المستعمرات تقدر رجلا يثير فضيحة ؟ .. صدقينى إنه يستطيع أن يكسب كل شىء إذا ما أمسك لسانه .. وأن يخسر كل شىء إذا أثار ضجة ! » .

وتململت « كيتى » .. كانت تعرف مدى خجل « وولتر » ، وتكاد تؤمن بأن الخوف من الفضيحة ، والذعر من إثارة انتباه الناس ، يسيطران عليه .. ولكنها لم تكن تعتقد أنه يحفل بالتفكير فى النفع المادى الذى يعود عليه .. وقد يكون من المحتمل أنها لم تعرفه حق المعرفة .. ولكن تشارلى لم يعرفه إطلاقاً !

وسألته : « هل خطر ببالك أنه مجنون بحبى ؟ » .

ولم يجب ، بل رمقها بنظرة مبتسمة من عينيه الماكرتين .. وكانت تعرف هذه النظرة الساحرة وتحبها .. فقالت : « حسناً ، ماذا لديك ؟ .. أعلم أنك توشك أن تنطق بشىء خطير » .

– أريد أن أقول إن النساء كثيراً ما يوحين إلى أنفسهن بأن الرجال يهيمون بهن أكثر مما هم فى الواقع !

وضحكت للمرة الأولى .. كانت ثقته توحى إليها بالطمأنينة :: وقالت : « ما أقبح ما تقول ! » .

– بل أصارحك إنك لم تكونى تحفلين بزوجك كثيراً فى الفترة الأخيرة :: فلعله لم يعد مدلهاً بك بالقدر الذى كان عليه .

— مهما تكن الظروف ، فلن أخدع نفسى أبداً بأنك متيم بى إلى درجة الجنون !

— تخطئين فى هذا ..

ولذ لها أن تسمعه يقول ذلك ، وإن كانت تعلمه من قبل ، وأحست أن إيمانها بوجده يغمر قلبها بالدفء :: وكان قد نهض عن السرير أثناء الحديث وجلس إلى جوارها على الصندوق المصنوع من خشب الصندل .. ثم أحاط جيدها بذراعه ، وقال :

— لا تتعبى مخيلتك الصغيرة الحمقاء لحظة بعد الآن .. أعدك بأنه لن يكون ثمة مايخشى .. إننى واثق كل الثقة من أنه سيتظاهر بأنه لايعرف شيئاً .. فأنت تعرفين أن مثل هذا الأمر يتعذر إثباته .. ثم إنك تقولين إنه يحبك ، فلعله لذلك لايحب أن يفقدك نهائياً .. أقسم إننى كنت أوثر أن أقبل هذا لو أنك كنت زوجتى !

ومالت عليه .. ودب الوهن فى جسمها لمجرد لمسها جسمه .. كان الحب الذى تحسه نحوه يبلغ مبلغ العذاب .. ولقد أوحت إليها كلماته الأخيرة بأن من المحتمل أن وولتر كان مشبوب الغرام بها إلى درجة تجعله على استعداد لأن يقبل كل مهانة وصغار ليحظى بها فى بعض الأحيان ! .. ولقد كان فى وسعها أن تقدر شعوره هذا ، لأنه عين شعورها نحو تشارلى ! .. وسرت فى جسدها رجفة مزهوة ، كما خالجها فى الوقت ذاته شعور واهن من الازدراء نحو الرجل الذى يسمح لحبها بأن يستعبده إلى هذه الدرجة !

وأحاطت عنق تشارلى بذراعها فى هيـام وقالت : « يا لك من رائع .. كنت أرتجف كورقة فى مهب الريح ، حين جئت .. فإذا بك تصلح كل شىء ! » .

فاحتوى وجهها بين راحتيه ، وقبل شفتيها مغمغماً : « ياحبيبتى » !

وزفرت هامسة : « لشد ما تبعث الطمأنينة فى نفسى ! » .

— إننى متأكد من أن لاحاجة بك إلى أن ترهقى أعصابك .. وإنك لتعرفين أننى سأقف إلى جوارك ، ولن أتخلى عنك ..

وطرحت عنها هواجسها ، وإن خالجها — لحظة — أسف لا مبرر له على ما أصاب الخطط التى رسمتها للمستقبل من تصدع .. وإذ انجاب عنها كل شعور بالخطر ، غدت تتمنى لو أن « وولتر » وطن عزمه على الإصرار على الطلاق !

وقالت : « أعلم أن بوسعى أن أعول عليك .. » .

— هذا ما آمله ...

— ألا ينبغى أن تنصرف الآن لتتناول غداءك .. ؟

— أواه ! .. ليذهب غدائى إلى الشيطان !

وشدها إليه ، حتى ألصقها به ، وراح فمه يبحث عن فمها .. فهتفت فى وهن : « أواه ياتشارلى .. دعنى أذهب » .

— أبداً ! ..

وأطلقت ضحكة قصيرة خافتة :: ضحكة أطلقها الهناء فى الحب ،

والشعور بالفوز .. وكانت عيناه تفيضان بالرغبة .. فأنهضها على قدميها وظل يشدها إلى صدره ولا يفلتها .. بينما امتدت يده توصد الباب بالمفتاح.

- ٢١ -

● ظلت كيتى طيلة الوقت - بعد ظهر ذلك اليوم - تفكر فيما قاله تشارلى عن ولتر .. كان من المقرر أن يتناولا العشاء فى تلك الليلة خارج الدار ، لذلك كانت قد أتمت ارتداء ثيابها حين عاد وولتر من المنتدى وطرق بابها ، فهتفت : « ادخل » .. بيد أنه لم يفتح الباب ، بل قال من ورائه :

- سأبادر بارتداء ثيابى .. كم من الوقت يلزمك ؟

- عشر دقائق ...

ولم يعقب ، بل اتجه لفوره إلى غرفته .. كانت فى صوته تلك اللهجة المتحفظة التى سمعتها فى الليلة السالفة ، لكنها الآن غدت فى أتم اطمئنان إلى نفسها .. وسبقته فى التأهب ، فلما هبط السلم ، ألفاها جالسة فى السيارة .. فقال : « أخشى أن أكون قد تركتك تنتظرين » .

فأجابت وقد تمكنت من الابتسام : « لم يضجرنى ذلك » ..

وأبدت ملاحظة أو اثنتين وهما يهبطان التل بالسيارة ، ولكنه أجاب عنهما فى اقتضاب ، فهزت كتفيها .. كانت قد بدأت تفقد حلمها قليلا : لئن كان راغباً فى التجهم والعبوس ، فليكن له ما أراد ، ولن تحفل به ! .. وسادهما الصمت حتى بلغا غايتهما .. كانت ثمة حفلة عشاء كبيرة ، وكان هناك حشد كبير من الناس ، ومجموعة

شهية من ألوان الطعام .. وراحت كيتى ترقب وولتر وهى تثرثر فى مرح مع جيرانها .. كان وجهه عابساً شديد الاصفرار ! .. وسمعت من يقول لها : « إن زوجك يبدو شاحباً .. ظننته لا يتأثر بحرارة الجو .. أهو برهق نفسه بالعمل ؟ » .

- إنه دائماً يعمل جاهداً ..

- ظنك سترحلين إلى الخارج قريباً ؟

فقالت : « آه .. أجل ، أظننى سأذهب إلى اليابان كما فعلت فى العام الماضى .. فإن الطبيب يقول أن لابد لى من الفرار من الحر إذا شئت أن لا تنهار صحتى .. » .

ولم ينظر إليها وولتر مبتسماً بين آن وآخر كعادته حين كانا يتناولان العشاء فى الخارج .. قط لم ينظر إليها ! .. وكانت قد لاحظت أنه تحاشى النظر إليها حين لحق بها فى السيارة ، وفعل نفس الشيء حين بسط لها يده فى أدبه المألوف يساعدها على النهوض .. فلما جلس الجميع حول المائدة ، لم يبتسم وهو يتحدث إلى الجالستين إلى جانبيه ، وإنما كان ينظر إليهما بعينين جامدتين لا تطرفان .. وكانت عيناه تبدوان عظيمتى الاتساع حقاً ، وكأنهما قطعتان من الفحم الأسود فى ذلك الوجه الشاحب .. كان وجهه جامداً قمطريراً !

وقالت كيتى لنفسها فى سخرية : « يا له من رفيق مسل ! » .. ولم يغير من رأيها أن السيدتين السيئتى الحظ اللتين كانتا تجلسان إلى جانبيه راحتا تحاولان مجاذبة ذلك الوجه العابس أطراف الحديث ..

إنه ولابد كان على علم .. لم يكن ثمة شك فى ذلك .. لابد أنه كان ساخطاً عليها .. لم لم يفضفض بشىء ؟ .. أكان ذلك لأنه – رغم غضبه وألمه – كان يحبها إلى درجة تجعله يخاف أن تهجره ؟ .. وجعلتها هذه الفكرة أكثر شعوراً من قبل بشىء من الازدراء نحوه ! .. ولكنه ازدراء خال من سوء النية ، فهو رغم كل شىء زوجها الذى يوفر لها المأوى والسكن .. وإنها لعلى استعداد لأن تتلطف معه طالما حرص على عدم التدخل فى شئونها ، وتركها تفعل ما تشاء .. ومن ناحية أخرى ، لعل صمته راجع إلى إفراطه فى الخجل وحسب ! .. لقد كان تشارلى مصيباً إذ قال أن ليس من مخلوق يكره الفضيحة قدر وولتر .. إنه قط لم يلق فى مناسبة خطاباً استطاع أن يتفاداه .. ولقد أنبأها مرة أنه استدعى يوماً للشهادة فى إحدى القضايا ، فظل أسبوعاً قبل القضية ، لا يكاد ينام ! كان خجله نوعاً من المرض ..

وثمة شىء آخر .. إن الرجال مغرورون فى أنفسهم ، ومن المحتمل أن يقنع وولتر بتجاهل ما حدث طالما أن أحداً لم يدر بشىء ! .. وساءلت كيتى نفسها إذ ذاك عما إذا كان تشارلى قد ألهم الصواب حين أشار إلى أن وولتر كان مضطراً إلى أن يقدر مصدر عيشه ؟ .. لقد كان تشارلى أبرز شخصية فى المستعمرة ، ولن يلبث أن يصبح فى القريب حاكماً ، وإذ ذاك يغدو عظيم النفع لوولتر .. كما أنه يستطيع – من ناحية أخرى – أن يجعل نفسه مصدر تعب لوولتر إذا شاء هذا أن يركب رأسه ! .. وخفق قلبها جذلا إذ فكرت فى قوة عاشقها وقدرته

على التدبير .. كانت تحس بين ذراعيه القويتين بأنها عزلاء لا حول لها ولا قوة .. ما أعجب الرجال ! .. ما كان ليخطر ببالها أبداً أن وولتر يهوى إلى مثل هذا الهوان .. ومع ذلك ، فمن يدرى ؟ ؛ لعل مظهره الوقور لم يكن سوى قناع يخفى طبيعة وضيعة ، حقيرة ، مخزية .. وكانت كلما فكرت فى ذلك ، ازدادت ميلا إلى الإيمان بصدق تشارلى .. وحولت نظرها مرة أخرى إلى زوجها فى غير ما رفق أو تسامح ..

وكانت المرأتان الجالستان إلى جانبيه قد تحولتا فى تلك الأثناء إلى جاريهما وأخذتا تبادلانهما الحديث .. بينما بقى هو وحيداً ، يحدق فى الفضاء أمامه ، وقد نسى المأدبة ، وفاضت عيناه بحزن قاتل ، هز قلب كيتى !

– ٢٢ –

● كانت كيتى مستلقية بعد غداء اليوم التالى مغفية ، حين أيقظتها طرقة على بابها ، فصاحت فى انفعال : « من هناك ؟! » .. ولم تكن قد اعتادت أن يزعجها أحد فى مثل تلك الساعة .. وسمعت صوت زوجها يقول : « أنا » .. فأسرعت تجلس وصاحت : « ادخل » .. فسألها وهو يغلق الباب خلفه : « هل أيقظتك ؟ » .

فأجابت باللهجة الطبيعية التى انتهجتها معه فى اليومين الأخيرين .

« أجل ، إن شئت الواقع » .

– هلا أتيت إلى الحجرة المجاورة ، إذ أريد أن أتحدث إليك قليلا .

واشتدت دقات قلبها فى صدرها فجأة ، وقالت : « سأرتدى ثوباً وألحق بك » .

وتركهـا ، فدست قـدميها العاريتين فى نعلين ، ولفت جسدهـا فى غلالة « كيمونو » .. ثم أطلت فى المرآة ، فإذا هى شديدة الشحوب ، فوضعت بعض الطلاء الأحمر على وجهها .. ووقفت لدى الباب لحظة تستجمع أعصابها للمقابلة .. ثم لحقت به بوجه تجلت عليه الجرأة المجردة من الحياء ..

وبادرته : « كيف استطعت أن تغادر المعمل فى هذه الساعة ؟.. ما اعتدت أن أراك كثيراً فى هذا الوقت من النهار » .

— هلا جلست ؟

ولم ينظر إليها .. كان يتكلم بلهجة رصينة مهيبة ، فسرها أن تستجيب ، إذ كانت ركبتاها قد شرعتا ترتجفان .. ولاذت بالصمت ، عجزت عن المضى فى لهجتها الساخرة .. وجلس هو بدوره ، ثم أشعل سيجارة .. وراحت عيناه تتنقلان فى أرجاء الحجرة فى غير استقرار .. بدا أنه يعانى مشقة فى فتح باب الحديث .. وفجأة تطلع إليها محملقاً فى وجهها ، فإذا نظراته — لفرط ما كانت تتفاداها — تبعث الذعر فى نفسها ، حتى لم تمالك نفسها من إطلاق أنة مكتومة .. وسألها :

— هل سمعت يوماً عن « مى — تان — فو » ؟ .. لقد تردد اسمها كثيراً فى الصحف أخيراً ..

وحملقت فيه فى دهشة ، ثم قالت فى تردد : « أهى المنطقة التى

انتشرت فيها الكوليرا ! .. كان مستر أربوثنوت يتحدث عنها ليلة الأمس » .

— هناك وباء ، أعتقد أنه أسوأ ماظهر منذ سنوات .. وكان يعمل فى المنطقة طبيب من رجال البعثات التبشيرية ، ولكنه مات بالكوليرا منذ ثلاثة أيام .. وفيما عدا راهبات الدير الفرنسى ، وموظف الجمرك بالطبع ، فإن جميع سكان المنطقة هجروها !

وكانت نظراته لا تزال مثبتة عليها ، ولم يك فى وسعها أن تنكس بصرها .. وحاولت أن تقرأ ماسيطر على ملامحه من تعبيرات ، ولكن أعصابها كانت مضطربة ، فلم تمالك أن تجد نفسها مسوقة إلى التزام لون غريب من الحذر .. كيف يرمقها بهذا الحزم ، فلا يكاد يطرف له جفن ؟ .. ومضى يقول :

— وتبذل الراهبات الفرنسيات قصارى جهدهن فى مكافحـة الوباء ، وقد أحلن الملجأ إلى مستشفى .. ولكن الناس يهوون صرعى كالذباب .. وقد عرضت أن أذهب وأتولى مقاومة الوباء ..

— أنت ؟

وأجفلت مأخوذة .. وكان أول ما خامرها أنها إذا مارحل غدت حرة ، لايعوقها شىء عن أن ترى تشارلى ؟ .. ولكن الفكرة هزت كيانها ، فشعرت بوجهها يتضرج .. لماذا يرقبها هكذا ؟ .. وأشاحت فى حيرة ، وتساءلت متلعثمة : « أو هذا أمر لا مفر منه ؟ » .

— ليس فى المنطقة طبيب أجنبى واحد ..

— ولكنك لست طبيباً ، وإنما أنت « بكتريولوجى » ..

— تعرفين أننى حصلت على إجازة الطب وأننى قبل أن أتخصص فى التحاليل تدربت فترة طويلة فى المستشفيات على ممارسة الطب عامة .. ثم إن كونى أخصائياً بكتريولوجياً أفضل بالنسبة لى ، إذ سيتيح لى فرصة رائعة للقيام بالأبحاث ..

وكان يتكلم فى طلاقة .. وأذهلها حين نظرت إليه أن رأت فى عينيه وميضاً من السخرية والاستهزاء ، عجزت معه عن أن تفهم ما كان يبغى ، فقالت : « لكن ذلك سيكون أمراً بالغ الخطورة ؟ » .

— إلى أقصى درجة .

وابتسم .. ابتسامة ساخرة ! .. وأسندت هى جبينها إلى راحتها .. أهو انتحار ؟ .. إنه بمثابة ذلك ! .. يا للهول ! .. إنها ما كانت تظن أنه سيتلقى خيانتها على هذه الصورة .. لكنها لا تملك أن تدعه يقدم على ذلك .. إنها قسوة .: لم يكن ذنبها أنها لم تحبه ! .. ولم تقو على احتمال التفكير فى أنه سيقتل نفسه من أجلها ، فانسابت الدموع على خديها مدراراً ..

وسألها : « لم تبكين ؟ » .. فأجابته فى لهجة باردة : « لست مجبراً على الذهاب .. » .

— هذا صحيح .: فإنى ذاهب بمحض إرادتى :

— إذن أرجوك أن لا تذهب ياوولتر .: سيكون الأمر فظيعاً لو أن شيئاً حدث لك .: هب أنك لقيت حتفك ؟

ومع أن وجهه ظل جامداً ، إلا أن شبح ابتسامة عاد يطفو على

نظراته .. ولم يجب .. فعادت تسأله بعد صمت : « أين يقع هذا المكان ؟ » .

— « مى – تان – فو » ؟ .. إنه مجرد فرع من النهر الغربى .. ومن ثم يجب أن نرحل على النهر فى اتجاه مصبه ، ثم تتم رحلتنا على المحفات ..

— من تقصد بـ « نا » ؟

— أنت .. وأنا !

ونظرت إليه فى عجلة وقد خيل إليها أنها أخطأت السمع ، فإذا الابتسامة قد انتقلت من عينيه إلى شفتيه .: وإذا عيناه السوداوان مثبتتان عليها .. فسألته : « أتتوقع أن أرحل أنا الأخرى ؟ » .

— ظننتك سترغبين فى ذلك ..

وبدأت أنفاسها تتهدج متلاحقة .. وسرت فى كيانها رعدة .. ثم قالت : « ولكن من المؤكد أن ليس هناك مجال لامرأة .. لقد أرسل المبعوث الدينى زوجه وأولاده إلى هنا منذ أسابيع ، كما جاء مبعوث الإدارة العامة وزوجته ، إذ قابلتها فى حفلة شاى .. وقد تذكرت الآن أنها قالت إنهما غادرا المكان بسبب الكوليرا » .

— هناك خمس راهبات فرنسيات باقيات فى المنطقة الموبوءة .

وتملكها الذعر ، فقالت : « لست أدرى ما تقصد .. من الجنون أن أذهب ، فأنت تعرف مدى ماعليه صحتى من إرهاف ، وقد قال الدكتور هايوارد أن على أن أغادر هونج كونج لشدة حرها .. إننى ن أقوى على احتمال الحر هناك .. والكوليرا ! لسوف أجن فزعاً ..

إنك بذلك تبحث عن سبب لإثارة المضايقات : . لاداعى يحتم ذهابى .. سأموت لو تم ذلك ! » .

ولم يجب .. وتطلعت إليه فى غمرة يأسها ، فلم تكد تقوى على كبح صرخة أوشكت أن تنطلق منها .. كان وجهه قد اكتسى بشحوب قاتم ، وارتسمت فى عينيه نظرة مقت ، أرهبتها .. أفمن المحتمل أنه يريد لها أن تموت ؟ .. وسبقته إلى الإجابة بنفسها على هذا الخاطر المفزع .

– هذا غباء مخيف .. إذا كنت ترى أنه يجدر بك أن تذهب ، فلك رأيك .. ولكنك يجب أن لاتتوقع منى أن أذهب .. إننى أبغض المرض .. والكوليرا منتشرة هناك بدرجة وبائية !؟.. وأنا لا أزعم إننى شجاعة ، ولا يضيرنى أن أنبئك بأننى لاتواتينى الجرأة على ذلك .. سأبقى هنا حتى يتهيأ الوقت لأذهب إلى اليابان ..

– ظننت أنك سترغبين فى مرافقتى إذ أرحل فى مهمة خطرة !

كان يسخر منها فى غير ما مداراة .. وكانت من الاضطراب بحيث لم تدر ما إذا كان يعنى ما قال ، أم كان يحاول مجرد إخافتها .. فقالت : « ما أظن أحداً يلومنى إذا أنا رفضت الذهاب إلى منطقة خطرة كهذه ، لا عمل لى فيها ، ولا مجال للانتفاع بى .. » .

– بل تستطيعين أن تكونى عظيمة النفع ، بأن تسرى عنى وتعملى على توفير الراحة لى ..

فازداد شحوبها ، وقالت : « لست أفقه ما تقول » .

– ما ظننت أن فهمه يحتاج إلى أكثر من ذكاء متوسط !

– لن أذهب ياوولتر .. من القسوة البشعة أن تطالبنى بالذهاب ..

– إذن ، فلن أذهب أنا الآخر .. سأبادر إلى سحب طلبى ..

– ٢٣ –

● حملقت فيه مشدوهة ، فإنها لم تكن تتوقع ما قال ، حتى لقد صعب عليها فى البداية أن تتمالك نفسها .. فهتفت وهى تشهق : « ماذا تعنى بربك ؟ » .

وبدا الزيف فى ردها واضحاً .. حتى لنفسها !.. ورأت نظرة ازدراء تنبعث من وجهه الصارم وهو يجيبها : « أخشى أنك غاليت فى تقدير غبائى ! » .

ولم تدر تماماً ماذا ينبغى أن تقول .. ترددت بين أن تقبل على تأكيد براءتها فى أنفة وكبرياء ، أو تنفجر منحية عليه باللائمة فى حنق .. والظاهر أنه قرأ أفكارها ، فقد قال : « إن لدى الدليل الكافى ! » :

وانخرطت فى البكاء .. انسابت الدموع من عينيها دون ما عناء واضح ، فلم تحاول أن تجففها ، بل بدا البكاء كأن يتيح لها فترة كى تتمالك نفسها ، إذ كان ذهنها خلواً من أية فكرة تسعفها .. بينما راح هو يرقبها فى غير ما اكتراث ، حتى أن هدوءه أفزعها .. وازداد صبره نفاداً ، فقال : « أنت تعلمين أنك لن تجنى شيئاً من البكاء .. » .

وكان صوته بارداً ، قاسياً ، أثار فى نفسها شيئاً من الأنفة ، فشرعت تسترد رباطة جأشها ، وقالت :

– لست آبه لشىء .. وما أرى لديك مانعاً من الطلاق .. فهذا لا يضير الرجل فى شىء ..

– أو تسمحين لى أن أسألك عما يدعونى إلى أن أحمل نفسى ما لا يروق لى بسببك ؟

– الأمر سواء بالنسبة لك .. وليس بالكثير أن أسألك أن تتصرف كأى شهم مهذب !

– إن لمصلحتك اعتباراً عظيماً لدى ، فوق ما تخالين ..

واعتدلت فى جلستها وجففت عينيها، ثم سألته : « ماذا تعنى ؟ » .

– إن تاونسند لن يتزوج منك إلا إذا صار طرفاً فى القضية .. وإنها لقضية مخزية ، حتى إن زوجته ستضطر إلى طلب الطلاق منه .

فصاحت : « إنك لا تدرى ما تقول » .

– بل إنك لحمقاء غبية ..

وكانت لهجته مفعمة بالازدراء ، حتى لقد تضرج وجهها غضباً .. بل لعل غضبها كان أكثر مما بدا عليها ، إذ أنها لم تكن قد اعتادت أن تسمع منه سوى كل قول عذب ، مبهج ، زاخر بالملق والمجاملة .. كانت قد ألفت أن تراه عبداً يستجيب لكل نزواتها .. لذلك بادرت قائلة :

– إليك الحقيقة إن شئتها .. إنه إنما يتلهف على الزواج منى ،

وأن دوروثى تاونسند لعلى استعداد تام لأن تطلقه ، ومن ثم فسنتزوج بمجرد تحررنا من رابطتينا ..

– هل ذكر لك هذا فى عبارات واضحة مفصلة ، أو إنه مجرد الأثر الذى أوحت به إليك تصرفاته ؟

وشعت عيناه ببريق ساخر مرير ، هز اطمئنان كيتى ، فإنها لم تكن واثقة تمام الثقة من أن تشارلى قال لها يوماً كل هذا فى عبارات واضحة وإسهاب .. ولكنها قالت : « لقد قاله لى مراراً وتكراراً .. » .

– هذا كذب .. وإنك لتدركين أنه كذب !

– إنه يحبنى بجماع قلبه وروحه .. يحبنى عين الوله الذى أحبه إياه. ولقد اكتشفت أنت ذلك بنفسك ، ومن ثم فلن أعمد إلى الإنكار .. ولماذا أنكر ؟ .. لقد كنا خليلين قرابة العام ، وإنى لفخورة بذلك ؟.. إنه كل شىء لى فى الحياة ، ويسرنى أنك عرفت ذلك أخيراً .. لقد سئمنا غاية السأم اضطرارنا إلى التكتم والحيطة وما إلى ذلك .. كان خطأ أن تزوجت منك ، فما كان ينبغى لى .. كنت حمقاء .. إذ أننى لم أكترث بك ، ولم تكن بيننا أية رابطة مشتركة ، فأنا لا أحب من تحب من أناس ، وأنا أضيق كل الضيق بما يروق لك من أشياء .. وكم أنا قريرة لانتهاء كل هذا الزيف !

وكان يراقبها دون أن تختلج فى وجهه جارحة تنم عن شعوره .. كان يصغى فى وعى دون أن يتبدى على وجهه ما يشى بأن لما قالته أثراً على نفسه .. واستطردت متسائلة :

ـ أتعرف لم تزوجت منك ؟

ـ لأنك أردت أن تتزوجى قبل أختك دوريس .

وكان هذا حقاً ، ولكنها أحست بشيء من الدهشة المثيرة إذ تبينت أنه على علم به .. ومن العجيب حقاً أن هذا أثار فى نفسها شيئاً من الإشفاق ، فى هذه اللحظة التى امتزج فيها الخوف بالغضب !

وابتسم هو فى وهن قائلا : « لم تخالجنى أية أوهام عن شعورك نحوى .. فقد كنت أعرف أنك حمقاء ، رعناء ، خاوية الرأس .. ولكنى كنت أحبك .. كنت أعرف أن أهـدافك ومثـلك العليـا مبتذلة .. سوقية .. ولكنى كنت أحبك .. كنت أعرف أنك إنسانة من الدرجـة الثانيـة .. ولكنى كنت أحبك !.. ومن المضحك أن أستعرض فى فكرى الآن كيف حاولت جاهداً أن أستطيب ما كان يطيب لك من أمور ، وكيف كنت حريصاً على أن أخفى عنك أننى لم أكن جاهلا ، ولا دنيئاً ، ولا محباً لإثارة الفضائح ، ولا غبياً .. كنت أعرف مدى ذعرك من الذكاء ، فبذلت كل ما فى وسعى لأجعلك تظنيننى على شاكلة من عرفت من الرجال الأغبياء .. كنت أعرف أنك لم تتزوجى منى إلا لترضى غرورك ، ومع ذلك فقد كان حبى عظيماً إلى درجة جعلتنى لا أكترث .. إن معظم النـاس ـ على ما أرى ـ يشعرون بغضاضة فى نفوسهم إذا ما أحبوا شخصاً ما ووجـدوا أن حبهم لا يقـابل بمثله .. فلا يلبثون أن يشـعروا بغيظ ومرارة مطردين .. لكننى لم أكن من هذا الصنف ، فما توقعت يوماً

أن تحبينى ، ولم أر ما يدعوك إلى أن تحبينى ، بل وما تصورت أننى من الشخصيات التى تحب .. وكنت قريراً بأن تسمحى لى بأن أحبك ، وكنت أطير جذلا إذا ما خيل لى من آن إلى آخر أنك راضية عنى ، أو إذا ما لاحظت فى عينيك بريق حنـان صـادق .. وحاولت أن لا أضايقك بحبى .. كنت أدرك أن ذلك يكلفنى غالياً ، ومع ذلك كنت دائماً أتراجع من أول إشارة تشى لى بأنك تضيقين بعواطفى .. وكنت أتلقى ما يعده معظم الأزواج حقاً من حقوقهم ، على أنه جميل منك ! » .

قط لم تسمع كيتى مثل هـذه الأقوال توجه إليها من قبل ، وهى التى ألفت طيلة عمرها أن لا تسمع سوى عبارات المداهنة والملق !.. فانبثق فى قلبها حنق ساخط اكتسح ما كان فيه من خوف ، وخالت أنه يوشك من يخنقها .. وأحست بالأوعية الدموية فى صدغيها تختلج فى عنف .. كان للغرور الجريح يجعل المرأة أكثر تحفزاً للانتقـام من أية لبؤة حرمت من أشبالهـا !.. وبرز فكها الأسفل إلى الأمـام ـ مع أنه عادة مربع بعض الشيء ـ فبدا شكلها قبيحاً .. وأظلمت عيناها بالشر ، ولكنها ظلت مسيطرة على أعصابها ، وقالت :

ـ إذا لم يؤت الرجل مايلزم لأن يحمل المرأة على حبه ، فالذنب فى ذلك ذنبه ، لا ذنبها !

ـ هذه حقيقة واضحة كل الوضوح ..

وضاعفت لهجته الساخرة من غيظها .. وأحست بأن فى وسعها

أن توغل فى إيلامه إذا هى احتفظت بهدوئها .. فقالت : « لست راقية التعليم ، لا أنا عظيمة الذكاء والمهارة .. إنما أنا شابة عادية فى كل شيء .. أحب ما اعتاد الناس الذين قضيت عمرى بينهم أن يحبوه .. أحب الرقص و « التنس » والمسارح ، وأحب الرجـال الذين يمارسون الألعاب .. وفى الحقيقة إننى كنت دائماً ضجرة منك، أضيق بما تميل إليه من أشياء .. فهى لم تكن تروق لى فى شيء ولا كنت راغبة فيها .. لقد جررتنى معك إلى معارض البندقيـة ومتاحفها التى لا نهاية لها ، فى حين كنت أشعر بمزيد من المتعة لو أننى — بدلا من ذلك — لعبت « الجولف » فى « ساندويتش » !

— أعلم ذلك ..

— إننى آسفة إذا لم أكن كما توقعتنى ورجوت منى .. ومن سوء الطالع أننى كنت دائماً أجدك تثير نفورى من الناحية الجسدية. وليس فى ذلك ما تستطيع أن تلومنى عليه !

— لست ألومك ..

وكان الاندماج فى الموقف أيسر على كيتى لو أنه ثار أو أرغى، إذ كان فى وسعها عندئذ أن تقابل العنف بعنف .. لكن سيطرته على نفسه كانت قاسية عليها ، فإذا بها تمقته إذ ذاك كما لم تمقته قط من قبل .. مما دفعها إلى أن تقول له : « ما أحسبك رجلا على الإطلاق .. لماذا لم تقتحم الحجرة حين عرفت أننى كنت فيها مع تشارلى ؟.. كان فى وسعك أن تحاول أن تضربه على الأقل .. أو كنت خائفاً ؟ » .

ولكن وجهها تضرج فى عين اللحظة التى قالت فيها ذلك ، إذ أحست باستحياء وخزى .. ولم يجبها ، ولكنها قرأت فى عينيه ازدراء قاسياً .. وحوم على شفتيه طيف ابتسامة ، وقال :

— لعلنى ، كتلك الشخصيات التى يحدثنا عنها التاريخ ، أشعر بأننى أرفع من أن أتشاجر ..

وهزت كيتى كتفيها وقد عجز ذهنها عن أن يسعفها برد .. وظل هو لحظة يتقاذفها بين نظراته الجامدة ، ثم قال :

— أظننى قلت كل ما أردت أن أقول .. إذا كنت ترفضين الذهاب إلى « مى — تان — فو » ، فسألغى طلبى ..

— لم لا توافق على أن تدعنى أطلب الطلاق منك ؟

فرفع بصره عنها أخيراً، واضطجع فى مقعده، وأشعل سيجارة دخنها حتى نهايتها دون أن ينبس ببنت شفة .. حتى إذا ألقى ما تبقى منها ، أرسل ابتسامة بسيطة ، وعاد ينظر إليها قائلا : « لو أن مسز تاونسند أكدت لى أنها ستطلق زوجها ، ولو أنه أعطانى وعداً كتابياً بأن يتزوج منك فى خلال أسبوع من صدور قرار الطلاق البات ، فإننى أوافق » ..

وكان فى الطريقة التى تحدث بها ما أشعرها بالهوان ، لكن كرامتها دفعتها إلى قبول ما عرض فى ترفع ، قائلة : « هذا كرم عظيم منك يا وولتر » .

ولدهشتها ، انفجر فجأة مقهقهاً ، فاحمر وجهها غيظاً وصاحت : « ما الذى يضحكك ؟ .. لست أرى ما يضحك » .

— معذرة .. يخيل إلى أن لى شعوراً غريباً فى تقدير موطن الفكاهة .

فحدجته فى عبوس ، وهى تود لو ترميه بكلمة قاسية تجرح شعوره ، لولا أن ذهنها لم يسعفها .. وألقى هو على ساعته نظرة ، ثم قال : « يحسن بك أن تبادرى إذا شئت أن تتصلى بتاونسند فى مكتبه ، فإن موعد انصرافه قد أزف .. أما إذا قررت أن تأتى معى إلى « مى — تان — فو » فسيكون من الضرورى أن نبدأ الرحلة بعد غد .. » .

— أوتريدنى أن أنبئه اليوم ؟

— يقولون إن ليس أنسب من الحاضر وقتاً ..

وشرعت دقات قلبها تتسارع .. لم يكن ما أحست به قلقاً ، وإنما كان .. لم تكن تدرى تماماً أى شىء كان ! .. وودت لو أنها أمهلت فترة أطول ، فقد كانت ترجو أن تمهد لدى تشارلى الحديث .. بيد أنها كانت توليه كامل الثقة ، إذ كان يحبها بقدر ما تحبه ، وكان من الغدر أن تسمح بأن تعبر بذهنها أى خاطر عن أنه قد لا يرحب بالضرورة التى فرضت عليهما .

والتفتت إلى ولتر قائلة فى جد : « ما أظنك تعرف ما هو الحب .. ليست لديك أتفه فكرة عن مدى ما يكنه كل من تشارلى

وإياى من حب للآخر .. وهذا هو الشىء الوحيد المهم فى الأمر .. وإزاءه تهون كل تضحية قد يتطلبها حبنا » .

فالتفت إليها فى انحناءة بسيطة دون أن ينبس ببنت شفة .. وتبعتها عيناه إذ سارت فى خطى منتظمة ، مغادرة الحجرة .

- ٢٤ -

● وأرسلت كيتى إلى تشارلى وريقة كتبت عليها : « أرجو أن تسمح لى بمقابلتك لأمر هام عاجل » .. وسألها خادم صينى أن تنتظر ريثما أحضر لها الجواب بأن مستر تاونسند سيستقبلها خلال خمس دقائق .. وكانت مرتبكة الأعصاب لدرجة لا حد لها .. وعندما اقتيدت أخيراً إلى غرفته ، تقدم تشارلى فصافحها ، على أنه لم يلبث أن أسقط تلطفه الرسمى بمجرد أن أغلق الخادم الباب وتركهما فى خلوة .. وعندئذ قال : « أعتقد يا عزيزتى أنك ينبغى أن لا تأتى إلى هنا أثناء ساعات العمل .. فإن لدى مشاغل جمة ، كما أننا لن نرضى بأن نتيح للناس فرصة كى يتقولوا علينا ..! » .

فرمقته بنظرة طويلة من عينيها الجميلتين ، وحاولت أن تبتسم .. ولكن شفتيها جمدتا ، فلم تستطع .. وقالت أخيراً : « ما كنت لآتى لولا الضرورة » .

فابتسم وأمسك بذراعها قائلا : « ما دمت هنا ، فتعالى واجلسى » .

كانت غرفته ضيقة ، ذات سقف عال ، خالية من الرياش ،

فكان كل ما احتوت من أثاث يتألف من مكتب كبير ، ومقعد دوار يجلس فيه تاونسند ، ومقعد جلدى وثير للزائرين ..

وأحست كيتى برهبة وهى تجلس فى هذا المقعد، بينما جلس هو إلى مكتبه .. ولم تكن قد رأته يلبس « نظارة » من قبل، لا ولا درت أنه يستعمل واحدة .. فلما لاحظ أن نظراتها استقرت عليها ، خلعها قائلا : « لست أستعملها إلا فى القراءة » .

وتبادرت الدموع إلى عينيها فى سهولة ، دون أن تدرى لذلك سبباً ، فشرعت تنتحب .. إنها لم تكن تتعمد أن تخدعه ، وإنما كانت تساورها رغبة غريزية فى أن تستثير عطفه .. فحملق فيها ، وتساءل : « هل حدث شىء ؟.. أواه يا عزيزتى ، لا تبكى ! » .

فأخرجت منديلها ، وحاولت أن تكبت عبراتها .. ودق هو الجرس ، فلما أقبل الخادم خف للقائه لدى الباب وقال له :

ـ إذا سأل أحد عنى فقل له إننى فى الخارج ..

ـ حسناً يا سيدى ..

وأغلق الخادم الباب ، فجلس تشارلى على ذراع المقعد وأحاط كتفى « كيتى » بذراعه قائلا : « الآن يا كيتى العـزيزة .. نبئينى بما كدرك .. » .

فقالت : « إن ولتر يريد للطلاق ! » .

وأحست بذراعه تتراخى حول كتفيها ، وبجسمه يجمد ..

ورانت عليهما لحظة صمت ، فنهض تاونسند ، وعاد يجلس فى مقعده .. ثم قال : « ماذا تعنين .. بالضبط ؟ » .

فرمقته بنظرة سريعة .. كان صوته أجش .. ولاحظت أن وجهه قد اكتسى حمرة كثيبة ، فقالت : « لقد تحدثت معه .. وجئت لتوى من البيت .. إنه يقول إن لديه الدليل الذى يلزمه ! » .

ـ أرجو أن لا تكونى قد انزلقت فأقررت بشىء ..؟

غاص قلبها .. وتمتمت ، كاذبة : « لا » .

فسألها وهو يتفرس فى وجهها : « أمتأكدة أنت ؟ » .

فعادت تصر على أكذوبتها : « كل التأكد » .

واضطجع فى مقعده ، مرسلا نظرات فارغة إلى خريطة الصين التى كانت معلقة على الحائط المقابل له .. وهى تراقبه فى قلق ، وقد أحست بشىء من الهوان من جراء الطريقة التى تلقى بها النبأ .. فلقد كانت تتوقع منه أن يتناولها بين ذراعيه وينبئها بأنه سعيد ، إذ صار فى وسعهما الآن أن يكونا معاً على الدوام !.. على أن للرجال طباعاً غريبة ولا بد .. وانخرطت فى البكاء بصوت خافت، لا لتثير عطفه فى هذه المرة ، وإنما لأن البكاء بدا لها أمراً طبيعياً فى هذا الموقف !

وقال تشارلى أخيراً : « هذا هو المأزق اللعين الذى تورطنا فيه .. على أنه ليس من الخير أن نجزع .. ولن يجدينا البكاء كما تعلمين » .

ولاحظت الانفعال الذى شاب صوته ، فجففت عينيها وقالت : « لا حيلة لى فى هذا يا تشارلى ، فإنى لا أكاد أقوى على أن أملك نفسى إزاءه » .

ــ ما أراك تقوين حقاً .. كان الأمر مجرد حـظ سيىء ، ولست أقل منك استحقاقاً للوم..والذى ينبغى أن نفعله الآن هو أن نتـدبر طريقاً للخروج من المـأزق .. فما أراك راغبة فى الطلاق ، شأنك فى ذلك شأنى أنا !

وكتمت شهقة كادت تفلت منها ، وتطلعت إليه فى تساؤل ، فإذا هو لا يفكر فيها .. إذ قال : « إنى لأتساءل ، أية أدلة يملكها ؟! فلست أدرى كيف يستطيع أن يثبت حقاً أننا كنا فى الحجرة معاً .. كنا فى كل شيء حذرين إلى أقصى ما يستطيعه أى امرؤ آخر . وإنى لمتأكد من أن العجوز صاحب متجر العاديات لا يجرؤ على الوشاية بنا .. وحتى إذا كان قد رآنا هناك ، فليس ثمة ما يحـول دون أن نشترك معاً فى البحث عن التحف الطريفة ! » .

وبدا كأنه يحدث نفسه أكثر مما كان يحدثها .. واستطرد يقول : « إن توجيه الاتهامات من السهولة بمكان ، ولكن من العسير جـداً إثباتها .. إن أى محام يؤكد لك هذا .. ومن ثم فخطتنا تتمثل فى أن ننكر كل شيء ، فإذا هدد برفع الأمر إلى القضـاء ، قلنا له افعـل ما بدا لك ، وخضنا المعركة ..! » .

ــ لكنى لا أستطيع أن أقف أمام القضاء يا تشارلى .

ــ ولمـاذا بربك ؟.. أخشى أنك ستضطرين إلى ذلك .. ويعـلم الله أننى لا أريد ضجة ، ولكنا لا نستطيع أن نرقد على جنبينا ونتلقى الهجوم صاغرين !

ــ وما حاجتنا إلى الدفاع ؟

ــ يا له من سؤال !.. ثم إن الأمر لا يتعلق بك وحـدك ، بل يعنى أنا الآخر .. على أننى بالطبع لا أظنك بحاجة إلى أن تخـافى .. سيكون بوسعنا أن نهزم زوجك بطريقة ما .. وليس يزعجنى سوى البحث عن خير طريقة لذلك .

وبدا كأنمـا وافته فكرة ، إذ تحول نحوها بابتسامته الساحرة ، وقد تحولت لهجته ــ التى كانت منذ لحظة جافة وجادة ــ إلى تلطف رقيق : « أخشى أنك تعرضت لصدمة قاسية أيتها الصغيرة المسكينة. ما أسوأ هذا ! » .. ومد يده فتناول يدها وهو يستطرد : « هـذا مأزق انزلقنا إليه ، ولكنا سنخرج منه .. إنها ليست .. » . وأمسك عن الكلام ، فهجس ببال كيتى أنه كان يوشك أن يقول إنهـا ليست المرأة الأولى التى خرج فيها من مثل هذا الموقف .. على أنه أردف يقول : « أهم شيء هو أن نحتفظ بثباتنا .. وإنك لتعرفين أننى لن أتخلى عنك أبداً ! » .

ــ لست فزعة .. ولست أحفل بمـا قد يفعل .

وظل مبتسماً ، بيد أن ابتسامته بدت كما لو كانت مغتصبة إلى حـد ما ، وقال : « إذا تطور الأمر إلى أسوأ حـدوده ، فسأخبر

الحاكم .. ولسوف يلعننى ويقسو فى السخط على ، ولكنه طيب ، ورجل دنيـوى حقاً .. وسيتدارك الأمر بطريقـة ما ، إذ ليس من صالحه فى شىء أن تفوح فضيحة ما ! » .

فتساءلت كيتى : « وما الذى يستطيع أن يفعله ؟ » .

ـ يستطيع أن يضغط على وولتر ، فإذا لم يؤثر عليه من ناحيـة تتعلق بطموحه ، فإنه سيعالجه من ناحية إدراك الواجب ..

وأحست كيتى بقشعريرة باردة ، إذ لاح أنها كانت عـاجزة عن أن تنبه تشـارلى إلى مدى سـوء الموقف وخطـورته .. وذهب استخفافه ببقية جـلدها ، فأحست بالنـدم لأنها جاءت لمقابلته فى مكتبه ، إذ كان الجو المحيط بها يشيع فى نفسها رهبة .. ولو أنهـا كانت فى أحضانه وذراعاها حول عنقه ، لسهل عليها أن تقـول ما كانت تود قوله !

وقالت : « إنك لا تعرف وولتر على حقيقته » .

ـ ولكنى أعرف أن لكل رجل ثمناً ..

وكانت تحب تشارلى بكل قلبها ، ولكن رده أشعرها بالصغار ، إذ كان من الغباء لرجل فى براءته أن يقول ذلك .. فعادت تقـول : « ما أراك قد تبينت مـدى غضب وولـتر .. إنك لم تر وجهـه ولا النظرة التى كانت تنبعث من عينيه .. » .

وظل لحظة لا يجيب ، وإن بقى ينظر إليها وعلى شفتيه ابتسـامة خفيفة .. وعرفت ما كان يفكر فيه .. كان وولتر ، كبكتريولوجى ،

فى منصب تحت إمرته ، فليس من الحكمة فى شىء أن يناصب كبار موظفى المستعمرة العداء .. فقالت فى إخلاص : « ليس من الخير أن تخدع نفسك يا تشارلى .. فلو أن وولتر عقد العزم على أن يرفع قضية ، لما كان لأى شىء تملك أنت أو سواك قوله أتفه تأثير عليه » .

وعاد وجهه يكتسى جهامة وعبوساً ، وتسـاءل : « أكانت فكرته أن يزج بى طرفاً فى القضية ؟ » .

ـ كانت تلك فكرته فى بادئ الأمر ، ولكننى أفلحت فى النهاية فى أن أحمله على أن يرتضى أن أكون أنا طالبة الطلاق .

فعاد يتخلى عن توتره مرة أخرى .. ورأت آثار الارتياح فى عينيه ، وهو يقول : « آه .. ليس هذا بالأمر الفظيع .. يلوح لى أن هذا خير مخرج .. وهو ، على كل حال ، أقل ما يستطيع أن يفعله أى شخص آخر .. إنه عمل ينم عن التعقل .. » .

ـ ولكنه يتمسك بشرط ..

فرمقها بنظرة متسائلة ، وقد لاح عليـه أنه يفكر .. وقـال : « لست واسع الثراء بطبيعة الحال ، ولكننى سأبذل كل ما فى طوقى .. » .

ولاذت كيتى بالصمت .. كان تشـارلى يتحـدث عن أمور ما كانت أبداً لتتوقع أن يتحدث عنها .. وقد جعلت هذه الأمور من العسير عليها أن تتكلم .. كانت تتوقع أن تفضى له بهذا الشرط فى

عبارة موجزة ، وهى بين أحضانه ، وقد أخفت وجهها المتضرج حياء ، فى صدره ..

وأردفت تقول : « إنه يوافق على أن أكون طالبة الطلاق ، بشرط أن تؤكد له زوجتك أنها ستطلب الطلاق منك » .

– وهل ثمة شىء آخر ؟

وعانت كيتى جهداً حتى انبعث صوتها وهى تستطرد : « و .. إنه ليشق على يا تشارلى أن أقول .. إنه شرط بغيض .. إنه يشترط أن تعد بأن تتزوج منى خلال أسبوع من صدور قرار الطلاق النهائى ! »

– ٢٥ –

● لاذ تشارلى بالصمت لحظة ، ثم عاد يتناول يدها ويضغطها فى رفق قائلا : « إنك لتعرفين يا حبيبتى أننا يجب أن نبقى دوروثى بعيداً عن هذه المسألة مهما حدث » .

فحملقت فيه وقالت : « ولكنى لا أفهم كيف يتسنى لنا ذلك ؟ » .

– ليس لنا أن نقصر تفكيرنا على أنفسنا فى هذه الدنيا ، فأنت تعرفين أن كل الأمور الأخرى سواء ، وليس أحب لدى فى هذه الدنيا من أن أتزوج منك .. ولكنه أمر غير ذى موضوع ، فإنى أعرف دوروثى .. لن يغريها شىء على أن تطلب الطلاق منى !

واشتد بكيتى الجزع ، فشرعت تبكى من جديد .. فنهض

وجلس إلى جوارها ، وذراعه حول خصرها ، وقال : « حاولى أن لا تعكرى صفوك يا حبيبتى ، إذ يجب أن نحتفظ برباطة جأشنا .. » .

– ظننتك تحبنى ..

فقال بحنان : « بالتأكيد أحبك .. وليس بوسعك الآن أن ترتابى فى ذلك ! » .

– إذا لم تطلب هى الطلاق منك فإن وولتر سيجعلك طرفاً فى القضية ..

وتريث فترة ليست بالقصيرة يتدبر الجواب ، فلما تكلم انبعث صوته جافاً خشناً : « إن هذا ولا شك سيهدم مستقبلى فى عملى ، لكنى أخشى أن لا يعود عليك أنت أيضاً خير كثير من وراء ذلك !.. ولو أن الأمور بلغت أقصى حدود السوء ، فسأصارح دوروثى بكل شىء ، وسوف تتألم وتشقى بدرجة فظيعة ، ولكنها ستغفر لى » .. ثم خطرت بباله فكرة فأردف : « لست واثقاً من أن كتمان الأمر عنها من حسن التدبير .. فلو أنها ذهبت إلى زوجك لاستطاعت – فى رأيى – أن تحمله على أن يمسك لسانه ! » .

– أتعنى بهذا أنك لا تريدها أن تطلب الطلاق منك ؟

– ربما .. فهناك أولادى الذين يجب أن أفكر فيهم .. أليس كذلك ؟.. ثم إننى بطبيعة الحال لا أبغى أن أشقيها .. لقد عشنا دائماً معاً فى وئام .. ولقد كانت زوجة طيبة لى كما تعرفين ..

– فلم أنبأتنى إذن بأنها لا تهمك فى شىء ؟

— لم أقل ذلك أبداً ، وإنما قلت إننى لم أكن معها على غرام .. ولم نتم معاً فى فراش واحد ، منذ سنوات ، اللهم إلا بين آونة وأخرى .. فى عيد الميلاد — مثلا — أو اليوم الذى كان يسبق سفرها إلى وطنها ، أو يوم عودتها .. فهى ليست بالمرأة التى تكترث لمثل هـذا الأمر .. على أننا كنا دائماً صديقين حميمين .. ولا ضير فى أن أخبرك بأننى أعتمد عليها أكثر مما أعتمد على أى شخص آخر أوتى عقلا ..

— ألا ترى إذن أنه كان من الخير أن تدعنى وشأنى ؟

وعجبت لنفسها إذ استطاعت أن تتكلم بمثل هذا الهدوء ، رغم أن الذعر كان يحبس أنفاسها .. أما هو فأجاب قائلا : « لقد كنت أروع امرأة رأيتها منذ سنوات ، فلم أتمالك أن جننت بك حباً .. فهل تلومينني على ذلك ؟ » .

— لقد قلت إنك لن تتخلى عنى أبداً ..

— هو ذلك وربى .. فلن أتخلى عنك .. لقد تورطنا فى مأزق بغيض ، وسأبذل كل ما فى طاقة الإنسان أن يفعل لأنتشلك منه !

— ستبذل كل ما فى طاقة الإنسان اللهم إلا العمل الطبيعى الواضح الوحيد ..

فنهض عائداً إلى مقعده ، وشرع يقول : « يجب أن تكونى معقولة يا عزيزتى .. ومن الخير أن نواجه الموقف بصراحة : إننى لا أحب أن أجرح إحساساتك ، غير أن من الواجب أن أنبئك بالحقيقة .. إننى شديد الحرص على مستقبلى ، فليس ثمة ما يمنع من

أن أكون حاكماً فى يوم من الأيام ، وإنه لمنصب شديد الإغراء — منصب الحاكم لإحدى المستعمرات — وما لم نخمد هذه الضجة ، لن تكون أمامى فرصة ما .. صحيح أن الأمر قد لا يؤدى إلى أن أترك الخدمة ، بيد أنه سيظل وصمة سوداء ضدى .. ثم إننى إذا اضطررت إلى أن أترك الخدمة ، فلابد لى من أن أتحول إلى الاشتغال بالتجارة فى الصين حيث عرفت الناس .. وفى الحالين ، يتوقف حظى على مدى ملازمة دوروثى لى ! » .

— أفكان من الضرورى والحالة هذه أن تنبئنى بأنه لم تكن ترغب فى شىء من الدنيا سواى ..؟

فتراخت عضلات ركنى فمه فى ضجر وقال : « أواه يا عزيزتى .. من الصعب أن تتمسكى بحرفية ما يقول أى رجل وهو فى نشوة حبك ..! » .

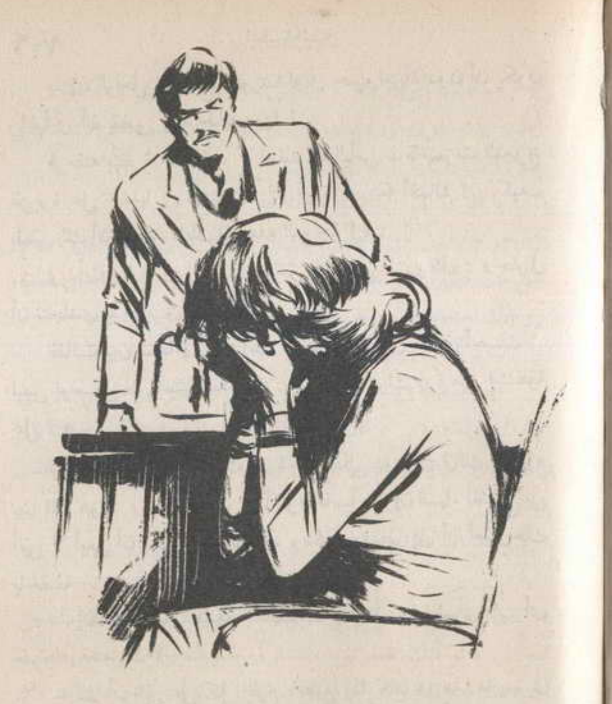
— أو لم تكن تعنى ما قلت ؟

— كنت أعنيه فى اللحظة التى قلته فيها ..

— وماذا يكون من أمرى إذا طلقنى ولتر ؟

— إذا لم يكن لدينا ما نستند إليه ، فلن يتسنى لنا أن ندفع الأمر عنا بالطبع :. ولن تكون ثمة ضجة .. كما أن عقول الناس قد اتسعت اليوم ، فهم أكثر تسامحاً ..

ولأول مرة فكرت كيتى فى أمها ، فارتجفت .. وعادت تتطلع إلى تاونسند من جديد ، وقد شاب ألمها نوع من الأنفة والاستنكار ،



ولم تعد تقوى على الكلام ، فراحت تبكى دون أن تتالك نفسها ..

وقالت : « إننى واثقة من أنك لن تجد عناء فى تحمل أية متاعب أعانيها .. » .

— لن نحرز أى تقدم بتبادل الأقوال المقذعة ..

وتأوهت فى قنوط .: كان من الفظيع أن تكون متفانية فى حبه بالدرجة التى كانت عليها ، ثم تشعر نحوه بتلك المرارة .. لم يكن من الميسور أن يفقه مدى قيمته بالنسبة لها .. وهتفت فى أنين : « أواه يا تشارلى .. ألا تدرى كم أحبك ؟ » .

— ولكننى أحبك يا عزيزتى .. غير أننا لا نعيش فى جزيرة مهجورة ، وعلينا أن نفيد من الظروف المفروضة علينا إلى أقصى ما نستطيع .. يجب أن تكونى عاقلة ..

— كيف أستطيع أن أكون عاقلة ؟ .. لقد كان حبنا كل شىء لى ، وكنت أنت كل حياتى .. وليس مما يبعث على السرور أن أتبين أن الأمر لم يكن بالنسبة لك سوى فترة لهو عابرة ! .

— لم تكن فترة عابرة فى الواقع .. ولكنك تعلمين أنك

— إذ تطالبيننى بأن أحمل زوجتى التى أرتبط بها أشد ارتباط على أن تطلقنى ، وأن أهدم مستقبلى بالزواج منك — إنما تطلبين فوق ما فى طوقى !

— إن ما أنا مستعدة لعمله من أجلك لا يقل عن هذا ..

— ولكن ظروفنا تختلف .:

— الاختلاف الوحيد هو أنك لا تحبنى ..

– إن الرجل يستطيع أن يتدله فى حب امرأة دون أن يكون راغباً فى أن يقضى بقية حياته معها !

فرمقته بنظرة خاطفة ، ثم استبد بها اليأس ، فانهمرت الدموع غزيرة على خديها :. وهتفت : « أواه !.. ما أقساك ؟.. كيف يتسنى لك أن توصد قلبك إلى هذه الدرجة ؟ » .

وبدأت تنشج فى انفعال ، فرمق الباب فى قلق وقال : « حاولى أن تتجلدى يا عزيزتى .. » .

فقالت بين شهقاتها : « إنك لا تدرى إلى أى مدى أحبك .. ليس بوسعى أن أعيش بدونك .. أليست لديك ذرة من الشفقة على ؟ » :

ولم تعد تقوى على الكلام ، فراحت تبكى دون أن تتمالك نفسها ، بينما قال هو : « لست أحب أن أكون قاسياً ، وإن السماء لتشهد على أننى لا أبغى أن أجرح مشاعرك ، ولكنى مضطر إلى أن أصارحك بالحقيقة .. » .

– إن فيها دمار حياتى كلها .. لم لم تدعنى وشأنى ؟.. أى ضرر أوقعته بك ؟

– لك أن تلقى على كل اللوم بالطبع إذا كان فى هذا ما يسرى عنك ..

فتولى كيتى فجأة غضب متقد وصاحت : « كأننى كنت أتهالك عليك .. كأننى لم أدعك حتى انصعت واستجبت لتوسلاتى ! » .

– لست أقول هذا ، ولكننى ما كنت لأفكر بالتأكيد فى أن أطارحك الهوى لو لم تظهرى لى بجلاء أنك مستعدة لأن تتقبلى الهوى ..! » .

يا للخزى !.. كانت تدرك أن الحقيقة هى ما ذكر .. وبدا الضجر والضيق على وجهه ، وراحت يده تتحرك فى تململ ، وهو يلقى بين حين وآخر نظرة سأم .. ثم قال بعد برهة : « أليس لدى زوجك استعداد لأن يغفر لك ؟ » .

– لم أسأله ..

فضم قبضته فى حركة غريزية .. ورأته يكتم صيحة السخط التى قفزت إلى شفتيه .. ثم قال : « لم لا تذهبين إليه ، فتنشدين رحمته ؟.. إنه لقمين بأن يصفح عنك إذا كان مدلهاً فى حبك بالشكل الذى تصورين .. » .

– ما أقل ما تعرفه عنه !

– ٢٦ –

● مسحت الدموع عن عينيها ، وحاولت أن تتمالك نفسها وهى تقول : « لو أنك هجرتنى يا تشارلى فسوف أموت ! » .. لقد أصبحت مسوقة إلى أن تحاول استثارة شفقته ، وأحست أنه كان خليقاً بها أن تفعل ذلك من البداية ، فلعل كرمه .. وشعوره بالإنصاف .. ورجولته .. تستيقظ متحمسة إذا هو عرف المصير الرهيب الذى يلوح لها ، فلا يعود يفكر إلا فى الخطر المحيق بها ..

أواه !.. لشد ما كانت تهفو فى وجد مشبوب إلى أن تشعر بذراعيه الحبيبتين تحوطانها فى حماية !

وعادت تقول : « إن وولتر يريد الذهاب إلى« مى – تان – فو».

– آه .. ولكن الكوليرا متفشية فى تلك المنطقة التى رزئت بأسوأ وباء عرفته منذ خمسين عاماً .. إنه مكان لا يصلح لامرأة ، ولذا فليس من الممكن أن تذهبى إليه ..

– إذا تخليت عنى فسوف أذهب !

– ماذا تعنين ؟.. لست أفقه شيئاً ..

– إن وولتر يعتزم أن يحل محل طبيب البعثة التبشيرية الذى مات ويريد منى أن أرحل معه ..

– متى ؟

– الآن .. فوراً .

فدفع مقعده إلى الخلف وحملق فيها بعينين تبدت فيهما الحيرة وقال : « قد أكون غاية فى الغباء ، لكنى لا أستطيع أن أفهم لما تقولين رأساً من ذيل .. إذا كان يريدك على أن تذهبى معه إلى ذلك المكان ، فما مجال الطلاق هنا ؟ » .

– إنه يخيرنى : إما أن أذهب إلى« مى – تان – فو » ، أو يرفع قضية الطلاق !

فتغيرت لهجة تاونسند قليلا إذ هتف : « آه .. فهمت .. أعتقد أن هذا مسلك معتدل منه .. ألا ترين ذلك ؟ » .

– معتدل !؟

– الواقع أنها مغامرة نبيلة منه أن يذهب إلى هناك .. إنه شىء لا أستطيع أن أسفهه أو أستخف بقيمته .. ولسوف يحصل على وسام من أجله إذا ما عاد ..

فصاحت بصوت مفعم بالأسى : « وأنا يا تشارلى .. ما موقفى؟».

– أعتقد أنه إذا كان يريدك أن تذهبى ، فلست أرى – إزاء الظروف القائمة – منفذاً لك كى ترفضى !

– لكن معنى ذلك الموت .. الموت المؤكد المحتوم !

– أوه .. إلى الجحيم بهذا الهراء !.. إنها مبالغة منك .. إنه ما كان ليأخذك لو كان يعتقد ذلك .. ولن يتضمن الأمر خطراً يتهددك فوق ما يتهدده .. والواقع أن ليس هناك عظيم خطر إذا عنيت باتخاذ الحذر .. لقد كنت هنا حين تفشت الكوليرا مرة ، فلم تهتز شعرة فى جسدى .. كل ما فى الأمر أن لا تأكلى شيئاً ما لم يكن مطهواً .. واحذرى الفواكه والخضر الفجة وما إليها ، واحرصى على أن يكون الماء الذى تشربين مغلياً ..

وشرع يسترد ثقته واعتداده وهو يمضى فى الكلام ، فانساب حديثه سلساً .. بل لقد بدأ يتخلى عن اكتئابه ويسترد روحه اليقظة الفكهة ، وبدا على شىء من المرح وهو يقول : « إنه عمله ، على أية حال .. أليس كذلك ؟.. إنه يعنى بالحشرات ، وهذه فرصة سانحة له ، لو تدبرت الواقع » .

فعادت تكرر فى حزن، وإن فارقها الجزع : « وأنا يا تشارلى؟»

ـ إن خير وسيلة لفهم أى رجل ، أن تضعى نفسك فى موقفه.. وأنت قد كنت ـ من وجهة نظره ـ مخلوقة طائشة حمقاء ، وهـو يريد أن يبعدك عن موطن الضرر .. لقد كنت أعتقد دائماً أنه لا يود أن يطلقك ، فهو فيما يبدو لى ليس من ذلك الصنف من الرجال الذين يجنحون إلى هذا المسلك .. ولكنه فعل ما خال أنه منتهى الكرم ، فإذا بك تردين عرضه بالرفض .. ولست أبغى أن ألومك ، ولـكننى فى الواقع أرى ـ لصالحنا جميعاً ـ أنه كان خليقاً بك أن تولى الأمر بعض الاعتبار ..

ـ ولكن .. ألا ترى أن هذا يقتلنى ؟.. ألا تدرى أنه يأخـذنى إلى هناك لأنه يعلم أن فى ذلك هلاكى ؟

ـ أواه يا عزيزتى .. لا تقولى هذا .: إننا فى موقف غـاية فى الحرج ، والواقع أن الظرف غير مناسب للتصرفات المسرحية ..

ـ إنك تصر على أن لا تفهم الموقف ..

أواه !.. ما كان أقسى الألم الذى أثقل قلبها .. والخوف !.. وودت لو تصرخ لفرط وجيعتها .. ولكنها تمالكت نفسها لتمضى قائلة : « ما أراك ترسلنى إلى موت محقق !.. إذا لم يكن لديك شىء من الحب أو الشفقة ، فليكن لديك مجرد شعور إنسانى عادى .. » .

ـ تظلمينى إذ تصورين الأمر على هذه الصورة .. إن زوجك ـ بقدر ما أرى ـ يبدى غاية الكرم .. إنه راغب فى أن يغفر لك

إذا ما أفسحت له الفرصة .. إنه يريد أن ينأى بك ، وقد سنحت له هذه الفرصة كى يصحبك إلى مكان تكونين فيه بمنجى عن الضرر لبضعة شهور .. ولست أزعم أن « مى ـ تان ـ فو » مكان صحى يصلح للنزهة ، وما عرفت مدينة صينيـة يمكن أن توصف بهـذا ، ولكن لا داعى للمغالاة فى تصور عيوبها .. والحق أن هذا خير ما تفعلين ، رغم سوئه .. وإنى لأعتقد أن عدد من يموتون من الناس لمجرد الخوف من الوباء ، لا يقل عن عدد الذين يموتون بعدوى هذا الوباء !

ـ ولكنى مذعورة .. ولقـد كدت أفقـد رشدى حين فاتحنى وولتر فى الأمر ..

ـ إننى أقدر أن الأمر كان صدمة مفاجئة فى البداية .. ولكنك لن تلبثْى أن تطمئنى إذا ما فكرت فيه بهدوء .. ستكون تجربة لم يقدر لكل امرأة أن تجتازها ..

ـ ظننت .. ظننت ..

وراحت تهتز فى ألم بالغ .. ولم ينبس هو ببنت شفة ، بل عاد وجهه يكتسى مظهر الضجر الذى لم تألفه منه إلا أخيراً .. وكانت قد كفت عن البكاء ، وجفت عيناها ، وعاودها شىء من الهدوء .. فغدا صوتها متزناً ، رغم انخفاضه ، وهى تتسـاءل : « أو تريدنى إذن أن أذهب ؟ » .

ـ لا مجال للاختيار .. أليس كذلك ؟

ـ هل ترى ذلك ؟

— من الإنصاف أن أخبرك بأنه إذا رفع زوجك قضية طلاق وكسبها ، فلن أكون فى مركز يسمح لى بأن أتزوج منك !

وبدا له كأنما انقضى دهر قبل أن تجيب ، إذ نهضت فى بطء مستوية على قدميها وقالت : « ما أظن زوجى فكر حقاً فى أن يرفع الأمر للقضاء .. » .

فسألها : إذن فلماذا بربك أرعبتنى حتى كدت تخرجيننى عن وعيى ؟ » .

فنظرت إليه فى فتور وقالت : « كان يعلم أنك ستتخلى عنى ! » .

ووقفت صامتة .. وكما يحدث لك حين تدرس لغة أجنبية وتقرأ صفحة لا تفقه منها فى بداية الأمر شيئاً ، حتى تفتح لك كلمة أو عبارة ما طريق الفهم ، فإذا شعور بالإدراك غير الواضح يشرق على ذهنك المضنى فجأة .. بمثل هذا الإبهام استطاعت كيتى أن تدرك لمحة من سير تفكير وولتر ، فكأنما رأت منظراً بشعاً مظلماً ، تجلى فى لمحة من البرق ثم اختفى فى اللحظة التالية بين طيات الليل ، وإذا بها ترتجف لما رأت ! .. وقالت : « إنه لم يشترط ويهدد إلا لأنه عرف أنك ستتراجع أمام التذير يا تشارلى .. ومن العجيب أنه استطاع أن يعرفك بمثل هذه الدقة .. وقد شاء — كما توحى طبيعته — أن يدعنى أكتشف بنفسى خيبة هذا الوهم المضلل القاسى ! » .

ونكس تشارلى بصره إلى صفحة « النشاف » التى أمامه ، وقد عبس قليلا ، وأرخى أعصاب فمه .. ولكنه لم يحر جواباً .. بينما

استأنفت كيتى حديثاً قائلة : « كان يعرف أنك مغرور بالباطل ، وأنك لا تفكر لجبنك إلا فى نفسك .. وقد أراد لى أن أرى ذلك بعينى !.. كان يعلم أنك ستجرى كالأرنب إذ يقترب الخطر .. ويعرف مدى خديعتى إذ فكرت فى أنك كنت تحبنى — لأنه كان يدرك أنك عاجز عن حب أحد غير نفسك !.. كان يعلم أنك تقدم على التضحية بى دون ما ندم كى تنقذ جلدك .. » .

— إذا كان يرضيك حقاً أن تقولى لى مثل هذه الأشياء ، فلست أرى لنفسى حقاً فى الشكوى والتذمر .. إن النساء دائماً ظالمات ، وهن على العموم قادرات على أن يضعن أى رجل الوضع الخاطئ الذى يبغين !.. ولكن ثمة ما ينبغى أن يقال من الجانب الآخر ..

ولم تكترث لمقاطعته ، بل استطردت قائلة : « ولقد أصبحت الآن أعرف ما كان يعرفه وولتر .. أعرف أنك عديم الإحساس والقلب .. أعرف أنك أنانى .. أنانى أكثر مما يمكن للكلمات أن تصور !.. وأعرف أنك لم تؤت من الشجاعة حتى ما أوتيه الأرنب .. أعرف أنك كاذب ، مخاتل ، أعرف أنك خسيس ، زرى إلى أقصى مدى .. والمؤلم فى الأمر » — واربد وجهها فجأة لفرط الألم وهى تمضى قائلة — : « المؤلم فى الأمر أننى أحبك رغم ذلك من كل قلبى »

— كيتى ..

فأرسلت ضحكة مريرة ، إذ لفظ اسمها بلهجته الدافئة ، التى تذيب القلب .. اللهجة التى كانت تواتيه فى سهولة طبيعية ، وإن

لم يكن يعنيها !.. ثم استطردت : « لقد بدأت تكرهنى .. ألست كذلك ؟.. حسناً ، اكرهنى ، فلن يضيرنى هذا الآن فى شىء ! » .

وشرعت تلبس قفازها ، فسألها : « ماذا تعتزمين أن تفعلى ؟ » .

ـ آه ، لا تخف ، فلن تتعرض أنت لأذى .. ستكون فى أمان !

فأجاب وصوته العميق يفيض قلقاً : « لا تتكلمى بربك بهذه اللهجة يا كيتى !.. يجب أن تعرفى أن ما يهمك يهمنى .. وسأكون بالغ اللهفة على معرفة ما يجرى .. ماذا تعتزمين أن تقولى لزوجك ؟ » .

ـ سأنبئه بأننى مستعدة لأن أذهب معه إلى « مى ـ تان ـ فو » .

ـ لعله لا يصر إذا وافقت ..

ولم يستطع أن يدرى لم تطلعت إليه بتلك النظرة الغريبة إذ قال ذلك ، فسألها : « ما أظنك خائفة حقاً ؟ » .

قالت : « لا .. لقد ألهمتنى الشجاعة .. إن الذهاب فى غمرة وباء الكوليرا تجربة فذة .. فإن مت .. فلأمت ! » .

ـ لقد حاولت أن أترفق بك ما وسعنى ..

فتطلعت إليه مرة أخرى .. وعادت الدموع تتبادر إلى عينيها وقد ملأ الأسى قلبها .. وهفت بها رغبة طاغية فى أن تلقى بنفسها على صدره ، وتسحق شفتيها على شفتيه .. ولكن ، لم يكن لذلك أى نفع !.. فقالت وهى تحاول أن يبدو صوتها هادئاً : « إن شئت أن تعرف ، فإننى أذهب والموت والخوف يفعمان قلبى .. لست أدرى

ماذا يخفى وولتر فى ذهنه المعتم ، الملتوى ، ولكننى أرتجف ذعراً .. وأعتقد أن الموت قد يكون راحة حقيقية تخلصنى .. » .

وشعرت بأنها لن تستطيع أن تحتفظ بجلدها لحظة أخرى فسارت مسرعة إلى الباب ، وخرجت قبل أن يجد وقتاً للتحرك فى مقعده .. فأرسل تاونسند زفرة ارتياح طويلة ، وأحس أنه أشد ما يكون حاجة إلى كأس من الخمر !

ـ ٢٧ ـ

● وكان وولتر فى البيت حين بلغته .. وودت لو تيمم صوب مخدعها مباشرة ، ولكنه كان فى بهو الطابق الأسفل يدلى بتعليماته إلى الخدم .. وكانت تعسة إلى درجة جعلتها على استعداد لأن ترحب بالهوان الذى لابد من أن تعرض نفسها له لو التقت به .. فوقفت أمامه وقالت : « سأذهب معك إلى ذلك المكان » .

ـ آه .: هذا حسن ..

ـ متى تريد أن أكون متأهبة ؟

ـ مساء الغد ..

ولم تدر أية شجاعة ظاهرية سرت إليها فجعلتها تحتمل عدم اكتراثه الذى وخزها كسنان الحربة .. وإذا بها تقول ما أذهلها : « أظننى فى غير حاجة إلى أن آخذ معى أكثر من بضعة أشياء صيفية.. وكفن !.. أليس كذلك ؟ » .

وكانت تراقب وجهه وهى تتكلم ، وتعلم أن ملاحظتها الأخيرة

قد أغضبته .. ولكنه اكتفى بأن قال : « لقد أنبأت وصيفتك بما سوف تحتاجين إليه .. » .

ونكست رأسها .. ثم صعدت إلى مخدعها ، وهى بالغة الشحوب !

- ٢٨ -

● أشرفا أخيراً على غاية رحلتهما ، بعد أن ظلا محمولين على محفتيهما يوماً بعد يوم ، خلال دروب ضيقة بين حقول الأرز التى لا تكاد تنتهى: وكانا وحمالوهما يبدأون من الصباح ، فيمضون حتى تضطرهم حرارة النهار إلى أن يلوذوا بخان على حافة الطريق ، ثم لا يلبثون أن يعاودوا الرحيل منه .. حتى يبلغوا البلدة التى اعتزموا أن يبيتوا فيها ليلتهم .. وكانت محفة كيتى تتقدم الموكب ، ووولتر فى أثرها ، ثم يتعاقب الخدم الذين يحملون لوازم نومهما، ومؤونتهما ، ومعداتهما ، يشقون طريقهم جاهدين ..

وكانت كيتى تجتاز الريف دون أن ترى عيناها مناظره .. وأخذت الساعات الطوال تمر فى صمت لا تقطعه سوى ملاحظة عابرة من أحد الحمالين ،أو ترديد أغنية جافة غير متناسقة اللحن .. وراحت الزوجة تستعرض ذهنها المعذب دقائق المنظر المفجع الذى جرى فى مكتب تشارلى .. وأحست بخيبة مرة وهى تتذكر ما قاله لها وما قالته له ، إذ تبينت كيف انقلب حديثهما جافاً جدياً ، وكأنهما كانا يتناقشان فى عمل تجارى ، فلم تقل له ما كانت تود أن تقول ، ولم تتكلم باللهجة التى كانت تعتزم أن تتكلم بها .. ولعلها لو استطاعت

أن تبين له حبها الذى لا حد له ، والجوى المستعر فى فؤادها ، وعجزها وأساها ، لما جرد نفسه من الشعور الإنسانى؛ ولما تركها لمصيرها !.. ولكنها أخذت على غرة .. لم تكد تصدق أذنيها حين أنبأها - بمسلكه أكثر منه بكلماته - بأنه لم يك يأبه لها .. وكان هذا هو السر فى أنها لم تسرف فى البكاء ، فقد ذهلت .. ولكنها بكت بعد ذلك .. بكت فى شقوة وتعاسة !

كانت تستلقى طيلة الليل مستيقظة فى الفنادق الريفية التى كانا ينزلان بها ، وهى تشاطر زوجها خير الغرف ، وتحس به نائماً فى سريره ، فكانت تعض الوسادة كى لا تفلت أثناء انتحابها شهقة تنبهه إلى بكائها .. أما فى النهار ، فكانت سجف محفتها تحميها من نظراته ، مما كان يجعلها تفضفض من أساها .. وكان ألمها عارماً ، تود معه لو أطلقت صوتها بالصراخ .. إنها ما عرفت قط أن الإنسان يألم بهذا الشكل !.. وكانت تسائل نفسها فى قنوط عما فعلت حتى تستحق هذا العذاب .. فلقد أعياها أن تجد مبرراً يعلل عدم حب تشارلى لها، فوقر فى نفسها أن الذنب ربما كان ذنبها .. ولكنها بذلت كل ما فى وسعها لتجعله مشغوفاً بها ، وكانا دائماً ينسجمان فيضحكان طيلة الوقت الذى يلتقيان فيه .. أجل ، لم يكونا عاشقين فحسب ، بل كانا صديقين أيضاً .. ومع ذلك فإنها لم تفقه سر تصرفه الذى حطم قلبها !.. راحت تقول لنفسها : إنها تكرهه وتزدريه ، ومع ذلك فلم تكن تدرى كيف تعيش دون أن تراه ثانية .. أجل ، إذا كان

وولتر يصطحبها إلى « مى – تان – فو » عقاباً لها ، فهو أحمق ، لأنها لم تعد تحفل بما يصيبها !.. لم يعد لها أمل تحيا من أجله .. ولم يكن أقسى على نفسها من أن تنبذ الحياة وهى بعد فى السابعة والعشرين !

– ٢٩ –

● وعلى ظهر الباخرة التى اجتازت بهما النهر الغربى لم يكف وولتر عن القراءة ، بيد أنه كان يحاول فى أوقات تناول الطعام أن يخلق جواً للحديث بينهما .. كان يكلمها – كما لو كانت امرأة غريبة صادفها فى الرحلة – عن أشياء تافهة ، خيل لكيتى أنه لا يتحدث عنها إلا من قبيل الأدب ، أو من قبيل إشعارها بالهوة التى فصلت بينهما !.. وكانت قد أنبأت تشارلى ، بوحى ومضة من بعد النظر ، أن وولتر قد أرسلها إليه بنذير الطلاق – كاحتمال يجنبها مرافقته إلى المدينة الموبوءة – لتستبين بنفسها مدى ما كان عليه من غدر ، وجبن ، وأنانية !.. وكانت محقة إذ حدست ذلك ، فإن مثل هذا التفكير يتسق تماماً مع ما أوتى وولتر من طباع ساخرة .. لقد كان يعرف تماماً ما سوف يحدث ، ومن ثم أدلى لوصيفتها بالتعليمات اللازمة للسفر قبل عودتها !.. ولقد قرأت فى عينيه احتقاراً شملها وشمل عشيقها على السواء .. ولعله قال لنفسه إنه لو كان فى وضع تاونسند لما عاقه شىء فى الدنيا عن الإقدام على أية تضحية لإرضاء أتفه نزواتها !.. وكانت هى تدرك أنه لو كان مكان الآخر لأقدم فعلا على جميع التضحيات فى سبيلها .. بيد أنها وقد تفتحت عيناها ،

بدأت تسائل نفسها كيف يضطرها إلى إجراء على هذه الدرجة من الخطورة ، يدرك ولا بد أنه يبعث أقسى الفزع فى نفسها ؟

لقد ظنته فى بادئ الأمر يعبث بها ، وظلت حتى شرعا فى رحلتهما – بل حتى غادرا النهر وانطلقا فى محفتيهما عبر الريف – تعتقد أنه لن يلبث أن يطلق ضحكته القصيرة المعهودة ، ويخبرها أن لا حاجة إلى أن تذهب معه !.. فهى لا تستريب قط فيما يدور فى رأسه ، وليس من الممكن أن يكون حقاً راغباً فى موتها ، فقد كان مدنفاً فى هواها ، وهى قد عرفت الآن معنى الحب ، فأخذت تتذكر ألف بادرة وبادرة كانت تنم عن هيامه بها ، وعن أنها مبعث سروره وأساه .. كلا ، من المستحيل أنه لم يعد يحبها .. فهل يكف الإنسان عن حب شخص ما لأنه قسا فى معاملته ؟.. إنها لم تعذبه كما عذبها تشارلى ، ومع ذلك فلو أن تشارلى أشار لها مجرد إشارة – رغم كل شىء ، ورغم أنها أصبحت تعرفه على حقيقته – لنبذت كل ما تقدمه لها الدنيا وطارت إلى ذراعيه !.. فإنها لتحبه حتى بعد أن ضحى بها ولم يكترث لها .. حتى بعد أن أبدى لها الجحود والقسوة الجافية !

وخيل إليها فى البداية أن ليس عليها سوى أن تصمد للزمن فلا يلبث وولتر أن يصفح عنها ، إن عاجلا أو آجلا .. فقد كانت مفرطة الثقة فى سلطانها عليه ، بحيث كان من العسير عليها أن تصدق أن هذا السلطان قد تبدد ، فإن المياه الدافقة لا يمكن أن تطفىء الحب ..

وإذا كان قد أحبها ، وشعر أن لا منـاص من حبهـا ، فهو ولابد ضعيف إزاءها .. بيد أنها لم تعد الآن واثقة من ذلك .. فكلما أتيح لهـا أن تتأمله فى غير عناء وهو جالس فى المساء يقرأ على المقعـد الخشبى غير المريح فى الفندق، وضوء مصباح الغاز المتوهج (الكلوب) يسقط على وجهه .. وهى مستلقية بعيداً عن الضوء ، على الحصير الذى أعد ليقام عليه فراشها .. كانت قسماته الحادة ، المستقيمة ، المنظمة، تبدى وجهه صارماً، حتى ليعز عليك أن تصدق أنه يستطيع أن يعطيك – إذا حانت مناسبة – تلك الابتسامة العذبة التى كانت تصدر عنه !.. وكان فى وسعه أن يمضى فى القراءة هادئاً ، ساكناً ، وكأنها على بعد ألف ميل منه .. كانت تراه يقلب الصفحات، وتبصر عينيه تتحركان بانتظـام وهما تتابعان السطور ، فتشـعر أنه لا يفكر فيها ! وعندما كانت المـائدة تبسط ، ويحمل إليها طعام العشـاء ، كان يضع كتابه جانباً ، ويرمقها بنظرة – وهو لا يعلم أن الضـوء المتساقط على وجهه يكسب ملامحه مظهراً خاصاً – فكانت تجفـل إذ ترى فى نظرته اشمئزازاً ملموساً .. أجل ، كانت تجفل .. أمن الممكن أن يكون حبه قد تبخر تمـاماً ؟.. أمن المحتمل أن يكون قد رسم حقاً خطة لموتها ؟.. هراء ، وإلا لكان ذلك تصرف رجـل مجنون !.. وكانت تشعر بقشعريرة غريبة تسرى فى كيانها إذ يخطر لهـا أن وولتر قد لا يكون كامل العقل !

– ٣٠ –

● وفجأة ، بدأ حاملو محفتها يتكلمون بعد طول صمت .. والتفت أحـدهم يقول لها كلمات لم تستطع أن تفهمها ، وهو يشير ليجتذب انتباهها .. وأرسلت بصرها إلى حيث أشار ، فإذا بها ترى – على قمة أحد التلال – نصباً على شكل قنطرة ، أو بوابة محدودبة .. وكانت قد عرفت لكثرة ما مرت به مذ غادرا النهر من أمثال هذا النصب ، أنه مبنى تذكارى لتخليد ذكرى عالم مجدود ، أو أرملة وفية ناصعـة السيرة .. بيد أن هذا النصب ، الذى بدا معتماً إذ جاوزته شمس المغيب ، كان أبهى وأجمل من كل ما شاهدت من قبل .. ومع ذلك ، فلم تدر لم أثار فى نفسها نوعاً من عدم الطمأنينة ، إذ أوحى إليها بمعنى أحست به وإن لم تعرف كيف تعبر عنه بالكلمات .. معنى لم تدر أكان نذيراً بالفضيحة أو كان مفعماً بالسخرية ! .. وكانوا يمرون لحظتئذ بحرش من نبـات الغاب (البوص) تميل عيدانه على الدرب بشكل غريب وكأنها توشك أن تمنعها من المضى إلى الأمام .. وكانت أوراق الشجيرات ترتجف قليلا رغم أن الهواء كان راكداً فى ذلك الوقت .. مما أوحى إليها بأن شخصاً ما قد اختبأ بين العيدان ليرقبها وهى تمر .. !

وانتهوا إلى أسفل التل ، فاختفت حقول الأرز ، واندفع الحمالون يتقدمون بخطى واسعة والمحفة تتمايل على أكتافهم .. وكان التل مغطى ببقع خضراء شديدة التقارب ، ومرتفعة قليلا عن مستوى الأرض ، فبدت كرمال الشاطىء حين ينحسر عنها ماء المد .. وأدركت ما وراء

هذا أيضاً من دلالة ، فقد مرت بأشباه له حين كانوا يقتربون من كل مدينة مأهولة أو يغادرونها .. كانت البقع الخضراء هى مقبرة المدينة .. وأدركت إذ ذاك لم نبهها حاملو المحفة إلى النصب المحدودب القائم على قمة التل .. كانوا قد بلغوا نهاية الرحلة ..

ومروا تحت النصب ، فوقف الحمالون ريثما تبادلوا أماكنهم ليريحوا أكتافهم .. ومسح أحدهم العرق المتصبب من جبينه بخرقة قذرة .. وانحرف الدرب بهم ، فإذا ببيوت منخفضة على الجانبين .. وكان الليل يرخى سدوله ، وفجأة ، اندفع الحمالون فى حديث منفعل ، وقفزوا قفزة هزتها ، ثم انحرفوا مقتربين من الجدار بقدر ما استطاعوا .. وإن هى إلا لحظة حتى أدركت ما أفزعهم ، فبينما وقفوا وهم يتكلمون ، مر أربعة من الفلاحين فى صمت وسرعة ، حاملين تابوتاً جديداً لم يطل خشبه بأى لون ، ومن ثم تجلى بياضه خلال العتمة وهم يقتربون .. وأحست كيتى بقلبها يخفق فى ذعر مرتطماً بجنبات صدرها .. ومر التابوت ، ولكن الحمالين ظلوا جامدين فى موقفهم ، ، وكأنما عاجزين عن أن يستمدوا القدرة على المضى .. حتى انبعث من الخلف نداء ، اندفعوا على أثره دون أن ينبسوا ببنت شفة !

وساروا بضع لحظات أخرى ، ثم عرجوا فجأة إلى مدخل إحدى الدور ، ثم أنزلوا المحفة إلى الأرض ، فقد وصل الموكب !

-٣١-

● كانت الدار « فيلا » من طابق واحد :: ودخلت كيتى غرفة

الجلوس وجلست ، بينما أخذ الخدم يتوافدون واحداً بعد آخر يرزحون تحت أحمال المتاع ، ووقف وولتر فى الفناء يصدر تعليماته ، موجهاً الحمالين إلى الأماكن التى يضعون فيها الأحمال .. وكانت كيتى متعبة جد التعب ، وأجفلت إذ سمعت صوتاً لاعهد لها به يقول : « أتسمحين لى بالدخول ؟ » .

وتضرج وجهها ثم شحب .. كانت مشعثة ، مغبرة ، فضايقها أن تقابل غريباً بهذه الهيئة .. وولج من الظلام رجل .. ولم يكن فى الغرفة سوى مصباح عليه غطاء يحتجز ضوءه .. وعلى نور هذا المصباح رأت الرجل يبسط لها يده قائلا : « اسمى وادينجتن .. إننى نائب مدير مدير الجمرك » .

– آه .. الجمارك .: لقد سمعت أنك هنا .

وعلى الضوء المكتوم لم تستبن سوى أنه كان رجلا نحيلا ، ضئيل الجسم – لايجاوزها طولا – ذا صلعة ووجه صغير ؛ حليق .. وأردف مستطرداً :

– إننى أسكن عند نهاية سطح التل ، ولكنك لم تستطيعى أن تتبينى بيتى من الطريق الذى جئتم خلاله .. ولقد حدست أنكما ستكونان من التعب بحيث لاتستطيعان أن تحضرا لتناول العشاء معى ، ولذا أمرت بأن يحمل الطعام إليكما هنا ، ودعوت نفسى ..

– يسرنى أن أسمع هذا ..

— ستجدين أن لابأس بالطهى:: وقد استبقيت لكما طاهى الدكتور
واطسن :.
— هل واطسن هو الطبيب المبشر الذى كان هنا ؟
— أجل :. كان شخصاً فى منتهى اللطف .. سأريك قبره غداً إن
شئت .. فقالت كيتى مبتسمة : « ما أكرم تطوعك ! » .
وأقبل وولتر فى تلك اللحظة ، وكان « وادينجتن » قد عرفه بنفسه
قبل أن يفد ليقابل كيتى .. فبادره قائلا : « كنت أنبىء زوجتك بأننى
سأتناول طعام العشاء معكما ، فمنذ موت واطسن لم أجد من أبادله
الحديث اللهم إلا الراهبات ، وليس بوسعى قط أن أزكى طلاقتى فى
الفرنسية .. فضلا عن أن الموضوعات التى يستطيع المرء أن يتحدث
إليهن فيها محدودة ! » .
فقال وولتر : « لقد سألت الخادم أن يحضر بعض الشراب » :
وأحضر الخادم « ويسكى » و « صودا » ، فلاحظت كيتى أن
وادينجتن قد أترع كأسه .. وكانت طريقته فى الكلام وضحكته الطلقة
قد أوحتا إليها حين قدم بأنه لم يكن فى تمام يقظة الوعى .. وقال وهو
يرفع كأسه : « لنشرب نخب الحظ ! » .. ثم التفت إلى وولتر قائلا :
« ستجد عملك معداً موفوراً ، فإنهم يهوون فى أحضان الموت كالذباب ،
حتى لقد فقد المسجل وعيه لفرط ضغط العمل ، ؛ كما أن الكولونيل
« يو » — قائد الجنود — يلقى أشد العناء فى كبح جماحهم عن أن يعيثوا
نهباً وسلباً .. ولن نلبث أن نقتل فى مضاجعنا سراعاً مالم تحدث معجزة .:

لقد حاولت أن أحمل الراهبات على الرحيل ، ولكنهن أبين بالطبع :.
كلهن يردن أن يكن شهيدات .. عليهن اللعنة ! » .
كان يتكلم فى غير حذر ، وفى صوته نبرة يخالطها شىء من
الضحك ، حتى أنك لا تتمالك نفسك من الابتسام وأنت تسمعه ..
فسأله وولتر : « ولم لم ترحل أنت ! » .
— لقد فقدت نصف أعوانى ، والنصف الآخر متأهبون لأن
يسقطوا ويموتوا فى أية لحظة .. ومن ثم فلابد من أن يبقى شخص ما
لأداء العمل .
— وهل حقنْت بالمصل الواقى ؟
— أجل ، حقننى واطسن .. ومع ذلك ؛ فقد حقن المسكين
نفسه ، فلم يجده ذلك ..
وتحول إلى كيتى ووجهه المضحك يتغضن ابتهاجاً ، وقال :
« أعتقد أن ليس ثمة كبير خطر إذا اتخذت الاحتياطات الكاملة ..
احرصى على أن يغلى لبنك وماء شربك ، ولا تأكلى الفواكة الفجة ،
ولا الخضر غير المطهوة .. هل أحضرتما معكما أية أسطوانات موسيقية
جديدة ؟ » .
فقالت كيتى : « لا .. ما أظن ! » .
— لشد ما يؤسفنى هذا .. كنت آمل أن تفعلا ، فإننى لم أحظ
باسطوانات جديدة منذ زمن بعيد ، وقد مللت القديمة التى عندى .
وأقبل الخادم يستأذن فى إعداد الطعام ، فتساءل وادينجتن :

« ما أظنكما تبغيان أن ترتديا ثياب العشاء الليلة ؟ .. لقد مات خادمى الخاص فى الأسبوع الماضى ، وخلفه خادم أبله ، ومن ثم فأنا لم أعد أرتدى ثياب السهرة فى المساء .. » :

وقالت كيتى : « سأذهب فأخلع قبعتى » .. وكانت حجرتها ملاصقة لتلك التى كانوا يجلسون فيها .. وكانت بسيطة الرياش ، ووجدت فيها وصيفة تجثو على الأرض ، تفتح حقائبها وتخرج مافيها ، على ضوء مصباح إلى جوارها ..

– ٣٢ –

● كانت غرفة المائدة صغيرة ، تملأ الشطر الأكبر منها مائدة ضخمة .. وعلى الجدران ، كانت ثمة رسوم من التوراة محفورة ، وآيات مكتوبة بطلاء فسفورى يبديها مضيئة ..

وقال وادينجتن : « إن رجال البعثات الدينية يملكون عادة موائد ضخمة ، إذ أنهم يرزقون فى كل عام بطفل جديد ، كما يراعون إذ يشترون موائدهم – عند الزواج – أن يعدوا أماكن كافية للضيوف الأغراب » .

وكان يتدلى من السقف مصباح كبير يضاء بالبترول ، استطاعت كيتى على ضوئه أن تزداد إلماماً بشخصية وادينجتن .. كانت صلعته قد غررت بها وأوحت إليها أنه فارق سنى الشباب ، ولكنها تبينت الآن أنه كان لايزال بينه وبين سن الأربعين شوط بعيد .. وكان وجهه صغيراً ، تعلوه جبهة بارزة ، مستديرة ، وقد بدا متورداً ، خالياً من

التجعدات ، وكان بشعاً ، كوجه القرد ، ولكن قبحه لم يكن خلواً من السحر . كان وجهاً ترتاح العين إلى مشاهدته ، وكانت قسماته وأنفه وفمه ، لا تكاد تكبر عن قسمات الطفل .. كما كانت له عينان زرقاوان ضيقتان شديدتا التألق .. أما حاجباه فكانا خفيفين ، قصيرين ، أشقرى الشعر .. كان يبدو كصبى مضحك .. وكان لا ينفك يملأ كأسه بالشراب ، حتى بدا جلياً – ولما ينته العشاء – أنه بعيد عن الرشد والاتزان .. بيد أنه وإن ثمل لم يتخل عن أدبه ، بل بدا مرحاً ، كجدى سرق قربة النبيذ من راع نائم !

وراح يتكلم عن هونج كونج ، حيث أوتى أصدقاء كثيرين أراد أن يعرف أنباءهم . وكان قد ذهب إليها منذ عام لمشاهدة السباق ، فتحدث عن الجياد وأصحابها ، ثم تساءل فجأة : « بهذه المناسبة .. ماذا عن تاونسند ؟ هل سيصبح حاكماً ؟ » .

وأحست كيتى بوجهها يتضرج ، ولكن زوجها لم ينظر إليها .. وأجاب : « لن أعجب لذلك » .

– إنه من النوع الذى لا يكف عن السعى وراء المنصب ..

فسأله وولتر : « هل تعرفه ؟ » .

– أعرفه معرفة وثيقة ، فقد غادرنا الوطن معاً ذات مرة .

وسمعوا دقات الطبول تنبعث من الضفة الأخرى للنهر ، وفرقعة الصواريخ النارية .. كانت المدينة ترقد فى فزع على غير مبعدة منهم ، وقد اندفع الموت فجأة ، وفى غير ما إشفاق ، يعيث فى شوارعها

الملتوية . ومع ذلك فقد شرع وادينجتن يتحدث عن لندن :. كان يعرف كل ما يعرض فى ملاهيها فى تلك اللحظة ، وقد راح يحدثهما عن المسرحيات التى رآها حين كان فى الوطن أثناء عطلته .. وكان يضحك إذ يذكر مزاح هذا الكوميدى الرخيص ، ويتنهد إذ يستعيد صورة جمال تلك النجمة من نجوم إحدى الصالات الموسيقية .. وطاب له أن يزهو بأن ابن عم له تزوج من إحدى النجوم الشهيرات ، وأنه تناول الغداء معها ، وأنها أهدته صورتها التى وعدَ أن يطلعهما عليها إذا ما ذهبا ليتناولا معه طعام العشاء فى دار الجمارك .

وكان وولتر يرمق ضيفه بنظرة باردة ، ساخرة .. ولكنه لم يضن بالتبسط معه ، بل راح يبذل جهداً كى يبدى ما يتطلبه الأدب من اهتمام ببعض المسائل التى كانت كيتى تدرك تماماً أنه لا يعرف عنها شيئاً .. وكانت تتأرجح على شفتيه ابتسامة واهنة .. بيد أن كيتى فياضة الأسى دون أن تدرى لذلك سبباً ، فقد لاحوا ثلاثتهم فى هذا البيت الذى خلفه المبشر عند موته ، والقائم على مشارف مدينة يحوم المـوت فوقها .. لاحوا بمعزل عن العالم ! .. ثلاثة أشخاص ، كل منهم غريب عن الآخر ، تكتنفه وحدة تفصله عن زميليه ..

وإذ انتهى العشاء ، نهضت قائلة : « هل تسمحان لى بأن أتمنى لكما ليلة طيبة ، وأن آوى إلى فراشى ؟ » .. فأجاب وادينجتن : « سأنصرف ، إذ أتوقع أن يكون الدكتور راغباً هو الآخر فى أن يأوى إلى فراشه .. فلا بد لنا من أن نخرج للعمل مبكرين فى الغد » .

وصافح كيتى :. وكان متزناً ، ثابتاً فى وقفته ، ولكن عينيه كانتا أكثر بريقاً من المعتاد .. ثم قال لوولتر : « سآتى لأصحبك كى تقابل المسجل والكولونيل « يو » ثم نذهب إلى المدير .. إن عملك معد فى انتظارك » .

- ٣٣ -

● كانت الليلة بالنسبة لكيتى مليئة بالأحلام الغريبة ، إذ خيل إليها أنها محمولة فى محفتها ، وأحست بالحركة المتأرجحة الناشئة عن اندفاع الحمالين بخطاهم الواسعة .. ودخلت فى أحلامها مدن شاسعة معتمـة ، كانت الحشود تلتفت حولها فيها محملقة بعيون مليئة بالفضول .. وكانت الطرق ضيقة ، ملتوية ، والمتاجر مفتوحة بسلعها الغريبة .. وكانت حركة المرور تتوقف لتمر ، كما كان البائعون والمشترون يكفون عن البيع والشراء .. ثم انتهت إلى النصب المحدودب ونقوشه الرائعة التى بدت وكأنما دبت فيها حياة بشعة رهيبة .. ولاحت أطرافه كأذرع إله هندوسى تتحرك فى الهواء ، حتى إذا مرت تحته ، سمعت ضحكة ساخرة .. ولكن تشارلى تاونسند أقبل إذ ذاك فتناولها بين ذراعيه ، ورفعها عن مقعد المحفة ، وقال إن كل ما جرى كان محض خطأ ، وأنه ما كان يقصد أن يعاملها بما تبدى لها ، لأنه يحبها ولا يقوى على الحياة بدونها .. وأحست بقبلاته على شفتيها ، فبكت فرحاً .. وساءلته كيف قسا عليها إلى هذا الحد ، ولكنها كانت رغم تساؤلها تعلم أنها لم تعد حزينة لما جرى .. ثم انبعثت حولها صيحة عالية ،

خشنة ، فانفصلا ، ليمر بينهما حمالون صامتون ، يهرعون ، حاملين .. تابوتاً !

واستيقظت من كابوسها مرتاعة ..!

كانت الدار تقع فى منتصف سفح تل منحدر .. ورأت خلال نافذتها النهر الضيق ينساب تحتها فى اتجاه مضاد لموقع المدينة .. وكان الفجر قد انبثق لتوه ، وأخذ يتصاعد من النهر ضباب أبيض يكتنف السفن الصينية التى رست متلاصقة كحبات البازلاء فى عودها .. كانت ثمة مئات منها ، صامتة ، يحفها الغموض فى ذلك الضوء الرهيب الذى بدا وكأن الموت يشيع فيه .. كنت تحس كأن ملاحى تلك السفن واقعون تحت تأثير سحر سلبهم الحرارة ، إذ لم يكن ما أقعدهم عن الحركة وأسلمهم إلى الصمت ، نوم .. وإنما شىء آخر غريب ، رهيب !

وتهادى الصباح ، ومست الشمس غلالة الضباب ، فبدأ ضوؤها كطيف جليد يكسو كوكباً ميتاً . ومع أن الضوء كان يسطع على النهر حتى لتستطيع أن تتبين إلى حد ما هياكل السفن الموسقة ، وصواريها الجمة التى لاحت كغابة كثيفة ، إلا أن ستاراً من الضوء الوهاج قام بين النافذة والنهر ، لا يقوى البصر على اختراقه .. وفجأة ، مرق من هذه السحابة البيضاء برج عال ، كئيب ، جامد .. وكأنه لم يكن قد تكشف على ضوء الشمس ، وإنما قام من أعماق الفضاء بلمسة ساحر ، ليشرف على حصن لاذ به جنس همجى قاس ، على للضفة الأخرى للنهر :. على أن الساحر الذى كان يبنى المنظر ، راح يعمل بسرعة ، فإذا

فوق البرج جزء من سياج متعدد الألوان .. وإن هى إلا لحظة حتى تبدت للنظر مجموعة من الأسقف الخضراء والصفراء ، برزت من جوف الضباب وراحت تمتد وتتجلى بسرعة ، يمسها شعاع أصفر من الشمس هنا وهناك .. وكانت تظهر ضخمة ، لا تستطيع أن تستبين لها طرازاً ، ولا تكاد تفطن إلى نظام يجمعها ، إن كان ثمة نظام .. كانت غريبة ، متماسكة .. ولكنها كانت وافرة إلى درجة لا يكاد يتصورها الخيال ..

لا ، لم تكن هذه قلعة ، ولا معبداً ، وإنما قصراً سحرياً لإمبراطور للآلهة ، لا يسمح لبشر أن ينفذ من بابه !.. وكان القصر واسعاً رحيباً ، هائلا ، لا يشبه فى شىء إنتاج يد البشر .. بل كان من نسج الأحلام !

وانهمرت الدموع تغمر وجه كيتى وهى تحدق فى ذلك المنظر ، وقد التصقت يداها متماسكتين على صدرها ، وفغرت فاها وهى لا تكاد تملك أن تتنفس .. قط لم تشعر بقلبها خفيفاً إلى هذه الدرجة ، وقد اطرح عنه كل ما كان يثقله .. وخيل إليها أن جسدها استحال إلى غلاف كأصداف القواقع استلقى عند قدميها ، بينما أصبحت هى مجرد روح .. هنا كان الجمال ، فأقبلت عليه نهمة متعطشة ..

- ٣٤ -

● وصار وولتر يغادر الدار فى الصباح الباكر ، فلا يعود إلا فى موعد الغداء ليقضى نصف ساعة فقط ، ثم يخرج ثانية حتى موعد العشاء .. فألفت كيتى نفسها وحيدة معظم الوقت ، وقد ظلت فى

البداية بضعة أيام لا تغادر الدار .. كان الجو قائظاً ، وكانت تقضى أكثر وقتها مستلقية فى مقعد طويل إلى جوار النافذة المفتوحة ، تحاول أن تنشغل بالقراءة .. وقد جرد الضوء القوى فى الظهيرة ذلك القصر السحرى من الغموض الذى كان يكتنفه ، فلم يعد يتبدى لعينيها أكثر من معبد عند سور المدينة ، مغبر ، قديم .. بيد أنه لم يلح لها قط مبنى عادياً ، مذ لاح لها مرة فى ذلك المنظر الخيالى الحالم .. وكثيراً ما كانت تجد نفسها — عند الفجر أو الغسق ، أو فى المساء — قادرة على أن تستعيد بعض ذلك الجمال الذى تكشف لها أول مرة .. والواقع أن ما لاح لها كالبرج لم يكن سوى سور المدينة ، السميك الأسمـــر ، الذى كانت عيناها تستقران عليه باستمرار ، والذى كانت المدينة تستلقى خلفه مهيضة فى قبضة رهيبة .. قبضة الوباء الفاتك !

وكانت كيتى تعرف ، فى إبهام ، أن ثمة أموراً مخيفة تحدث وراء ذلك السور المترامى .. ولم تكن المعلومات تتناهى إليها من وولتر ، الذى كان كلما سألته — إذ قلما كان يتكلم ما لم تسأله ! — يجيب فى استخفاف وفكاهة يبعثان فى مظهرها قشعريرة .. وإنما كانت تستمد معلوماتها من وادينجتن والوصيفة .. ومنهما علمت أن الناس يموتون بمعدل مائة نفس كل يوم ! .. وقلما كان يقدر لأى فرد ممن كان الوباء ينقض عليهم أن يشفى .. حتى لقد أخرج القوم أوثانهم من المعابد المهجورة وأقاموها فى الطرقات ، وراحوا يقدمون إليها القرابين ويبذلون لها التضحيات ، ولكنها مع ذلك لم توقف الكوليرا الجامحة !

.. كان الناس يموتون بسرعة يكاد يتعذر معها دفنهم .. وكانت أسرات بأكملها تكتسح فى بعض المنازل فلا يبقى من يشيع جنازاتها .. وكان قائد الجنود رجلا قوى الشكيمة ، بحيث إذا كانت المدينة لم تتعرض للفوضى والجريمة ، فإنما كان ذلك بفضل إدارته ، إذ فرض على جنوده دفن من لم يكن يوجد من يدفنهم ، ورمى برصاص مسدسه ضابطاً أبدى تذمراً وهو يدخل بيتاً موبوءاً .. !

وكان الذعر يتملك كيتى فى بعض الأوقات حتى لقد كان قلبها يغوص فى أعماقها ، وكل جارحة من جوارحها ترتجف .. كان من السهل أن يقال إن الخطر يتضاءل إذا التزمت احتياطات وقائية معقولة ، ولكن الخوف هو الذى كان ينشب فيها مخالبه .. وكم من خطط رعناء جالت بخاطرها للفرار ؟ كانت تصبو إلى أن تغادر المنطقة ، تغادرها وحسب ، إلى غير ما وجهة معينة .. كانت على استعداد لأن ترحل كما هى ، وأن تمضى وحيدة ، دون ما شىء سوى الثياب التى كانت على جسدها ، ساعية إلى مكان أمين ؟ بل فكرت فى أن تناشد وادينجتن الرحمة ، وأن تفضى إليه بكل شىء ، وتتوسل إليه أن يساعدها على العودة إلى هونج كونج .. ولو أنها جثت أمام زوجها وصارحته بأنها كانت جزعة ، فلابد أنها كانت تجد لديه من الشعور الإنسانى ما يثير إشفاقه عليها ، رغم أنه أصبح يكرهها ..

بيد أن هذا كله كان مجرد هذيان ، إذ .. إلى أين تذهب إذا قدر لها الرحيل ؟ .. إنها لا تستطيع أن تلجأ إلى أمها ، فإن أمها لن تلبث

أن تظهر لها أنها قد وطنت نفسها على اعتبار أنها تخلصت منها مادامت قد زوجتها .. ثم إنها ، فوق ذلك ، لم تكن راغبة فى الذهاب إلى أمها .. وإنما كانت تتوق إلى الذهاب إلى تشارلى ! .. لكنه هو لم يكن راغباً فيها . كانت تعرف ما سوف يقول لو أنها ظهرت أمامه فجأة .. وكانت تتمثل الضجر القمين بأن يكسو وجهه لحظتئذ ، والقسوة الجاحدة التى سوف تلوح وراء عينيه الفاتنتين .. سيكون من العسير عليه أن يعثر على كلمات رقيقة الوقع .. وكانت وهى تتخيل ذلك ، تضم راحتيها فى غل متقد ، وتشعر بأنها ما كانت لتضن بشىء فى سبيل أن تذله كما أذلها ! .. وأحياناً كان الحقد يتملكها إلى درجة تجعلها تتمنى لو أنها حملت وولتر على أن يطلقها ، راضية بما يحيق بها من خراب فى سبيل أن تراه هو الآخر مهدماً من جراء الفضيحة .. فقد كانت بعض أقواله لها تتضرج خجلا وخزياً كلما تذكرتها !

– ٣٥ –

● وفى أول مرة خلت فيها إلى وادينجتن ، تعمدت أن تتطرق بالحديث إلى ذكر تشارلى ، إذ كان الأول قد تحدث عنه فى ليلة وصولها .. لكنها حرصت على أن تظهر أنه لم يكن أكثر من واحد من معارف زوجها .. فقال وادينجتن : « ما اكترثت قط له ، فقد شعرت دائماً أنه ثقيل الظل ! » .

فقالت كيتى فى ألطف لهجة استطاعت اصطناعها : « لابد أنك



وكان الذعر يتملك كيتى فى بعض الأوقات حتى لقد كان قلبها يغوص فى أعماقها ، وكل جارحة من جوارحها ترتجف ..

صعب الإرضاء .. فإنى أخاله أكثر الرجال فى هونج كونج شهرة وقربى لدى الناس » .

– أعرف ، فهذه حرفته .. لقد ابتدع فناً لاكتساب الشهرة والتقرب من الناس ، إذ وهب القدرة على أن يجعل كل من يلتقى به يحس بأنه الشخص الوحيد فى الدنيا الذى يبغى لقياه ! .. إنه دائماً على استعداد لأن يؤدى أية خدمة لا تجشمه عناء .. وحتى إذا لم يفعل ما تبغين فإنه يجعلك تشعرين بأن عجزه إنما يرجع إلى أن ما تبغين فوق طاقة البشر !

– هذه ميزة رائعة بلا شك ..

– إنها ميزة الجاذبية ولا شىء سواها .. بيد أنها لا تلبث فى النهاية أن تبعث الضجر ، على ما أعتقد . ولعل من بواعث الراحة أن يعامل المرء رجلا لم يؤت القدرة على بث الانشراح فى النفس ، ولكنه أوتى مزيداً من الإخلاص .. لقد عرفت تشارلى تاونسند سنين طويلة ، وقد فاجأته مرة أو اثنتين والقناع منحسر عن وجهه .. إننى – كما تعلمين – لم أكن يوماً ذا شأن .. مجرد موظف صغير فى الجمارك – ولكننى أعلم أنه لا يحفل فى قرارة قلبه بإنسان فى الدنيا .. عدا نفسه !

وكانت كيتى مضطجعة فى مقعدها ترمقه بعينين باسمتين ، وهى تدير خاتم الزواج حول إصبعها .. بينما استطرد الرجل قائلا : « إنه ولا شك سيمضى قدماً ، فهو يعرف جميع السبل للرقى فى الحكومة ..

وإنى لعلى يقين من أننى سأخاطبه يوماً – قبل موتى – ياصاحب السعادة ، وأضطر للوقوف إذا ما دخل الغرفة التى أكون فيها ! » .

– معظم الناس يظنونه أهلا للرقى .. فمن المعروف عنه عامة أنه على قدر كبير من الكفاءة !

– الكفاءة !؟ .. أى هراء هذا ! .. إنه شديد الغباء .. إنه يوحى إليك بأنه يؤدى عمله بمهارة وذكاء ، ولكن الأمر ليس كذلك .. كل ما هنالك أنه نشيط دؤوب على العمل ، كأى كاتب من أب أوربى وأم آسيوية ..

– وكيف اكتسب الشهرة بأنه نابه ؟

– فى الدنيا كثير من البلهاء ، وإذا تخلى شخص عالى المركز عن الرسميات ، وربت على ظهور الناس فى تلطف ، وقال لهم إنه على استعداد لأن يفعل كل ما يمكن فعله من أجلهم ، فإنهم ولا شك ينساقون إلى اعتباره نابهاً .. ثم .. هناك زوجته .. لقد أوتيت عقلا سليماً ناضجاً ، وإن نصيحتها لجديرة بأن تتبع على الدوام .. وطالما أتيح لتشارلى تاونسند أن يستند إليها ، فهو دائماً بمأمن من أن يرتكب أية حماقة ، وهذا أول الأمور الضرورية للإنسان كى يرقى المناصب الحكومية .. فأولو الشأن فى الحكومة لا يريدون الأذكياء ، لأن الأذكياء يكونون أصحاب آراء ، والآراء تخلق المتاعب .. إنما يريدون رجالا على قدر من السحر وحسن التصرف ، ويمكن الاطمئنان إلى أنهم

لا يخطئون أبداً .. أجل .. لسوف يرقى تشارلى تاونسند حتى يبلغ القمة بالتأكيد ..

– إنى لأعجب .... لم تكرهه ؟

– لست أكرهه ..

فابتسمت قائلة : « ولكنك تحب زوجته أكثر مما تحبه ؟ »

– إننى رجل صغير الشأن ، عتيق العقلية ، أحب المرأة الطيبـة النشأة ..

– لكم أتمنى لو أنها كانت أنيقة الملبس بقدر ما هى طيبة النشأة !

– أو ليست أنيقة ؟ .. لم ألاحظ هذا أبداً ..

فقالت كيتى وهى ترقبه خلال أهدابها المسبلة : « لطالما سمعت أنها وزوجها كلاهما مشغوف بصاحبه ، وفى له ! » .

– إنه مشغوف بها .. وإنى لأعترف له بذلك ، وأعتقد أن وفاءه هذا أطيب ما أوتى من خلال ..

– ياله من إطراء فاتر !

– إن له مغامرات بسيطة ، ولكنها ليست بالجدية ، إذ أنه أمكر من أن يتركها تمتد إلى الدرجة التى تسبب له أية مضايقة .. ثم إنه ليس بالرجل العاطفى ، وإنما هو مغرور بالباطل .. مغرم بأن يكون موضع إعجاب .. إنه بدين ، وقد بلغ الأربعين .. وإنه ليعنى بنفسه كثيراً ، ولكنه كان جم الوسامة حين وفد على المستعمرة للمرة الأولى .. وكثيراً ماسمعت زوجته تمازحه حول غزواته الغرامية !

– أو لا تهتم جدياً بغرامياته ؟

– آه .. لا ، فإنها تعرف أنها لا تتجاوز الحدود .. بل إنها تقول إنها تود لو تستطيع أن تكون صديقة للمتهورات المسكينات اللاتى يغتررن بتشارلى .. ولكنهن دائماً من الغاويات الرخيصات ، الأمر الذى لا يستثير زهوها كما تقول !

- ٣٦ -

● أخذت كيتى – بمجرد أن انصرف « وادينجتن » – تستعيد فى ذهنها ما قاله دون قصد .. ولم يكن بالقول الذى يلذ الاستماع إليه ، حتى لقد اضطرت إلى أن تبذل بعض الجهد كى لا تكشف وقعه على نفسها .: وكان من المرير أن تتبين أن كل ما قال كان صدقاً ! لقد أدركت أن تشارلى أبله ، مغرور يتعطش إلى الملق والرياء . وذكرت الزهو الذى كان يروى به بعض الأقاصيص ليبرهن على براعتـه .. كان يفخر بمكر رخيص .. وما كان أرخصها هى الأخرى حين وهبت قلبها فى عاطفـة مشبوبة لرجل كهذا ، لمجرد أنه أوتى عينين جميلتين وقواماً رشيقاً !

وودت لو تزدريه ، لأنها كانت تدرك أن الاقتصار على كراهيته يقربها من حبه ! .. وكان خليقاً بالطريقة التى عاملها بها أن تفتح عينيها .. ثم إن وولتر كان يستصغر دائماً من شأنه ، فليتها استطاعت أن تطرده نهائياً من ذهنها ! .. ترى هل كانت زوجته تمازحه بصدد هيامها الجلى به ؟ .. لقد كانت دوروثى تود لو اتخذتها صديقة لها ، لولا

أنها اعتبرتهـــا دون مستواها ! .. وابتسمت كيتى قليلا وهى تفكر فيا كان يتولى أمها من غضب لكرامتها لو أنها عرفت نظرة البعض إلى ابنتهـا !

بيد أنها حلمت بتشارلى فى تلك الليلة مرة أخرى :. أحست بذراعيه تضمانها إليه بقوة ، وبحرارة الوجد فى قبلاته تلهب شفتيها .. ماذا يهمها إن كان بديناً ، وإن كان فى الأربعين من عمره ؟ .. وضحكت فى حنان ناعم ، لأنه كان يفرط فى الاهتمام بذلك .. بل لقد كان غروره الصبيانى من أقوى دوافع حبها .. وإنها لتأنس من نفسها القدرة على أن تشفق عليه إذا أصابه ضر ، وتسرى عنه إذا ابتأس ..

وحين أفاقت من حلمها كانت الدموع تنهمر من عينيها .. ولم تدر ما الذى جعلها تشعر بأن البكاء فى المنام نذير سوء !

- ٣٧ -

● وأصبحت ترى وادينجتن كل يوم ، إذ كان يصعد التـــل إلى دار « فين » بعد أن يفرغ من عمله .. ومن ثم لم ينقض أسبوع حتى انتهيـا إلى ألفة ما كانا ليصـلا إليهـا فى عام تحت ظروف أخرى .. وذات يوم قالت له كيتى : إنها لا تدرى ماذا كانت تفعل بدونه .. فأجاب ضاحكاً : « إنك وإياى ، كما ترين ، الشخصان الوحيـدان هنـا اللذان يسيران فى هـدوء واطمئنـان على أرض صـلدة .. فإن الراهبات يسرن فى السماء .. أما زوجك فيسير فى الظلام ! » .

ومع أنها أرسلت ضحكة استخفاف ، إلا أنها عجبت فى نفسها

مما كان يعنى .. وأحست بعينيـه المرحتين الزرقاوين الضيقتين تتفرسان فى وجهها فى اهتمام مستحب ، ولكنه ينطوى على إدراك وبينة .: وكانت قد اكتشفت أنه ذو ذكاء ماكر ، وداخلها شـعور بأن العلاقات التى كانت تربطها بوولتر كانت تثير فضوله الساخر .. ووجدت متعة فى أن تحيره ، فقد مالت إليه ، وأدركت أنه كان يضمر لهـا شعوراً كريماً .. فمع أنه لم يكن متقد الذكاء ولا لامع البديهة ، إلا أنه أوتى طريقة جافة ، جارحة ، فى عرض الأمور التى تبعث على التسـلية .. وكان وجهه الصبيانى المضـحك ، تحت تلك الصلعة ، يتغضن إذا ضحك ، ويجعل لملاحظاته فى بعض الأحيـان وقعاً بالغ المجون .. إذ كان قد عاش سنين كثيرة فى البقاع المتطرفة ، حيث لا يجد فى الغالب إنساناً من بنى جلدته يتحدث إليه ، ومن ثم اتخذت شخصيته اتجاهاً متحرراً شاذاً ، فكان كثير النزوات والأطوار. وكانت صراحته منعشة ، إذ كان يبدو كما لو كان ينظر إلى الحيـاة بروح مازحة ، وكانت فكاهاته عن حكومة الاستعمار فى هونج كونج لاذعة .. ولكنه كان يضـحك كذلك من الموظـفين الصينيين فى « مى — تان — فو » ، ومن الكوليرا التى كانت تفتك بالمدينة .. وما كان ليقوى على أن يروى مأساة أو بطولة دون أن يطعمها بشىء من الفكاهة .. وكان يعى كثيراً من الأقاصيص عن مغـامراته فى الصين خـلال عشرين عاماً ، توحى إليك بأن الدنيـا ليست سـوى مكان هائل ، حافل بالألوان المتباينة ، يدعو إلى الضحك والسخرية ..

ومع أنه كان ينكر أنه واسع المعرفة بالصين ، ويقسم بأن المتبحرين فى اللغة الصينية ليسوا سوى مجانين ، إلا أنه كان يتكلم تلك اللغة بطلاقة .. وكان قليل القراءة ، حصل ما لديه من معرفة عن طريق تبادل الأحاديث .. بيد أنه كثيراً ما كان يروى لكيتى حكايات من الروايات الصينية والتاريخ الصينى .. ومع أنه كان يرويها فى تلك اللهجة المازحة الخفيفة التى فطر عليها ، إلا أنه كان يبدى تحمساً وعطفاً ، حتى لقد بدا لها أنه ربما اعتنق فكرة الصينيين عن أن الأوربيين همج يمارسون حياة باطلة ، طائشة .. ووجدت كيتى فى ذلك مورداً يغذى تفكيرها ، فما سمعت قط من قبل عن اللغة الصينية سوى أنها لغة متداعية ، قذرة ، غير جديرة بأن تمارس .: أما بعد أن سمعت أحاديث وادينجتن فقد خيل إليها أن ثمة ستاراً كان مضروباً على بصرها ، وأن طرفاً من هذا الستار قد انجاب لحظة خاطفة ، فلمحت خلفه عالماً غنياً بالألوان والمعانى التى لم تحلم بها .:

وهكذا كان يجلس يتكلم ، ويضحك ، ويشرب .. وقالت له كيتى مرة فى جرأة : « ألا ترى أنك تفرط فى الشراب ؟ » :

فأجاب : « إن الشراب متعتى الكبرى فى الحياة ، فضلا عن أنه يبعد عنى الكوليرا » .

وكان يصل إلى درجة السكر عادة حين ينصرف من لدنها ، ولكنه كان يتحمل الشراب فى رزانة .. كان يستخفه ولكنه لا يجعله ممجوجاً .

وسأله وولتر ذات مساء — وقد عاد مبكراً عن موعده المعتاد — أن يبقى لتناول العشاء معهما ، ووقع إذ ذاك حادث غريب ، فبعد أن تناولوا الحساء ، والسمك ، والدجاج ، قدم الخادم إلى كيتى سلاطة من الخضر الطازجة ، فصاح وادينجتن إذ رآها تأخذ منها نصيباً :

— يا الله !.. هل تعتزمين أن تأكلى هذا ؟

— أجل ، إننا نتناولها كل ليلة ..

وقال وولتر : « إن زوجتى تحبها » .

وقدم الطبق إلى وادينجتن ، ولكنه هز رأسه قائلا: « أشكركما جزيل الشكر .. ولكننى لا أفكر فى الانتحار بعد » .

وابتسم وولتر فى اكتئاب وتناول قسطاً من الخضر :: ولم يقل وادينجتن شيئاً بعد ذلك ، بل أخلد إلى وجوم غريب ، وسرعان ما غادرهما بعد انتهاء العشاء ..

وكانا قد اعتادا بالفعل أن يأكلا السلاطة كل مساء ، إذ حدث بعد وصولها بيومين أن قدمها الطاهى ، بما عرف عن الصينيين من قلة اكتراث ، فتناولت كيتى بعضاً منها دون تفكير ، وإذا وولتر يميل نحوها بسرعة قائلا : « ما ينبغى أن تأكلى هذه .. إن الخادم مأفون إذ قدمها ! » .

فسألته وهى تحدق فى وجهه : « ولم لا ؟ » .

– إنها دائماً محفوفة بالخطر .. إنه جنون فى الظروف الحاضرة.. ستقتلين نفسك !

قالت : « ظننت هذه بغيتك ! » .

وراحت تأكل فى هدوء ، وقد تملكتها روح مغامرة لم تــدر مأتاها ، وجعلت ترمق وولتر بنظرة ساخرة .. فخيل إليها أنه ازداد شحوباً إلى حد ما .. ولكنه تناول نصيباً من السلاطة حين قدمت إليه! وإذ ألفى الطاهى أنهما لا يرفضانها ، أخذ يعد لهما قدراً منها فى كل يوم ، فكانا – فى كل يوم أيضاً – يتناولانهـا مرحبين بالموت !.. وكان لركوب هذا الخطر روعة خاصة . كانت كيتى فى ذعرها من الوباء تقدم على هذا الخطر وهى تشعر بأنها لا تثأر لنفسها من وولتر بطريقة خبيثة فحسب ، وإنمـا تسخر أيضاً من مخاوفها القاتلة ..

– ٣٨ –

● وفى اليوم التالى لتلك الليلة ، أقبل وادينجتن على الدار فى الأصيل .. وبعد أن جلس قليلا سأل كيتى عما إذا كان يروق لهـا أن تخرج معه فى نزهة ، ولم تكن قد غادرت المبنى منذ وصولها، فسرها أن تلبى دعوته .. وإذ ذاك قال : « أخشى أن لا تجدى هنـا مواطن كثيرة للنزهة ، ولكنا سنسير إلى قمة التل .. » .

– آه ، حيث يقوم النصب المحدودب .. لقد رأيته من الشرفة .

وفتح لهما أحد الخدم الباب الخارجى الثقيل ، فانتقلا إلى الطريق الضيقة المغبرة .. وسارا بضع ياردات ، ثم أرسلت كيتى صرخة

مرتاعة ، وأمسكت بذراع وادينجتن فى رعب قائلة : « انظر ! » .

– ماذا روعك ؟

كان ثمة رجل مستلقياً على ظهره تحت سور الدار ، وقد بسط ساقيه منفرجتين ، ومد ذراعيه خلف رأسه . وكان يرتدى أسمالا زرقاء قذرة ، وتعلو رأسه ثلة الشعر المنفوش التى تميز المتسولين فى الصين .. وقالت كيتى لاهثة : « يبدو كما لو كان ميتاً ! » .

– بل هو ميت .. هيا .. يحسن أن تشيحى بوجهك إلى الجانب الآخر .. سآمر بنقله عندما نعود ..

ولكن كيتى راحت ترتجف فى عنف شل حراكها .. وقالت: « لم أر شخصاً ميتاً من قبل » .

– يحسن أن تسرعى فتألفى هذا المنظر إذن .. فلسوف ترينـه كثيراً قبل أن تبارحى هذا المكان البهيج !

وأمسك بيدها فتأبطها .. وسارا برهة صامتين ، ثم تسـاءلت أخيراً : « هل مات بالكوليرا ؟ » .

– أظن ذلك ..

وصعدا التل حتى بلغا النصب ، فإذا به غنى بالنقوش .. وكان بمنظره الخيالى ، الساخر ، يقوم كدليل يميز الريف يحيط به.. وجلسا عنـد قاعـدته مواجهين السهل الفسيح .. كان التل يزخـر باللمم الخضراء الصغيرة المرتفعة عن سطح الأرض .. إنها قبور الموتى ، لم تنتشر فى صفوف منتظمة ، بل تناثرت فى فوضى تشعرك بأنها



ولكن كيتى راحت ترتجف فى عنف شل حراكها .. وقالت : « لم أر شخصاً ميتاً من قبل » ..

تتدافع بالمناكب تحت سطح الأرض !.. وكانت الطريق الحلوية تتسلل ملتوية خلال حقول الأرز الخضراء .. وكان ثمة صبى يجلس على عنق جاموسة يقودها إلى داره فى بطء ، وثلاثة من الفلاحين تحت قبعات واسعة الحواف من الخوص ، يسيرون فى تثاقل يرزحون تحت أحمال ثقيلة .. وكان من البديع – بعد قيظ النهار – أن يحظى المرء بنسمات المساء الواهنة فى تلك البقعة .. ومنظر الريف الشاسع المترامى يبعث فى القلب المعذب شعوراً بالأسى المريح .. ولكن كيتى لم تستطع أن تقصى عن ذهنها صورة المتسول الميت ، فتساءلت فجأة : « كيف تستطيع أن تتكلم وتضحك وتجرع الويسكى والناس يموتون حولك فى كل مكان ؟ » .

ولم يجب وادينجتن ، بل التفت وحدق فيها ثم وضع يده على ذراعها وقال فى لهجة جادة : « إنك تعرفين أن هذا ليس بالمكان الملائم لامرأة .. لم لا ترحلين ؟ » .

فرمقته بنظرة من بين الأهداب المسدلة على ركنى عينيها ، ولاح على شفتيها طيف ابتسامة وهى تقول : « حرى بى أن أعتقد فى مثل هذه الظروف أن المكان اللائق بالزوجة هو أن تكون إلى جوار زوجها .. » .

– لقد بهت حين أبرقوا لى بأنك قادمة مع « فين » ، ولكنى ما لبثت أن خطر ببالى أنك ربما كنت ممرضة ، تجيئين لتمارسى مهنتك فى هذه الظروف .. ولقد توقعت أن تكونى من أولئك النساء

ذوات الوجوه العابسة اللاتى يرهقن المرء إذا كان مريضاً فى المستشفى حتى يجعلنه يزهد فى الحياة .. لذلك كان ذهولى بالغاً حين وفدت على الدار ورأيتك جالسة تستريحين فى قاعة الجلوس .. فقد بدوت بالغة الضعف ، والشحوب ، والتعب ..

— ما أظنك كنت تتوقع أن ترانى فى أبهى منظر بعد أن قضيت تسعة أيام فى الطريق !

— ولكنك تلوحين الآن أيضاً ضعيفة ، وشاحبة ، ومتعبة ، و — لو سمحت لى بأن أقولها صريحة — شقية إلى درجة اليأس !

ولم تمالك كيتى أن تضرجت ، ولكنها استطاعت أن تصطنع ضحكة بادية المرح وقالت : « يؤسفنى أنك لم تعجب بمحياى .. إن السبب الوحيد لما يبدو على من شقاء هو أننى أدركت مذ كنت فى الثانية عشرة من عمرى أن أنفى كان أطول مما ينبغى قليلا .. وأن التظاهر بحزن خفى هو أفعل المظاهر فى النفوس .. ولن تتصور عدد الشبان اللطفاء الذين حاولوا أن يواسونى ! » .

وظلت عينا وادينجتن الزرقاوان المتألقتان لا تتحولان عنها ، فأدركت أنه لم يصدق كلمة مما قالت — وما كانت لتأبه لذلك طالما كان يتظاهر بأنه يصدقها — وقال أخيراً : « لقد عرفت أن عهدك بالزواج ليس بالطويل ، فاستنتجت أنك وزوجك كنتما مدلهين فى الهوى إلى درجة الجنون .. ولم أكد أصدق أنه هو الذى أرادك على المجىء ، بل إنك ربما رفضت رفضاً باتاً أن تتخلى عنه ! » .

فقالت فى ارتياح : « هذا إيضاح معقول للغاية » .

— أجل .. ولكنه ليس التعليل الصحيح !

وتطلعت ترتقب أن يمضى ، وهى موجسة مما يوشك أن يقول ، إذ كانت على يقين من فراسته ، وكانت تدرك أنه لا يحجم قط عن أن يكشف عما يكون فى ذهنه !.. ولكنها لم تقو على أن تقاوم الرغبة إلى الإنصات إليه وهو يتكلم عنها .. واستطرد يقول :

— لا أظن لحظة واحدة أنك تحبين زوجك .. كما لا أظنك تكرهينه .. وما كان ليدهشنى أن تكرهيه .. ولكنى واثق تمام الثقة من أنك تخافينه !

وأشاحت بوجهها لحظة ، فما ودت أن تدع وادينجتن يلمح أن شيئاً مما قال قد أثر فى نفسها .. وقالت فى سخرية لاذعة :

— بنفسى هاجس بأنك لا تميل لزوجى كثيراً !

— إننى أحترمه ، فإنه أوتى عقلا وخلقاً ، وأؤكد لك أنهما عنصران ليس من المألوف اجتماعهما .. وما أحسبك تحدسين ما يفعل هنا ، لأننى لا أظنه كثير الحديث عن نفسه .. وإذا كان فى وسع رجل أن يوقف بمفرده هذا الوباء الرهيب ، فزوجك هذا الرجل .. إنه يعالج المرضى ، ويطهر المدينة ، ويسعى لتوفير مياه الشرب النقية .. وهو لا يعبأ بأينما ذهب ، ولا بأى شىء يفعل .. إنه يعرض حياته للخطر عشرين مرة فى اليوم الواحد ، وقد أفلح فى أن يضع الكولونيل « يو » فى جيبه ، وحمله على أن يضع جنوده رهن

إشـارته .. بل إنه بث فى المسـجل شيئاً من الحماس ، فإذا بالرجـل المسن يحاول جاهداً أن يؤدى بعض النفع .. ثم إن الراهبات أصبحن يقسمن فى الدير به ، ويرين فيه بطلا ..

ــ أو لا تراه أنت كذلك ؟

ــ إنهـا على كل حـال ليست مهمته .. أليس كذلك ؟.. إنه بكتريولوجى .. ولم يكلفه أحد بالحضور .. وهو لا يوحى لى بأنه قد تأثر لكل هؤلاء الصينيين الذين يموتون .. لقد كان « واطسن » يختلف عنه .. كان يحب الجنس البشرى بلا تمييز ، ومع أنه كان مبشراً ، إلا أنه لم يكن يأبه لمـا إذا كان المرضى مسيحيين أو بوذيين أو من اتباع كونفوشيوس .. كانوا جميعاً لديه كائنات بشرية .. أما زوجك ، فلم يوجد هنا لأنه يهتم فى شىء لوفاة مائة ألف صينى بالكوليرا ، لا ولم يأت هنا شغفاً بالعلم .. فلم جاء إذن ؟

ــ يحسن بك أن تسأله !

ــ إنمـا يروق لى أن أنظر إليكما معاً .. إننى لأسائل نفسى أحياناً عن تصرفاتك إذا ما انفردت بنفسك .. إنكما فى وجودى تعمدان إلى التمثيل .. كلاكما .. ولعمر الحق ، ما أسوأه من تمثيل !.. إن أحدكما لا يستحق ثلاثين شلناً فى الأسبوع من إحدى الفرق المتجولة ، إذا كان هذا أقصى جهدكما !

ــ قالت كيتى مبتسمة ، وهى تتصنع استخفافاً كانت تدرك أنه لا يخدع به : « لست أدرى ماذا تعنى ؟ » .

ــ إنك امرأة باهرة الجمال ، ومن العجيب أن لايتطلع زوجك إليك .. بل إنه إذا خاطبك بدا كأن الصوت المنبعث صوت شخص آخر سواه !

فتساءلت كيتى بصوت منخفض ، أجش ، وقد ألقت عنهـا فجأة تظاهرها بالاستخفاف : « أو تظنه لا يحبنى ؟ » .

ــ لا أعلم .. لا أدرى ما إذا كنت تثيرين فى نفسه تقززاً يجعله يقشعر إذا ما اقترب منك ، أو أنه يكتوى بوجد لا يسمح لنفسـه ، لسبب ما ، بأن يبديه .. ولقد ساءلت نفسى فيما إذا كنتما قد جئتما لتنتحرا هنا !

وتمثلت كيتى النظرة الجزعة ، ثم النظرة الثاقبة ، اللتين صـدرتا عن وادينجتن عندما وقع حادث السلاطة !.. فنهضت وهى تقول فى لباقة : « أظنك تغالى فى إضفـاء الأهمية على بضعة عروق من الخس .. هل حان لنا أن نعود للدار ؟.. إننى متأكدة من أنك بحاجة إلى كأس من الويسكى والصودا » .

ــ إنك لست بطلة على كل حال .. وإنمـا أنت تعـانين رعباً مميتاً .. أواثقة أنت من أنك لا تبغين الرحيل ؟

ــ وما شأنك بهذا ؟

ــ لسوف أساعدك ..

ــ أو تراك تأثرت بطـابع الأسى الدفين الذى يبـدو على

أساريرى ؟.. تأمل جانب وجهى وحدثنى : ألا ترى أننى أطـول مما ينبغى؟

فحملق فيها مفكراً ، وقد أومضت فى عينيه البراقتين تلك النظرة المـاكرة ، الساخرة — وإن خالطها ظل من الإشفاق الشخصى ، بدا كظل شجرة قامت على حافة نهر ، وانعكست صورتهـا على صفحة المـاء — وتدافعت الدموع إلى عينى كيتى ، فسألها : « أو يجب أن تمكثى ؟ » .

— نعم ..

ومرا تحت النصب العديد الألوان ، ثم راحا يهبطان التل ، حتى إذا اقتربا من الدار ، أبصرا بجثـة المتسـول الميت ؛ فأمسك بذراعهـا ، بيد أنهـا تملصت ، ووقفت جامدة ، ثم هتفت : « إنه رهيب .. أليس كذلك ؟ » .

— ما هو ؟.. الموت ؟

— نعم .. إنه يجعـل كل شىء آخر يبـدو إلى جـواره فى منتهى التفاهة .. إن الميت لا يبـدو إنساناً فى شىء ، حتى ليعز عليك إذا نظرت إليه أن تقنع نفسك بأنه كان على قيد الحياة يوماً ما .. من العسير أن تفكر فى أنه منذ سنوات ليست ببـالغة البعـد كان غلاماً صغيراً يهبط التل جارياً ، ويتلهى بتطيير طائرة ورقية !

ولم تقو على أن تغالب غصة باكية هزت كيانها ..

— ٣٩ —

● بعد بضعة أيام ، جلس وادينجتن يحدث كيتى عن الدير ، وقد أمسك فى يده بكوب طويلة مترعة بالويسكى .. قال : « إن الراهبة الرئيسة — الأم — امرأة رائعـة ، وتقول لى الراهبـات الأخوات : إنها تنتمى إلى أسرة من أرقى أسرات فرنسا ، ولكنهن يأبين أن يرشدننى إليها ، إذ أن الأم الرئيسة لا ترغب — كما يقلن — فى أن يخوض أحد فى الحديث عنها .. » .

فتساءلت كيتى مبتسمة : ولم لا تسألها، إن كان الأمر يهمك ؟

— لو كنت تعرفينها لأدركت أن من المستحيل أن توجهى إليها سؤالا بعيداً عن الفطنة .

— لابد أنها رائعة حقاً ، ما دامت تستطيع أن تبعث فى نفسك مثل هـذه الهيبة ..

— إننى أحمل إليك رسالة منها ، فقد سألتنى أن أقول لك إن من دواعى السرور العظيم لهـا أن تريك الدير إن شئت ، ما لم تكونى غير راغبة فى أن تخاطرى بالذهاب إلى مركز بؤرة الوباء ..

— هذا كرم عظيم منها .. ماخطر لى أنها قد فطنت إلى وجودى..

— لقـد حدثتهـا عنك ، إذ أننى أذهب إلى هناك — فى الوقت الحاضر — مرتين أو ثلاثاً فى الأسبوع ، لأرى ما إذا كنت أستطيع أن أسـدى أية خدمة .. كما أننى أعتقد أن زوجك حدثهن عنك ،

وينبغى أن تعدى نفسك لأن تتبينى أنهن يشعرن نحوك بإعجاب لا حد له ..

— أأنت كاثوليكى ؟

وأومضت عيناه الماكرتان ، وأشرق وجهه الصغير العجيب بالضحك ، فسألته كيتى : « فيم ابتسامك لى ؟ » .

— هل يخرج من (الجليل) شىء صالح ؟.. لا ، لست كاثوليكياً ، وإنما أصف نفسى بأننى عضو فى الكنيسة الإنجليزية ، وهذه فيما أرى صيغة مهذبة للقول بأننى لا أومن كثيراً بأى شىء ! . لقد أحضرت الأم الرئيسة ، حين وفدت إلى هنا منذ عشر سنوات سبع راهبات ، ماتت منهن أربع ! — وهكذا ترين أن « مى — تان — فو » ليست بالمقام المأمون ، حتى فى خير الأوقات — وهن يعشن فى قلب المدينة ، فى أفقر أحيائها .. ويعملن بجد مضن ، ولم يفزن يوماً بعطلة للراحة !

— إذن فليس هناك الآن سوى ثلاث راهبات والأم الرئيسة ؟

— آه ، كلا .. فقد حلت محل الأخريات غيرهن .. هناك الآن ست .. وعندما ماتت إحداهن بالكوليرا فى بداية الوباء ، أقبلت اثنتان غيرها من « كانتون » .

فارتعدت كيتى قليلا .. وسألها : « هل مسك برد ؟ » .

— لا ... إنما اقشعر بدنى رهبة ، أو كما يقولون أحسست بشىء يدب فوق قبرى ! » .

— إن هؤلاء الراهبات حين يبرحن فرنسا ، يفارقنها إلى الأبد ، فهن لسن مثل طائفة المبشرين البروتستانت الذين يحصلون على عطلة مدتها عام بين حين وآخر .. وإنى لأعتقد دائماً أن هذا أصعب ما فى حياتهن من فروض ، إذ أننا معشر الإنجليز لا نشعر برابطة قوية تشدنا إلى أرض الوطن ، وإنما نستوطن أى مكان فى الدنيا نحل به .. أما الفرنسيون ، فأعتقد أنهم نزاعون إلى الارتباط بوطنهم برباط يكاد يكون مادياً محسوساً ، فهم لا يشعرون بسكينة وراحة وهم فى خارجه .. ومن ثم يلوح لى أن من أفعل الأمور فى النفس أن تقدم هاته النسوة على مثل تلك التضحية .. وإن كنت أظن أنها كانت تبدو لى طبيعية لو كنت كاثوليكياً ..

وتأملته كيتى فى هدوء ، وهى لا تكاد تدرى ما كان يحفز هذا الرجل الضئيل الجسم على الكلام .. وساءلت نفسها : أتراه ممثلا يصطنع مظهره ؟.. على إنه كان قد جرع كمية كبيرة من الويسكى ، فلعله لم يكن متمالكاً وعيه !؟

وكأنما قرأ هو ما يجول بخاطرها ، فقال بابتسامته المازحة : « تعالى إلى الدير لترى كل شىء بنفسك ، فليس فى ذلك من الخطر ما يعادل ما تتعرضين له إذ تأكلين ثمرة من الطماطم ! » .

— لست أرى ما يدعونى إلى الخوف ، إذا كنت أنت غير خائف ..

– أعتقد أن الزيارة ستلذ لك .. فالدير أشبه ما يكون بقطعة من فرنسا :

– ٤٠ –

● وعبرا النهر فى زورق صغير .. وكانت ثمة محفة ذات مقعد فى انتظارهم عند البقعة التى هبطا فيها ، فاستقلتها كيتى ، وحملت فيها إلى التل حتى بوابة الماء ، وهى بوابة كان الحمالون الصينيون يجتازونها وهم ينقلون الماء من النهر ، فكانوا يهرعون فى رواح ومجىء ، وقد تدلى من عصا على منكبى كل منهم دلوان ضخمان ، وهم فى إسراعهم ينثرون الماء على الدرب ، حتى بدا مبتلا وكأنما هطل عليه مطر غزير .. وكان حاملو محفة كيتى يرسلون صرخات قصيرة حادة ، ينبهونهم بها كى يفسحوا الطريق .

وقال وادينجتن وهو يرافق كيتى سائراً على قدميه : « إن حركة الأعمال متوقفة الآن طبعاً .. أما فى الظروف العادية ، فإن عليك أن تكافحى لتشقى طريقك بين الحمالين المثقلين بالأحمال ، وهم يروحون إلى المرساة ويغدون منها .. » .

وكانت الطريق ضيقة ، متعرجة ، فتعذر على كيتى أن تعرف الاتجاه الذى كانت تمضى فيه ، سيما وقد كانت أكثر الحوانيت مغلقة :. وكانت قد ألفت خلال رحلتها ما يشيع فى الطرق الصينية من إهمال ، بيد أن هذه الطريق فاقت فى القذارة كل ما رأت من قبل ، إذ تراكمت فيها مخلفات أسابيع من الفضلات والنفايات ،

وتصاعدت منها رائحة كريهة قوية اضطرت معها إلى أن تنشر منديلها على وجهها .. وكان يضايقها أثناء المرور فى شوارع المدن الصينية عامة أن ترى الجموع تحملق فيها ، ولكنها لاحظت فى هذه المرة أنها لم تتلق أكثر من نظرات عابرة غير حافلة .. فقد كان المارة المتناثرون ، دون ما تجمع كعادتهم ، منصرفين إلى شئونهم ، وقد بدا عليهم الخوف والقلق .. وكانوا يسمعون بين آن وآخر – أثناء مضيهم – دقات الطبول ، وصراخ أدوات مجهولة تنطلق معولة منتحبة :. معلنة أن ثمة من يريد ميتاً خلف تلك الأبواب المغلقة !

وقال وادينجتن أخيراً : « ها قد وصلنا .. » .

وأنزلت المحفة عند باب صغير يعلوه صليب ، ويتوسط سياجاً أبيض .. فهبطت كيتى .. ودق وادينجتن الجرس قائلا : « لا تطمعى نفسك فى أنك سترين شيئاً رائعاً هنا ، فهم كما ترين فى فقر مدقع .. » .

وفتحت الباب فتاة صينية ، ما لبثت أن قادتهما – بعد أن تبادلت مع وادينجتن كلمة أو اثنتين – إلى حجرة صغيرة على أحد جانبى الردهة ، اشتملت على منضدة مغطاة بمشمع نقش بمربعات ، بينما أقيمت بمحاذاة الجدران مقاعد خشنة .. وفى أحد طرفى الحجرة قام تمثال من الجبس للسيدة العذراء .. وإن هى إلا لحظة حتى أقبلت راهبة قصيرة ، ممتلئة الجسم ، ذات وجه أنيس ، وخدين متوردين ، وعينين مرحتين .. خاطبها وادينجتن باسم « الأخت سان جوزيف » ، وهو يقدم إليها كيتى ..

وتساءلت بالفرنسية فى إشراق : « أهذه زوجة الطبيب ؟ » ::
ثم أضافت : إن الأم الرئيسة ستحضر سريعاً ..

ولم يك فى وسع الأخت سان جوزيف أن تتكلم الإنجليزية ، كما أن فرنسية كيتى كانت قد صدئت ، ولكن وادينجتن وصل بينهما فى فيض من التعليقات اللبقة ، الطلقة ، التى لم يعن فيها بالدقة .. وأثارت ضحكات الراهبة ، التى انطلقت فى ابتهاج وغير تكلف ، دهشة كيتى ، فقد كانت تعتقد أن أهل الدين غالباً عابسون ، ومن ثم لمس قلبها المرح الصبيانى الذى بدا على الراهبة ..

— ٤١ —

● وفتح الباب بطريقة خيل معها لكيتى أنها غير عادية ، وكأنما تأرجح الباب على مفصلاته .. وولجت الأم الرئيسة الحجرة الصغيرة ، فوقفت برهة لدى المدخل تحوم على شفتيها ابتسامة وقورة وهى ترقب الأخت الضاحكة ، ووجه وادينجتن المضحك ، الشبيه بوجه مهرج .. ثم تقدمت ، وبسطت راحتها لكيتى ..

وقالت فى لغة إنجليزية مشوبة بلكنة — وإن كانت سليمة النطق — وهى تتحرك فى شبه انحناءة طفيفة : « مسز فين ؟ .. إنه لسرور عظيم أن أتعرف على زوجة طبيبنا الطبيب الشجاع .. » .

وأحست كيتى بعينى الرئيسة تشملانها بنظرة طويلة ، دهشة ، تنم عن إعجاب .. وكانت نظرة صريحة ، ولكن فى غير خروج عن اللياقة ، توحى إليك بأنك أمام امرأة مهمتها أن تكون فكرة عن

الآخرين ، وليست بك حاجة إلى أن تراوغها .. وفى حفاوة وجلال أشارت إلى زائريها كى يجلسا ، وجلست بدورها .. ووقفت الأخت سان جوزيف إلى الخلف قليلا من الرئيسة وهى لا تزال تبتسم ، وإن لاذت بالصمت .. بينما قالت الأم الرئيسة :

— إننى أعرف أنكم معشر الإنجليز تحبون الشاى ، ولذا طلبت إعداده :. ولكننى أرجو المعذرة إذا كان سيقدم على الطريقة الصينية :: وإنى لأعرف أن مستر وادينجتن يؤثر الويسكى ، لكننى أخشى أن لا أستطيع تقديم هذا الشراب إليه ..

وابتسمت وقد شابت عينيها الجادتين لمحة من مكر ، فهتف وادينجتن : «أواه :. رفقاً ياأماه .. إنك تتحدثين كما لو كنت سكيراً مدمناً ! » .

— أتمنى أن تستطيع القول يوماً بأنك لاتتعاطى خمراً يا مستر وادينجتن ..

— أستطيع دائماً أن أقول إننى لا أشرب قط إلا فى حدود الاعتدال ..

فضحكت الأم الرئيسة وترجمت إلى الفرنسية للأخت سان جوزيف رده اللبق ، فتطلعت هذه إليه بعينين مشفقتين ، مليئتين بالود ، وقالت : «يجب أن نؤثر مستر وادينجتن ببعض التسامح ، لأنه خف إلى نجدتنا مرتين أو ثلاثاً ، حين كان مالنا ينضب ولا ندرى كيف ندبر القوت لأيتامنا .. ! » .

وأقبلت الفتاة الصينية التى كانت قد فتحت الباب للزائرين ، حاملة صفحة عليها أقداح صينية وإبريق للشاى ، وطبق صغير به بعض الفطائر الفرنسية المعروفة باسم «مادلين» .. وقالت الأم الرئيسة : « يجب أن تأكلا من المادلين لأن الأخت سان جوزيف صنعتها لكما بيديها هذا الصباح » :

وتجاذبوا أطراف الحديث فى أمور عادية ، فسألت الرئيسة كيتى عن المدة التى قضتها فى الصين ، وعما إذا كانت الرحلة من هونج كونج قد أتعبتها كثيراً .. وهل زارت فرنسا .. وهل لم تجد الجو فى هونج كونج مرهقاً بعض الشىء ؟ .. كان حديثاً تافهاً ، ولكنه ودى ، ذو طابع خاص من خلق الظروف .. وكان المكان هادئاً جداً — حتى ليعز عليك أن تصدق أنك فى وسط مدينة مأهولة — والسلام والسكينة سائدين .. ومع ذلك ، فقد كان الوباء يعيث معربداً فى كل ما يحوط تلك البقعة ، ولم يكن يسيطر على القوم الذين استبد بهم الذعر والاضطراب ، سوى شكيمة رجل عسكرى كان فى حد ذاته شبيهاً برجال العصابات .. وكانت المصحة التى فى الدير زاخرة بالجنود المرضى والمحتضرين ، كما أن ربع الأيتام الذين كانوا فى رعاية الراهبات توفوا !

وأحست كيتى بهيبة لم تدر مأتاها ، وهى تتأمل السيدة الوقور التى كانت توجه إليها تلك الأسئلة الودية .. كانت مسربلة بالبياض الذى لم تشبه شائبة من أى لون اللهم إلا ذلك القلب القانى الذى كان

يتألق على صدرها .. وكانت فى أوسط العمر — ربما فى الأربعين أو الخمسين — وإن كان من المتعذر تحديد سنها بالضبط ، إذ لم تكن تتخلل وجهها الناعم الشاحب سوى تغضنات قليلة .. على أنك تجد نفسك مسوقاً إلى الشعور بأنها قد خلفت مرحلة الشباب بزمن ، بحكم الوقار والرصانة البادبين عليها ، فضلا عن ضمور يديها الجميلتين القويتين ..

وكان وجهها طويلا ، وفمها واسعاً ، به أسنان ضخمة غير متناسقة .. أما أنفها فكان رقيقاً ينم عن حساسية ، وإن لم يكن صغير الحجم .. بيد أن الشىء الذى كان يطبع وجهها بذلك الطابع الرصين المهيب ، كان يتمثل فى عينيها ، والحاجبين الرفيعين اللذين كانا يعلوانهما .. كانت العينان واسعتين جداً ، فاحمتى السواد ، ومع أنهما لم تكونا صارمتين ، إلا أن هدوءهما الثابت كان يكسبهما قوة قاهرة متسلطة ..

وكان أول ما يتملكك إذ تنظر إلى الأم الرئيسة ، أنها ولابد كانت جميلة فى صباها ، ولكنك سرعان ما تتبين أن جمالها إنما كان مستمداً من شخصيتها وأخلاقها ، ومن ثم فإنه كان ينمو على مر السنين ! .. وكان صوتها عميقاً ، خافتاً ، متزناً .. وسواء أكانت تتكلم بالفرنسية أو بالإنجليزية ، فإنها كانت تتحدث فى تؤدة .. على أن أكثر ما كان يأخذك منها ، روح مسيطرة ، تلطف من تسلطها تقوى عارمة .. فأنت تحس أنها فطرت على أن تكون امرأة ، وعلى أن تطاع ، ولكنها

كانت تتقبل الطاعة فى تواضع .. كذلك كنت لا تتمالك أن تتبين أنها كانت عميقة الشعور بسلطان الكنيسة التى كانت تحتضنها .. ولكن شعوراً خالج كيتى مع ذلك بأنها رغم سلطانها الجليل كانت تحس نحو الضعف البشرى بتسامح إنسانى ، فكان من المستحيل أن ترى ابتسامتها الوقور وهى تنصت إلى ثرثرة وادينجتن الجريئة، الفارغة ، دون أن تحس أن لديها إدراكاً حياً للفكاهة ..

غير أن ثمة خلة أخرى كانت لها .. وأحست بها كيتى فى إبهام دون أن تدرى كيف تسميها .. خلة كأنما أقامت حجاباً بينهما ، بالرغم مما أغدقت الأم الرئيسة على زائرتها من حفاوة ولطف رقيقين جعلاها تحس بالخجل ، وكأنها تلميذة صغيرة أمامها !

— ٤٢ —

● قالت الأخت سان جوزيف بالفرنسية : « إن السيد لا يأكل شيئاً » .

فردت الأم الرئيسة : « إن ذوق السيد قد أفسده طهى ابنة (مانشو) » .

ففارقت الابتسامة وجه الأخت سان جوزيف ، واصطنعت مظهر الإشفاق .. بينما تناول وادينجتن ، وفى عينيه نظرة ماكرة ، كعكة أخرى — وكيتى لا تفقه شيئاً مما يجرى — ثم قال : «لسوف أفسد العشاء الفاخر الذى يرتقبنى ، لأثبت لك مدى تجنيك على يا أماه ! » .

فتحولت الأم الرئيسة إلى كيتى وقالت وعلى أساريرها ابتسامة

اعتذار : « سيسرنى أن أرى « مسز فين » الدير إن شاءت .. وكم يؤسفنى أن تريه فى الوقت الحاضر وقد شاعت فيه الفوضى .. فإن لدينا عملا كثيراً ، وليست لدينا الكفاية من الأخوات الراهبات .. وقد أصر الكولونيل « يو » على أن نضع مصحتنا تحت إمرة الجنود المرضى ، فاضطررنا إلى أن نحول المطعم إلى عنبر لأيتامنا » :

ووقفت لدى الباب مفسحة لكيتى كى تمر ، ثم سارتا تتبعهما الأخت سان جوزيف ووادينجتن ، يجوسون خلال الردهات البيضاء الرطبة الهواء .. وولجوا أول ما ولجوا قاعة كبيرة عارية من الرياش ، جلس فيها عدد من الفتيات الصينيات منهمكات فى التطريز .. ووقفن إذ دخل الزائرون ، فعرضت الأم الرئيسة بعض عملهن على كيتى ، وهى تقول : « إننا نواصل تدريبهن رغم الوباء ، لأن ذلك يشغل بالهن عن الخطر » .

وانتقلوا إلى غرفة ثانية انصرفت فيها فتيات أصغر سناً من السابقات ، إلى أعمال الحياكة البسيطة .. ثم إلى غرفة ثالثة لم يكن فيها سوى أطفال صغار ، تحت رعاية صينية ممن اعتنقن المسيحية ، أطفال فى الثانية أو الثالثة من عمرهم ، بعيونهم الصينية السوداء ، وشعرهم الفاحم .. وكانوا يلعبون فى ضجيج ، فلما دخلت الأم الرئيسة تجمعوا حولها ، وأمسكوا بيديها وراحوا يتوارون فى ثنايا ذيل ثوبها الفضفاض .. وأشرقت على الوجه الوقور ابتسامة فاتنة ، وراحت تداعبهم وتنطق

بكلمات فيها لثغة ، استطاعت كيتى – رغم جهلها باللغة الصينية – أن تدرك أنها كلمات تدليل ::

وارتجفت كيتى قليلا ، إذ بدا لها الأطفال – فى زيهم الخاص ، وبشرتهم الصفراء ، وأنوفهم المفرطحة – أبعد ما يكونون عن الآدميين .. كان مظهرهم يبعث على النفور والتقزز .. ومع ذلك فقد وقفت الأم الرئيسة بينهم وكأنها البر والخير متجسدان ، وعندما همت بمغادرة الغرفة ، أبوا أن يتركوها ، وتعلقوا بها .. فاضطرت ، وهى تبتسم ، إلى استعمال القوة المترفقة لتخلص نفسها منهم .. لكنهم بدوا مطمئنين ، فما كانوا ليجدون فى هذه السيدة العظيمة ما يجعلهم يرهبونها ، فى أى الأحوال ..

وقالت وهم يسيرون فى ردهة أخرى ، تخاطب ضيفتها : « تعرفين بالطبع أنهم أيتام اسماً .. أى أن آباءهم لم يموتوا ، وإنما أرادوا التخلص منهم .. ونحن ندفع بعض المال لقاء كل طفل يجلب إلينا ، وإلا لما تجشم الآباء عناء إحضارهم ، ولقضوا عليهم ! » .. ثم التفتت إلى الأخت الراهبة تسألها : « هل حضر أحد منهم اليوم ؟ » .

– أربعة ::

– إنهم الآن – والكوليرا تفتك بهم – أكثر لهفة للتخلص من عبء البنات ، إذ يرون فيهن مخلوقات لا نفع لها ..

وشاهدت كيتى غرف النوم ، ثم مر الجمع بباب كتب عليه بالطلاء « قاعة المرضى » .. وسمعت كيتى أنات وصرخات عالية

وأصوات متألمة كأنها لم تكن تصدر عن آدميين .. فقالت الأم الرئيسة فى ابتسامتها الهادئة : « لن أريك قاعة المرضى ، فهى ليست بالمنظر الذى يرجو أى امرىء أن يراه » .. ثم عقبت وكأنما خطرت ببالها فكرة : « ترى هل الدكتور فين هنا ؟ » .

ونظرت فى استفهام إلى الأخت ، فإذا بهذه تفتح الباب ، وتتسلل خلاله ، بابتسامتها المرحة :: وانكمشت كيتى مجفلة إذ سمح الباب المفتوح بأن تسمع الضجة التى كانت تنبعث فى الغرفة بوضوح أدعى للرهبة والجزع .. وعادت الأخت سان جوزيف تقول : « لا .. كان هنا ، ولن يعود إلا فى أواخر النهار .. » .

– وما حال (رقم ٦) ؟

– يا للغلام المسكين ! .. لقد مات !

فرسمت الأم الرئيسة علامة الصليب على صدرها ، وتحركت شفتاها فى صلاة قصيرة صامتة ..

ومروا بساحة ، فوقع بصر كيتى على شبحين طويلين استلقيا على الأرض جنباً إلى جنب ، وقد غطيا بقطعة من قماش قطنى أزرق .. فالتفتت الرئيسة إلى وادينجتن قائلة : « لدينا نقص فى الأسرة ، مما يضطرنا إلى أن نضع كل مريضين فى سرير ، وإلى أن نبادر بإخراج من يموت فوراً لنفسح مكاناً لسواه » .. ثم التفتت إلى كيتى مبتسمة وقالت : « والآن ، سنريك كنيستنا .. فنحن نفخر بها .. ولقد أرسل

إلينا أحد أصدقائنا منذ فترة غير بعيدة تمثالا للسيدة العذراء بالحجم الطبيعي، كى نضعه فيها .. » .

- ٤٣ -

● لم تكن الكنيسة أكثر من غرفة طويلة، منخفضة السقف، ذات جدران بيضاء الطلاء، وضع فيها صف من المقاعد الخشبية .. وكان المنبر يقوم فى آخرها، وعليه التمثال، الذى صنع من جبس باريس وطلى بألوان زاهية شديدة اللمعة .. وكان جديداً، بادى البهرجة، وخلفه علقت صورة بالألوان الزيتية تمثل صلب المسيح، بدت فيها أمه مريم العذراء ومريم المجدلية متهالكتين عند قاعدة الصليب فى حزن ضاف .. وكان الرسم رديئاً والألوان كالحة، لونتها يد لاتفقه شيئاً فى فن التلوين .. وعلى جدران الغرفة، رسمت مراحل صلب المسيح بنفس اليد الجاهلة بالفن :. وبالاختصار كان المعبد بشعاً :. قبيح المظهر ..

وركعت الراهبتان إذ دخلتا، وتمتمتا بصلاة، ثم نهضتا فشرعت الأم الرئيسة تتحدث إلى كيتى من جديد: « كل شيء قابل للكسر لا بد من أن يتهشم فى طريقه إلى هنا، ولكن التمثال الذى أهداه إلينا أحد البارين بنا وصل من باريس دون أن يصاب بأنفه صدع .. ليس من شك فى أنها معجزة ! » .

وأومضت عينا وادينجتن الخبيثتان، ولكنه أمسك لسانه .. بينما استطردت الأم الرئيسة وهى ترسم علامة الصليب على صدرها :

« إن اللوحة التى على المذبح، ومراحل الصليب، من رسم إحدى راهباتنا :. الأخت (سانت أنسيلم) .. كانت فنانة حقاً .. ولكنها لسوء الحظ، راحت ضحية الوباء .. ألا ترينها رسوماً جميلة حقاً ؟ » .

وأقرت كيتى بذلك متلعثمة .. وكانت على المذبح حزم من الزهور الورقية، وكانت الشموع جميلة الزخرف :. واستطردت الأم الرئيسة: « إننا نحظى بشرف الاحتفاظ هنا بالسر المقدس .. » .

فهتفت كيتى وقد عز عليها الفهم: « نعم ؟ » .

— كان ذلك مبعث عزاء كبير لنا فى هذه الأوقات العصيبة .

وغادروا المعبد عائدين أدراجهم إلى قاعة الاستقبال التى كانوا فيها أولا :. وقالت الأم الرئيسة: « أتحبين أن ترى قبل انصرافك الأطفال الذين وفدوا هذا الصباح ؟ » :

فأجابت كيتى: « نعم، أرحب بذلك .. » .

فقادتهم الأم الرئيسة إلى حجرة صغيرة جداً فى الطرف الآخر من الردهة .. وعلى إحدى المناضد، كانت ثمة « حزمة » تتلوى تحت غطاء من قماش، رفعته الأخت فكشفت عن أربعة أطفال ضئيلين، عراة .. وكان لونهم شديد الاحمرار، وقد راحوا يحركون أذرعهم وسيقانهم حركات قلقلة، لطيفة، وقد انبسطت وجوههم الصينية الغريبة المنظر فى ابتسامات بريئة .. كانوا لا يكادون يبدون آدميين، وإنما هم حيوانات عجيبة من أصول مجهولة ! .. ومع ذلك فقد كان لمنظرهم أثر يحرك أوتار القلوب .. وتأملتهم الأم الرئيسة فى

ابتسامة مبتهجة ، وقالت : « يبدون فى صحة طيبة .. إنهم يجيئون أحياناً وهم على شفا الموت .. ونحن نعمدهم بمجرد وصولهم طبعاً .. » .

وقالت الأخت سان جوزيف : « سيسر بهم زوج السيدة .. ليخيل إلى أنه لا يضن بالساعات فى مداعبة الأطفال .. ويكفيهم – حين يبكون – أن يحملهم ويريحهم على ذراعيه ، كى ينطلقوا يضحكون فى طرب ! » .

ثم وجدت كيتى ووادينجتن نفسيهما لدى الباب .. وشكرت كيتى الأم الرئيسة – فى احترام – على ما تجشمت من عناء ، فانحنت الراهبة فى إجلال بدا جلياً أنه كان ينطوى على كبرياء وبشاشة ، وقالت :

– لقد كان ذلك مصدر سرور عظيم لى ، فأنت لا تدركين ما يبديه زوجك من كرم وعون لنا .. إنه هبة من السماء .. وكم أنا مبتهجة لمجيئك معه ، إذ لابد أن وجودك بما لديك من حب ، وما لك من .. من وجه جميل ، مبعث راحة عظيمة له إذا ما عاد إلى البيت .. يجب أن تعنى به ، ولا تدعيه يجهد نفسه فى العمل كثيراً .. ينبغى أن ترعيه من أجلنا جميعاً ..

وتضرج وجه كيتى ، ولم تدر ما ينبغى أن تقول .. وبسطت لها الأم الرئيسة يدها ، فأحست كيتى بينما كانت تمسك بها ، بتينك العينين الهادئتين ، المتأملتين ، تستقران عليها بنظرات كأنما كانت تباعد ما بينهما ، ولكنها فى الوقت نفسه كانت تنم عن فهم عميق ..

وأغلقت الأخت سان جوزيف الباب خلفهما ، فصعدت كيتى إلى محفتها ، وعادا خلال الطرقات الضيقة ، الملتوية .. وأبدى وادينجتن ملاحظة عابرة ، فلم تجبه كيتى .. والتفت إليها ، فإذا السجف مسدلة بحيث لم يستطع أن يراها ، ومن ثم سار صامتاً .. حتى إذا بلغا النهر ، هبطت من المحفة ، ولدهشته رأى عينيها تفيضان بالدمع .. فسألها وقد تقلص وجهه فى استياء : « ماذا جرى ؟ » .

فقالت وهى تحاول أن تبتسم : « لاشىء .. مجرد بلاهة ! » .

– ٤٤ –

● وإذ خلت كيتى إلى نفسها مرة أخرى ، فى قاعة الجلوس المتواضعة بدار المبشر المتوفى ، استلقت على المقعد الطويل المواجه للنافذة ، وأرسلت نظراتها الشاردة إلى المعبد القائم على الضفة الأخرى للنهر ، وقد عاد مع مهبط المساء يبدو جميلا ، سابحاً فى الهواء .. وشرعت تحاول أن تنسق المشاعر التى كانت تختلج فى فؤادها .. إنها ما كانت لتعتقد قط أن زيارتها هذه للدير تؤثر فى نفسها إلى هذا الحد ، فقد ذهبت بدافع من الفضول ، إذ لم يكن لديها ما تشغل به ، وكانت قد قضت أياماً كثيرة تتأمل المدينة القابعة فى أحضان سورها عبر النهر ، فودت لو تلقى نظرة على شوارعها المحفوفة بالغموض ..

ولكنها لم تكد تلج الدير ، حتى خالت أنها انتقلت إلى عالم آخر لا موقع له فى مكان أو زمان .. ولاحت لها تلك الغرف العارية ، والردهات البيضاء ، وكأنها – فى بساطتها ووجومها – تحوى روح

شيء عتيق ، خرافى .. وكان المعبد – بقبح منظره وجهامته وبشاعة ألوانه – يثير الشجون .. كان يمتاز بشيء يعز وجوده فى فخامة الكاتدرائيات الكبيرة وزجاجها الملون وصورها .. كان متواضعاً أضفى عليه الإيمان الذى زانه ، والشغف الذى رعاه ، جمــالا روحياً رقيقاً .. وكان النظام الذى يسير عليه العمل فى الدير وسط الوباء الماحق ، ينم عن طمأنينة فى وجه الخطر ، وعن إدراك عملى ، ينطوى فى الواقع على استخفاف وتحد للموت ، مما يؤثر فى النفس أعمق الأثر .. ورنت فى أذنى كيتى أصداء الأصوات المروعة التى سمعتها حين فتحت الأخت سان جوزيف باب قاعة المرضى لحظة واحدة ..

ولم تكن تتوقع اللهجة التى تكلمت بها الأخت – أولا – ثم الأم الرئيسة نفسها ، عن وولتر .. كانت نبرة صوت الرئيسة بالغة اللطف وهى تطريه .. ومن الغريب أن كيتى أحست بشيء من الزهو إذ سمعت طيب آرائهما فيه .. ولقد حدثها وادينجتن هو الآخر عن شيء من جهود وولتر ، ولكن الراهبتين لم تطريا جهوده فحسب – كما أن هذا اللون من الإطراء لم يكن جديداً ، فقد علمت فى هونج كونج أنه معتبر من المهرة الأكفاء – وإنما تكلمت الراهبتان أيضاً عن حجى تفكيره ، وعن حنانه .. والواقع أنه كان قادراً على أن يبدى الكثير من الحنان .. وكان يبدو فى خير أحواله إذا ما كنت مريضاً ، فإذا هو بالغ الذكاء ، تبعث لمسته الطمأنينة ، والتسرية ، والمسرة

فى النفس .. كان يبدو قادراً – بسحر غريب – على أن يجعل مجرد وجوده مسرياً عن آلامك ..

وكانت كيتى تدرك أنها لن يقدر لها قط أن ترى ثانية نظرة العطف التى كانت تنبعث من عينيه ، والتى ألفتها زمناً ما حتى غدت لا ترى فيها إلا ما يضجرها .. وقد أدركت الآن مدى ما أوتى زوجها من قدرة على أن يحب ، وقد بات يسكب هذه القدرة فى سخاء عجيب على أولئك المرضى التعساء الذين لم يكن لهم من يرعاهم سواه ! .. ولم تحس كيتى بغيرة ، وإنما داخلها شعور بالفراغ ، كما لو كانت قد حرمت فجأة من سند ألفت أن تركن إليه ، فإذا بها تترنح فى هذا الاتجاه وذاك وكأنها ترزح تحت عبء ثقيل !

ولم تعد تشعر إلا بالازدراء لنفسها لأنها كانت تكن يوماً ازدراء لوولتر ! .. لابد أنه عرف أنها كانت تستصغره ، وتقبل تقديرها فى مرارة .. كانت حمقاء ، وكان يعرف ذلك ، ولكنه لم يكترث له لأنه كان يحبها .. وأحست بأنها لم تكن تكرهه أو تنفر منه .. إنما كان شعورها نحوه مزيجاً من الخوف والحيرة ! .. لم يكن فى وسعها إلا أن تقر بأنه كان ذا صفات رائعة ، بل لقد كانت تخال أحياناً أن فيه عظمة غريبة ، غير جذابة .. فكان من الغريب – إزاء هذا كله – أن لاتحبه ، وأن تحب رجلا آخر أصبحت تفاهته وخسته واضحتين لها .. فإنها بعد التفكير المتواصل خلال الأيام الطويلة ، استطاعت أن تحدد بالدقة قيمة تشارلى تاونسند فى نظرها : كان تافهاً رخيصاً ،

وكانت خصاله من الدرجة الثانية .. وتمنت لو استطاعت أن تنتزع من قلبها الحب الذى كان لا يزال متغلغلا فيه نحوه .. وأن لا تفكر فيه !

كذلك كان وادينجتن يرفع من قدر وولتر فى تفكيره .. هى وحدها التى كانت عمياء عن جدارته .. لماذا ؟ .. لأنه أحبها دون أن تحبه .. ترى أى شىء فى القلب الإنسانى يجعلك تزدرى إنساناً لأنه أحبك ؟ .. ولكن وادينجتن اعترف بأنه لا يميل إلى وولتر .. وهكذا كان الرجال .. بينما كان من السهل أن ترى أن الراهبتين كانتا تكنان له شعوراً أقرب ما يكون إلى الحب .. وكذلك كان هو حفياً بالنساء . كنت تشعر على الرغم من خجله أن نفسه تنطوى على لطف بالغ سخى !

— ٤٥ —

● وكان للراهبتين — فوق كل شىء — أثر عميق فى نفس كيتى .. كانت الأخت سان جوزيف ، بوجهها المرح ، ووجنتيها المتوردتين كالتفاح ، واحدة من الثلة الصغيرة التى جاءت إلى الصين مع الأم الرئيسة منذ عشر سنوات ، فرأت زميلاتها يمتن واحدة إثر الأخرى بالوباء ، والحرمان ، والحنين إلى الوطن .. ومع ذلك فقد بقيت مبتهجة ، سعيدة .. فما هذا الذى كان يبث فيها تلك الروح الساذجة الطروب ؟

والأم الرئيسة ، ما أروع هيبتها !.. وأحست كيتى بنفسها تقف — فى الخيال — أمامها . فأحست من جديد بضآلة واستحياء .. كانت رغم

بساطتها ونقائها ذات كبرياء فطرية توحى بالمهابة والوقار . فلا تستطيع أن تتصور أن فى وسع أى امرىء أن يعاملها بغير احترام .. ولقد أظهرت الأخت سان جوزيف ، بطريقتها فى الوقوف أمامها ، وبكل إشارة بسيطة ، وبلهجتها فى الإجابة ، مدى إذعانها وطاعتها لها .. كما أظهر وادينجتن بلهجته أنه — على سلاطته واستهتاره — لم يكن فى كامل حريته أمامها .. وخيل لكيتى أنه لم تكن ثمة ضرورة لإنبائها بأن الأم الرئيسة تنتمى إلى إحدى الأسرات العظيمة فى فرنسا ، فقد كان فى هيئتها ما يوحى بعراقة أصلها ، وكان لها نفوذ الشخص الذى لم يعرف قط أن ثمة احتمالا فى أن لا يطاع .. كان لها جلال سيدة عظيمة ، وتواضع قديسة .. وكان فى وجهها القوى المعالم ، المليح القسمات ، الذى ترك عليه الزمن آثاره ، عبوس لا يخلو من حمية العاطفة .. ومع ذلك فقد كان لها من الدعة واللطف ما جعل أولئك الأطفال الصغار يتعلقون بها فى غير خوف ، مطمئنين إلى عواطفها العميقة .. ولقد أشرقت على وجهها حين نظرت إلى الأطفال الأربعة الحديثى المولد ، ابتسامة عذبة عميقة ، كأنها شعاع الشمس يشرق على مرج برى فى معزل عن العالم .. ولقد ترك ما قالته الأخت سان جوزيف عفواً عن وولتر ، أثراً غريباً فى نفس كيتى .. كانت تدرك أنه يتوق فى رغبة مستيئسة إلى أن يكون له طفل ، ولكنها لم تظن قط — لصمته ووجومه — أن فى وسعه أن يبدى لطفل رقة ، ومداعبة ، وحناناً ، دون أن يعانى فى سبيل ذلك مشقة وحيرة .. فإن معظم الرجال يعانون

حرجاً وحيرة إزاء الأطفال .. ومن ثم كان مسلكه وتلطفه مع أيتام الدير مفاجأة تامة لها !

وإلى جانب كل هذه الانفعالات العاطفية التى خرجت بها من الزيارة ، كان ثمة ظل يبدو لها فى دأب ووضوح – كخط قاتم يحدد أطراف سحابة فضية – فيمضها ويحيرها .. فلقد أحست فى المرح المحتشم الذى أبدته الأخت سان جوزيف ، ثم فى الحفاوة الجميلة التى أبدتها الأم الرئيسة ، ترفعاً ضايقها .. لقد أظهرتا لها الود ، بل والحفاوة .. ولكنهما فى الوقت ذاته كانتا تمسكان عنها شيئاً لم تدر كنهه ، مما جعلها تحس بأنها لم تكن بالنسبة لهما أكثر من غريبة عابرة .. كان ثمة حاجز بينها وبينهما .. كانتا تتكلمان لغة تخالف لغتها ، لا لغة اللسان فحسب ، بل ولغة القلب .. وعند ما أغلق الباب خلفها ، خيل إليها أنهما قد طرحتاها عن ذهنيهما نهائياً ، وعادتا دون ما إرجاء إلى العمل الذى أهملتاه حيناً ، وكأنما لم يكن لها فى نفسيهما أى وجود ! .. وأحست كأنها أقصيت لا عن الدير الصغير الفقير وحده ، بل عن بستان من نوع غامض .. بستان للأرواح ، كانت تهفو إليه بجماع نفسها .. فشعرت فجأة بالوحدة كما لم تشعر بها من قبل .. وكان هذا سر بكائها !

وطوحت برأسها إلى الخلف فى إعياء وأسى ، وتنهدت قائلة : « أواه ! .. ما أتفهنى وأحقرنى ! » .

– ٤٦ –

● عاد وولتر إلى الدار فى ذلك المساء مبكراً بعض الوقت عما اعتاد ،

فإذا الظلام قد أوشك أن يدلهم ، وكيتى مستلقية فى المقعد الطويل بجانب النافذة المفتوحة .. فساءلها : « ألا تريدين مصباحاً ؟ » .

– سيحضرونه إذا ما أعد العشاء ..

وكان يتحدث إليها دائماً فى لهجة جوفاء عن توافه الأمور ، وكأنهما مجرد شخصين لا يربطهما سوى تعارف سطحى .. ولم يك فى مسلكه أى شىء يوحى بأنه يكن لها فى قلبه شراً .. ولكنه قط لم يكن ينظر إلى عينيها ، أو يبتسم .. وكان مفرطاً فى الأدب إلى درجة تثقل على النفس !

وسألته : « ماذا ترانا نفعل إذا ما اجتزنا الوباء بسلام ؟ » .. فتريث لحظة قبل أن يجيب ، ولم تكن ترى وجهه ، ثم قال : « لم أفكر فى ذلك .. » .

وقد كانت كيتى فيما مضى تنطق بكل ما يخطر لها دون ما اكتراث أوحرج ، إذ لم تكن تعبأ بأن تفكر قبل أن تتكلم .. أما الآن فقد أصبحت تخشاه ، وتحس بشفتيها ترتجفان ، وبقلبها يخفق فى عنف مؤلم ..

وقالت : « لقد ذهبت عصر اليوم إلى الدير » .

– سمعت بهذا ..

وحملت نفسها على أن تمضى فى الحديث رغم أنها كانت تلقى عناء فى تخير ألفاظها : « هل كنت تريدنى حقاً أن أموت حين أحضرتنى إلى هنا ؟ » .

– لو كنت مكانك ياكيتى لتركت هذا الموضوع جانباً ، فلست أرى خيراً فى الكلام فيما يحسن بنا أن ننساه !

– ولكنك لا تنسى .. ولا أنا .. لقد فكرت كثيراً جداً مذ جئت إلى هنا .. أو لا تنصت لما لدى من قول ؟

– بكل تأكيد .

– لقد أسأت معاملتك إلى أبلغ حد .. كنت غير وفية لك ..

وسمر فى مكانه .. وبدا جموده مروعاً ، بينما مضت هى تقول فى سرعة ، وبصوت كان من العسير أن تعرف فيه صوتها الطبيعى : « لست أدرى ما إذا كنت ستفقه ما أعنى .. إن هذا النوع من الأمور لايعود ذا قيمة للمرأة إذا ما انقضى .. وأعتقد أن النساء لم يدركن قط حقيقة المسلك الذى يتخذه الرجال نحوهن .. وإنك لتعرف أى شخص كان تشارلى ، وما الذى يستطيع أن يفعله .. أجل ، كنت محقاً ، فهو شخص تافه .. وأعتقد أننى ما كنت لأغتر به لو لم أكن تافهة مثله .. لست أسألك أن تغفر لى .. لا ولا أسألك أن تحبنى كما كنت تحبنى من قبل .. ولكن ، ألا نستطيع أن نكون صديقين ؟ .. والناس من حولنا يموتون بالآلاف .. والراهبات فى ديرهن .. » .

فقاطعها قائلا : « وما شأنهن بهذا ؟ » .

– لست أملك أن أعبر التعبير الواضح .. وإنما داخلنى شعور غريب طاغ حين ذهبت اليوم إلى الدير .. يبدو لى أن أمر هؤلاء الراهبات أعمق معنى وأثراً مما يلوح .. إن حياتهن فظيعة ، وتضحيتهن

رائعة .. ومن ثم لا أملك إلا أن أحس أن من السخف والخطل – إن كنت تفهم ما أعنى – أن تثقل على نفسك بالأسى والهم لمجرد أن امرأة رعناء لم تكن وفية لك .. إننى أتفه وأحقر من أن تفكر فى لحظة .. !

ولم يجب .. ولكنه أيضاً لم يتحرك .. وإنما لاح كأنما كان يترقب منها المضى فى الحديث .. فقالت : « لقد حدثنى مستر وادينجتن والراهبتـان بكثير من الأشيـاء الرائعـة عنك .. وإنى لفخـورة بك يا وولتر ! » .

– لم تكونى كذلك من قبل .. بل كنت تزدريننى .. ألست كذلك حتى الآن ؟

– ألا تعرف أننى خائفة منك ؟

ومرة أخرى لاذ بالصمت .. ثم قال أخيراً : « لست أفهمك .. لست أدرى ماذا تبغين ؟ » .

– لست أبغى لنفسى شيئاً .. إنمـا أريدك أن تسـتريح قليلا من شقائك ..

وأحست به يجمد فى مكانه .. وكان صوته فاتراً أجوف حين أجاب قائلا : « أنت مخطئة إذ تظننى تعساً . إن لدى من الأعمال أكثر مما يسمح لى بأن أفكر فيك كثيراً » .

– ترى هل تسمح لى الراهبات بأن أذهب فأعمل فى الدير .. إنهن يعانين كثيراً من قلة عددهن ، فكم أكون شاكرة لهن أن استطعن أن يفدن منى ..

— إنه ليس بالعمل السهل ، ولا السار .. وإنى لأشك فى أنه يلذ لك ..

— أأنت تحتقرنى إلى هذا الحد يا وولتر ؟

فتردد .. ثم قال فى صوت غريب : « كلا .. بل أحتقر نفسى ! ».

— ٤٧ —

● كانا قد فرغا من عشائهما ، فجلس وولتر كعادته بجانب المصباح يقرأ ، فقد اعتاد أن ينصرف إلى القراءة فى كل مساء إلى أن تأوى كيتى إلى فراشها فيقصد إلى معمل أعده فى غرفة خالية بالدار ، حيث يظل يعمل حتى ساعة متأخرة من الليل .. فلقد كان مقلا فى نومه ، وكان فى شغل بتجارب لاعلم لها بها — فما كان يحدثها بشىء عن عمله ، وحتى فى الأيام الخالية كان يلزم الصمت فى هذا الصدد ، فما كان بفطرته سخياً فى الكلام ..

واستغرقت كيتى فى التفكير فيما قاله منذ هنيهة .. إن المناقشة التى دارت بينهما لم تفض إلى شىء .. ولم تكن هى إلا على دراية قليلة به ، فلم تطمئن إلى ما قال : هل كان حقاً أم غير حق ! .. أمن الممكن أنها لم يعد لها وجود لديه ، بينما أصبح له كيان رهيب فى حياتها ؟ .. ولعل حديثها أيضاً ، الذى كان يلذ له زمناً ما — لأنه كان يحبها — لم يعد سوى مبعث ضجر له الآن !

.. وحطم ذلك قلبها !

وتطلعت إليه .. كانت أشعة ضوء المصباح تسقط على ملامحه

فى توزيع منتظم ، يبدى دقتها وتناسقها ، وصرامتها .. بل يبديها متجهمة ، كالحة .. وكان سكونه الشامل — فيما عدا حركة عينيه وهى تجوس خلال صفحات الكتاب — يبعث فى نفسها ذعراً غامضاً .. منذا الذى كان يظن أن هذا الوجه الجامد يمكن أن ينصهر بحرارة الوجد فيعبر عن الحنان ؟ .. كانت تعرف وجده ، وكان يثير فى نفسها رجفة اشمئزاز .. كان من الغريب أنها وجدت من المستحيل عليها أن تحبه — رغم وسامته ، وأمانته ، وشهامته ، ومواهبه — وأن من بواعث الارتياح بالنسبة لها أنها لم تعد بحاجة إلى تقبل عناقه وغرامه !

وكان يأبى أن يجيب إذا ما سألته عما إذا كان قد رغب حقاً فى قتلها حين اصطحبها إلى هذا المكان ! .. وكان الغموض الذى يكتنف هذا الموضوع يثير هواجسها ويفزعها .. كان وولتر بطبعه رحيماً إلى درجة غير عادية ، فلم يكن من الميسور أن تصدق أن لديه مثل هذه النية الشيطانية .. ولابد أنه لم يوح بها إليها ألا ليخيفها ، وإلا ليكشف حقيقة تشارلى ويعبث به — كما يفعل بابتسامته الهازئة الساخرة — أو لعل إصراره على المضى فى خطته كان نتيجة عناد وخوف من أن يبدو بمظهر الأبله .. !

أجل ، لقد قال إنه يزدرى نفسه ، فماذا كان يعنى بذلك ؟ .. وعادت كيتى تتأمل وجهه الهادئ الجامد .. لم يكن يشعر لها بوجود ، وكأنها ليست فى الحجرة ! .. وسألته وهى لا تكاد تدرى ما تقول ، وكأنما هى تستأنف حديث الصباح : « لم تحتقر نفسك ؟ »

فوضع الكتاب جانباً ، وتأملها فى تفكير ، وقد لاح أنه كان يجمع شتات أفكاره من أبعاد سحيقة .. ثم قال : « لأننى أحببتك » .

فأشاحت بوجهها وقد تضرج ، ولم تقو على تحمل نظرته الباردة ، الثابتة ، إذ أدركت ما كان يعنى .. ومرت برهة قبل أن تجيبه قائلة : « أعتقد أنك تغبننى .. ليس من العدل أن تلومنى لأننى كنت غبية ، رعناء ، مستهترة .. فلقــد نشأت على ذلك .: وكل من أعرف من الفتيات كذلك .. إنك كمن يؤنب شخصاً لأنه لم يؤت أذناً تستمرئ الموسيقى ، فهو يسأم الاستماع إلى سيمفونية تعزف .. أفمن الإنصاف أن تلومنى لأنك خلعت على صفات لم أوهبها قط ؟ .. إننى لم أغرر بك أبداً باصطناع ما لم أكنه .. كنت مجرد فتاة جميلة ومرحة .. إنك إذا ذهبت إلى كوخ من أكواخ الملاهى فى أحد المهرجانات ، لا تطلب هناك قلادة لؤلؤية ، أوسترة حريرية ، وإنما تنشد فيه طبلا و « بالوناً » لتلعب به .. » .

– ولكنى لا ألومك ..

كان صوته مثقلا بالضجر ، وبدأت تشعر بشىء من نفاد الصبر إزاءه .. لماذا يأبى أن يصدق ما تجلى لها فجأة ، من أن مسألتها كانت تافهة إذا قيست بذعر الموت الذى كانا يعيشان فى ظلاله ، وبجلال الجمال الذى قبست منه نظرة عاجلة فى ذلك اليوم ؟ .. أية أهمية فى الواقع لإقدام امرأة طائشة على الخيانة الزوجية ، ولماذا يولى زوجها شيئاً من تفكيره لهذه المسألة وهو يواجه ما هو أسمى وأجل ؟ .. كان

من العجيب أن يكون ولتر – على مهارته وذكائه – قليل الخبرة بتقدير قيم المسائل بعضها بالنسبة لبعض .. لقد ألبس « دمية » أفخر الثياب ، وأقامها فى معبد وراح يعبدها ، ثم اكتشف أنها كانت محشوة بنشارة الخشب ! .. أفلهذا يأبى أن يصفح عن نفسه وعنها ؟ .. كانت نفسه ممزقة ، فإنه قد اتخذ من الأحلام واقعاً ، فلما تكشفت له الحقيقة ، ظن أن الحقيقة ذاتها قد تحطمت .. إنه لايستطيع أن يصفح عنها ، لأنه لايقوى على أن يصفح عن نفسه !

وظنت أنها سمعت زفرة تند عنه ، فرمته بنظرة سريعة .. وخطرت لها فجأة فكرة بهرت أنفاسها ، حتى لقد أوشكت أن تطلق صرخة على الرغم منها .. أكان ما يعانيه هو ذاك الذى يسمونه .. تحطم القلب وانكساره ؟

– ٤٨ –

● ظلت كيتى طيلة اليوم التالى تفكر فى الدير .. وفى ساعة مبكرة من صباح اليوم الذى يليه ، استصحبت الوصيفة معها لتستأجر لها محفة ، ثم عبرت بها النهر بمجرد أن خرج ولتر .. وكان النهار فى أوله ، والصينيون يحتشدون فى مركب العبور (المعدية) ، بعضهم فى زى الفلاحين القطنى الأزرق ، وآخرون فى ثياب سوداء فضفاضة تنم عن علو المكانة ، وكلهم يبدون كالموتى محمولين على الماء إلى أرض الظلال والأشباح .: وعند ما هبطوا إلى البر ، وقفوا برهة عند المرساة حائرين وكأنهم لايعرفون تماماً إلى أين يذهبون ، قبل أن يتفرقوا ..



نهض متسول كان يستلقى على الأرض ، وسأل كيتى شيئاً من الإحسان ..

ثم راحوا يهيمون على غير هدى على سفح التل ، كل اثنين أو ثلاثة مترافقين ..

وكانت شوارع المدينة فى تلك الساعة خاوية ، فبدت المدينة أقرب منها فى أى وقت آخر إلى أن تكون « مدينة للموتى » ! .. وكان المارة القلائل يبدون شاردين ، واجمين ، تكاد تحسبهم أشباحاً .. وكانت السماء خالية من السحب ، وشمس البكور ترسل ضوءاً بهياً ، بحيث كان من العسير أن يتصور أحد فى ذلك الصباح البهيج ، المنعش ، الباسم ، أن المدينة تستلقى تحت قبضة الوباء لاهثة كرجل تنتزع يد من بين جنبيه ! .. لم يكن أحد ليصدق أن الطبيعة – ذات السماء الصافية كقلب الطفل – تظهر هكذا قلة الاكتراث بالناس وهم يتلوون خوفاً ، ويموتون رعباً ! .. وعندما أنزلت محفة كيتى ومحفة الوصيفة أمام باب البيت ، نهض متسول كان يستلقى على الأرض ، وسأل كيتى شيئاً من الإحسان .. كان ملتفاً فى أسمال شاحبة شوهاء ، وكأنه انتشلها من كومة مهلهلة .. فكنت ترى خلال ثغراتها لحمه جافاً ، خشناً ، أسمر كجلد الماعز ! .. وكان ، بساقيه المخلخلتين ، ورأسه الذى يعلوه شعر جاف مشعث اختلط فيه البياض بالسواد ، وبما كان له من وجنتين غائرتين وعينين جاحظتين .. يبدو كالمخبول .. فتحولت كيتى عنه فى رعب فظيع ، وسأله حملة المحفتين فى أصوات خشنة أن ينصرف ، ولكنه كان ملحاحاً ، فأعطته كيتى بعض النقود وهى ترتجف ، لتصرفه عنها ..

وفتح الباب ، فقالت الوصيفة للصينية التى فتحته إن كيتى ترجو أن ترى الأم الرئيسة .. فاقتيدت فوراً إلى قاعة الاستقبال ذات المقاعد الخشبية ، التى لم يبد أن نافذتها فتحت يوماً .. وهناك جلست أمداً طويلا ، حتى بدأت تشعر بأن رجاءها لم يبلغ للأم الرئيسة ، ولكنها ما لبثت أن رأتها تقبل نحوها قائلة : « أرجو المعذرة إذ استبقيتك فى الانتظار طويلا .. فما كنت أرتقب قدومك ، وكنت مشغولة » .

– اغفرى لى أنى أزعجتك ، إذ أخشى أن أكون قد جئت فى وقت غير مناسب ..

فرمقتها الأم الرئيسة بابتسامة امتزج فيها الوقار باللطف وسألتها أن تجلس .. بيد أن كيتى لاحظت أن عينيها كانتا متورمتين ، مما نم عن أنها كانت تبكى !.. وأجفلت كيتى ، إذ أوحى لها مظهر الأم الرئيسة بأنها كانت امرأة تهزها المتاعب الدنيوية .. فقالت متلعثمة : « أخشى أن يكون قد جرى بعض ما يشغلك ، فهل تحبين أن أنصرف وأن أعود فى وقت آخر ؟ » .

– لا .. لا .. نبئينى بما أستطيع أن أفعله لك .. كل ما هنالك أن .. أن واحدة من راهباتنا ماتت ليلة أمس ..

وفقد صوتها رصانته ، واغرورقت عيناها بالدموع ، وهى تستطرد قائلة : « من الضعف أن أحزن ، لأننى أعرف أن روحها الطيبة الساذجة قد انطلقت فوراً إلى السماء .. كانت قديسة .. ولكن

من العسير دائماً أن يغالب المرء ضعفه .. وأخشى أن لا أكون دائماً عاقلة رزينة » .

قالت كيتى : « إننى جد آسفة .. آسفة كل الأسف » ..

وأثار عطفها غصة باكية فى حلق الأم الرئيسة وهى تنطلق قائلة : « كانت من أخواتنا اللاتى جئن معى من فرنسا منذ عشر سنوات .. لم يبق منا الآن غير ثلاث .. وإنى لأذكر أننا وقفنا متجمعات فى طرف السفينة ، وفيما كانت تبتعد بنا مغادرة مرفأ مرسيليا ، رأينا تمثال « سانت مارى لاجراس » الذهبى ، فأخذنا نصلى معاً .. كانت أعظم أمانى مذ دخلت حظيرة الرهبنة أن يتاح لى أن آتى إلى الصين ، ولكننى حين رأيت الأرض تتباعد عنا ، لم أقو على أن أملك نفسى من البكاء .. وكنت رئيستهن ، فلم يكن ما فعلت بالمثل الطيب لبناتى .. وإذ ذاك تناولت الأخت سان فرانسيس كسافيير – وهو اسم الأخت التى توفيت ليلة أمس – يدى ، وأهابت بى أن لا أحزن ، لأن ثمة فرنسا أينما كنا .. وثمة وجه الله ! » .

وكان الحزن الذى اضطرتها إليه الطبيعة البشرية ، والجهد الذى كانت تبذله لتكبح الدموع التى كان عقلها وإيمانها يستنكرانها منها ، يعصفان بوجهها الصارم المليح .. وأشاحت كيتى عنها فى لباقة إذ خيل إليها أن ليس من اللائق أن تسترق النظر إلى الصراع الناشب فى نفس الراهبة الوقور .. وما عتمت هذه أن استطردت : « ولقد كنت أحاول الكتابة إلى أبيها .. كانت مثلى الابنة الوحيدة

التى أنجبتها أمها .. وكان أهلها من صيادى السمك فى مقاطعة « بريتانى » ، ولسوف يكون نبأ موتها قاسياً عليهم .. أواه ، ترى متى ينقضى هذا الوباء الفظيع ؟ .. لقد أصاب فى هذا الصباح اثنتين من بناتنا ، ولن تنقذهمـا إلا معجزة ، إذ ليس لدى الصينيين أية مقاومة للداء .. وإن فجيعتنا فى الأخت سان فرانسيس لقاسية .. فإن لدينا أعمالا جمة ، فى حين أننـا لم نعـد غير قلة : ولدينا فى أديرتنـا الأخرى بالصين أخوات تواقات للحضور .. كل راهبات مذهبنـا فيما أعتقد على استعداد لأن يبذلن كل ما يملكن — ولو أنهن لا يملكن شيئاً — كى يأتين إلى هنا .. ولكن المجىء موت مؤكد تقريباً .. ولست راغبة فى تضحية راهبات أخريات ، طالمـا كان فى وسعنا أن نقـوم بالعمل بمـا أوتينا من راهبات .. » .

فقالت كيتى : « إن هذا يشجعنى يا أماه .. لقد كنت أخشى أن أكون جئت فى أسوأ لحظة .. فمنذ سمعتك تقولين فى ذلك اليـوم الذى زرتكن فيه ، بأن لديكن من العمل ما يفوق طاقة الأخوات ، أخذت أسائل نفسى عما إذا كنت تسمحين لى بأن آتى وأساعدهن .. لا يهمنى نوع العمـل ، طالمـا كنت ذات نفع .. بل إننى أكون شاكرة لو سمحت لى ولو بمسح الأرض .. » .

وابتسمت الأم الرئيسة فى عجب ، فذهلت كيتى لمرونة طباعها التى مكنتهـا من أن تتحول بسهولة من حال إلى حال .. وقالت الأم الرئيسة : « لا حاجـة بك إلى مسـح الأرض ، فإن اليتيمات يقمن

بذلك » .. وأمسكت لتتأمل كيتى فى إشـفاق ، ثم اسـتطرت : « ألا ترين يا طفلتى العزيزة أنك بذلت ما فيه الكفاية إذ جئت مع زوجك إلى هنا ؟ .. إن هذا فوق ما تجرؤ كثيرات من الزوجات على عمـله ، ثم .. أى عمل لك أهم وأفضـل من أن توفرى له الطمأنينة والراحة إذا ما عاد إليك بعد عمله اليومى ؟ .. صدقينى إذا قلت إنه بحاجة إلى كل حبك وكل اهتمامك .. » .

ولم تقو كيتى على مقابلة نظراتها التى استقرت عليها فى إمعان ، وفى ترفق أحست فيه بسخرية لاذعة .. فقالت : « ليس لدى ما أفعله من الصباح حتى المساء ، ولست أحتمل أن أرانى عاطلة .. فى حين أشـعر بأن عندكن الكثير ممـا ينبغى أن يعمل .. ولست أحب أن أزعجكن ، فإنى أدرك أن لا حق لى فى أن أستأثر بشىء من كرمك أو وقتك ، ولكنى أعنى ما قلت ، ولو سمحت لى بأن أكون عوناً لكن ، لكان هذا براً منك بى .. » .

— إنك لا تبدين قوية البنية ، وقد خيل إلى يوم أتحت لنا السرور بزيارتك أول أمس أنك كنت شديدة الشحوب .. حتى لقـد خطر للأخت سان جوزيف أنك ربمـا كنت حاملا ..

فصـاحت كيتى وقد تصـاعد الدم إلى وجههـا حتى جـذور شعرها : « لا .. لا » .

فأطلقت الأم الرئيسة ضحكة خافتة كرنين الجرس الفضى

وقالت : « ليس فى هذا ما يخجلك يا صغيرتى العزيزة ، وليس هـذا الافتراض بالأمر المستبعد .. منذ متى تزوجت ؟ » .

– إننى شاحبة اللون لأننى بطبيعتى شاحبة .. ولكننى موفورة القوة ، وأعدك بأننى لن أشفق من عمل ..

وكانت الأم الرئيسة قد استردت سيطرتها على نفسها ، واستعادت – دون أن تفطن – مظهر السيطرة الذى كان يطبعها عادة بطابعه ، وراحت تتفرس فى كيتى لتسبر غورها ، حتى شعرت هذه بأعصابها تضطرب .. وسألتها الرئيسة :

– أوتحسنين التكلم بالصينية ؟

– فأجابت كيتى : « يؤسفنى أن أجيب بالنفى » .

– آه .. هذا شىء يؤسف له ، إذ كنت أحب أن أعهـد إليك بالفتيات الكبيرات .. إن الإشراف عليهن متعذر فى الآونة الحاضرة ، وأخشى أن يصبحن .. بماذا يصفونهن ؟.. أن يصبحن متمردات جامحات !

– ألا أستطيع أن أساعد الأخوات فى التمريض ؟.. إننى لا أخشى الكوليرا إطلاقاً .. وأستطيع أن أعنى بالفتيات أو الجنود ..

فرمقتها الأم الرئيسة بنظرة متأملة ، وقد انجاب عن وجههـا الابتسام ، ثم هزت رأسها وقالت : « إنك لا تعرفين الكوليرا على حقيقتها .. إنها بشعة .. والجنود هم الذين يقومون بالعمل فى قـاعة المرضى ، ولسنا فى حاجة إلا إلى أخت تشرف عليهم .. أما فيما يتعلق

بالفتيات ، فـ .. لا ، لا ، إننى متأكدة من أن زوجك لا يرغب فى ذلك .. إنه منظر مفزع ، رهيب » .

– إننى لن ألبث أن آلفه .

– لا .. هـذا أمر ينبغى أن يستبعد .. إنه عملنا الذى نحب أن نستأثر به .. وليس من داع لأن تمارسيه ..

– إنك تجعليننى أشعر بأننى عديمة النفع والعون .. لا أكاد أصدق أن ثمة شيئاً لا أستطيع أن أعمله ..

– هل تحدثت إلى زوجك عن رغبتك ؟

– أجـل ..

فنظرت إليها الأم الرئيسة وكأنها تنفذ إلى شغاف قلبها ، ولكنها ابتسمت إذ رأت نظرة كيتى المليئة باللهفة والرجاء ، فسألتهـا : « إنك بروتستانتية المذهب بالطبع ؟ » .

– نعم ..

– هـذا لا يهم .. لقد كان الدكتور واطسن – المبشر الـذى توفى – بروتستانتياً ، فلم يؤثر هذا فى تعاوننا .. بل كان بالغ الكرم معنا .. وإنا لمدينات له بأعظم الفضل ..

وحوم على وجه كيتى طيف ابتسامة ، ولكنها لم تقل شيئاً .. وبدا على الأم الرئيسة أنها تفكر ، ثم نهضت قائمة وهى تقول : « هذا جميل منك .. أعتقـد أننى أسـتطيع أن أجـد لك عملا .. فالواقع أن

حرماننا من الأخت سان فرانسيس يجعل من المستحيل علينا أن نقوم بكل العمل .. متى تكونين متأهبة للبدء ؟ » .

ــ الآن ..

ــ على بركة الله .. يسعدنى أن أسمع هذا منك ..

ــ أعدك بأن أبذل قصارى جهدى .. وإنى لعظيمة العرفان بفضلك إذ تتيحين لى هذه الفرصة ..

وفتحت الأم الرئيسة باب قاعة الاستقبال ، ولكنها ترددت وهى تهم بالخروج ، وعادت ترمق كيتى بنظرة طويلة ، متفحصة ، دارسة ، ثم وضعت راحتها فى رفق على ذراعها وقالت : « أنت تدركين يا طفلتى العزيزة أن الإنسان لا يستطيع أن يجد الطمأنينة فى العمل أو فى اللهو .. فى الدنيا أو فى الدير .. إذ لا وجود للطمأنينة إلا فى النفس .. » .

فأجفلت كيتى قليلا ، ولكن الأم الرئيسة انسابت خارجة فى لطف ..

ــ ٤٩ ــ

● وجدت كيتى العمل منعشاً لروحها ، فكانت تذهب إلى الدير مبكرة عقب شروق الشمس ، فلا تعود إلى الدار إلا والشمس الجانحة للغروب تفيض على النهر الضيق والقوارب المزدحمة فيه ذهباً من أشعتها .. وقد عهدت الأم الرئيسة إليها بالأطفال الصغار ، وكانت أم كيتى قد حملت معها من ليفربول ــ مسقط رأسها ــ حين نزحت

إلى لندن ، دراية عملية بالتدبير المنزلى ، فقبست عنها كيتى ــ رغم روحها التزقة ــ بعض مواهب كانت لا تذكرها إلا ساخرة .. فكانت تحسن الطهو وتجيد الحياكة .. وعندما تكشفت فيها هذه الموهبة الأخيرة ، عهدا إليها بمراقبة الفتيات الصغيرات وهن يتدربن على مبادئ الحياكة . وكن على إلمام بشىء من الفرنسية ، بينما راحت هى تلتقط منهن فى كل يوم بضع كلمات من الصينية ، ومن ثم لم يكن من العسير عليها أن تمضى فى مهمتها .. وكانت أحياناً أخرى تراقب صغار الأطفال حتى لا يصابوا بضر ، فكانت تغير لهم ملابسهم ، وتعنى بأن يأخذوا قسطهم من الراحة حين يحتاجون إليها .. وكان ثمة عدد كبير من الأطفال الرضع ، ولكن هؤلاء كانوا فى رعاية المربيات الصينيات ، ولم يكن عليها سوى أن تراقب هؤلاء .. وهكذا لم يكن بين المهام الموكولة إليها شىء كبير الأهمية ، فكانت ترجو لو أنها تولت عملا أكثر تطلباً للجهد ، ولكن الأم الرئيسة لم تكن تعير توسلاتها اهتماماً ، وكانت كيتى تهابها فلا تمضى فى الإلحاح ..

وكانت تضطر فى الأيام القلائل الأخرى إلى بعض الجهد لتغالب الاشمئزاز الذى كان ينتابها من تلك البنات الصغيرات بزيهن الكئيب ، وشعرهن الأسود المتيبس ، ووجوههن المستديرة الصفراء ، وعيونهن السوداء المنحرفة ، المحملقة .. ولكنها كانت تذكر الابتسامة الناعمة التى أضاءت ملامح الأم الرئيسة بجمال جذاب ، عندما وقفت ــ فى أول زيارة أدتها كيتى للدير ــ تحيط بها هذه المخلوقات الصغيرة

القبيحة الهينة .. فلا تلبث أن تقاوم فى نفسها كل استسلام لنزوتها ، وتبادر فتحتضن هذا أو ذاك من المخلوقات الضئيلة ، تسرى عنه بكاءه إثر سقطة ، أو ألمه من سن تريد أن تشق اللثة وتظهر .. وعندما تبينت كيتى أن بضع كلمات ناعمة — وإن كانت بلغة لا يفقهها الطفل — والتفافة من ساعديها حوله ، ونعومة خدها إذ تلصق به وجهه الأصفر الباكى ، تكفى لأن تسرى عنه وتسليه ، بدأت تفقد شعور الاستغراب والنفور .. وأخذ الأطفال يلجأون إليها فى متاعبهم ، دون ما خوف ، فكان اكتسابها لثقتهم يبعث فى نفسها سعادة لا قبل لها بها .. وكذلك كانت الحال بالنسبة للفتيات اليافعات ، اللائى كانت تعلمهن الحياكة .. كانت تبهج قلبها ابتساماتهن المشرقة ، والسرور الذى يداخلهن إذا ما أولتهن كلمة إطراء .. وأحست بأنهن يحببنها ، فأحبتهن بدورها ، وقد خامرها شعور بالرضى والزهو ..

ولكن طفلة منهم لم تقو كيتى على أن تحمل نفسها على التلطف معها .. كانت بنتاً فى السادسة من عمرها ، معتوهة ، ذات رأس متضخم بمرض الاستسقاء الدماغى ، يتأرجح على جسد صغير ضامر ، وذات عينين ملؤهما الغباء ، وفم يتحلب منه اللعاب .. كانت تثير التقزز والاشمئزاز . وكانت تتكلم بصوت أجش ، وكلمات غير واضحة .. ولسبب ما ، راحت الطفلة تتعلق بكيتى فى تشبث غبى ، تتبعها أينما سارت من قسم بالغرفة إلى آخر ، وتتعلق بذيل ثوبها ،

وتمسح وجهها فى ركبتيها، وتحاول أن تتحسس يديها ، فكانت كيتى تقشعر تقززاً .. كانت تدرك أن الطفلة تتوق إلى الحنان ، ولكنها لم تستطع أن تحمل نفسها على أن تلمسها !

وقالت مرة — وهى تتكلم عنها إلى الأخت سان جوزيف — إن من الحرام أن تعيش ، فابتسمت الأخت سان جوزيف ، وبسطت يدها للمخلوقة الشوهاء ، فأقبلت وراحت تحك جبهتها فى تلك اليد :. وقالت الراهبة : « يا للمسكينة الصغيرة .. لقد أحضرت إلى هنا وهى تحتضر تقريباً ، وكنت — للعناية الإلهية — لدى الباب حين جاءت ، فخطر لى أن ليس ثمة لحظة نبددها ، وسارعت إلى تعميدها فوراً .. وما أظنك تتصورين المتاعب التى كابدناها لاستبقائها معنا .. فقد خيل إلينا ، فى ثلاث مرات أو أربع ، أن روحها الصغيرة توشك أن تفلت إلى السماء .. » .

وأفحمت كيتى .. وشرعت الأخت سان جوزيف تتحدث فى ثرثرتها المرحة عن أشياء أخرى .. وعندما أقبلت الطفلة البلهاء فى اليوم التالى ومست يد كيتى ، سيطرت هذه على أعصابها حتى استطاعت أن تضع يدها على جمجمتها العارية فى حنان .. وقسرت شفتيها على أن تنفرجا فى ابتسام ، ولكن الطفلة لم تلبث أن نأت عنها فى حركة بلهاء ، وكأنما فقدت اهتمامها بها .. ولم تعد فى ذلك اليوم أو الذى تلاه تعبأ بها .. ولم تدر كيتى ما الذى بدر عنها ، فحاولت

أن تجتذبها بالابتسامات والإشارات ، ولكنها كانت تشيح عنها ، وتتظاهر بأنها لا تراها !

— ٥٠ —

● وإذ كانت الراهبات مشغولات من الصباح إلى المساء بمئات الواجبات، فإن كيتى لم تكن تراهن — فى غير أوقات الصلاة فى المعبد المتواضع — إلا قليلا .. ولقد لمحتها الأم الرئيسة ، فى أول أيامها ، جالسة فى مؤخرة الغرفة خلف البنات اللائى كن موزعات على المقاعد الخشبية الصغيرة حسب أعمارهن ، فوقفت تتحدث إليها قائلة : « لا تظنى أن من الضرورى لك أن تأتى إلى المعبد حين نذهب إليه ، فأنت بروتستانتية ولك عقائدك الخاصة » .

— ولكنى أحب أن آتى يا أماه ، إذ أجد فى ذلك راحة لى ..

فرمقتها الأم الرئيسة بنظرة وقد مالت برأسها الوقور قليلا ، ثم قالت : « لك طبعاً أن تفعلى ما تشائين .. إنما أردتك أن تفهمى أن ليس ثمة إلزام عليك فى هذا الصدد .. » .

على أن كيتى سرعان ما أصبحت مع الأخت سان جوزيف ، لا على ود بحسب ، بل على ألفة .. كانت الراهبة مسئولة عن مالية الدير ، فكان تدبير رفاهية تلك الأسرة الكبيرة يبقيها طيلة النهار فى نصب ، حتى لقد قالت : إن الوقت المخصص للصلاة هو الوحيد الذى كانت تحظى فيه بشىء من الراحة .. بيد أنه كان يحلو لها أن تدلف حوالى الغروب ، وكيتى ترشد البنات إلى العمل ، فتجلس

لتستريح بعض دقائق وهى تقسم بأنها متعبة وليس لديها من الوقت لحظة تضيعها .. وتروح تثرثر .. وكانت — فى غير حضور الأم الرئيسة — كثيرة الكلام ، مرحة ، مولعة بالنكات والفكاهة ، لا تأبى أن تخوض فى بعض الفضائح .. ولم تكن كيتى ترهبها فى شىء ، كما أن وضعها — خارج السلك الدينى — لم يمنع الأخت سان جوزيف من أن تطلق لطبيعتها العنان ، فتفيض فى الحديث معها فى فكاهة ومرح .. ولم تكن تتورع عن أن تكشف لها أخطاءها فى النطق بالفرنسية ، فتضحكان معاً من هذه الأخطاء ، كما أخذت تلقنها فى كل يوم بضع كلمات صينية .. كانت ابنة مزارع ، وقد ظلت تحتفظ فى أعماقها بفطرة الفلاحات .. كانت تقول : « لقد اعتدت أن أرعى البقر فى صغرى ، كما كانت تفعل القديسة جان دارك .. ولكننى كنت خبيثة فلم تظهر لى الأرواح والرؤى كما ظهرت لها !.. وكان هذا من حظى ، على ما أعتقد ، وإلا لأوسعنى أبى بالسوط ، فقد اعتاد — العجوز الطيب — أن يسوطنى لأننى كنت عفريتة شقية .. إننى لأستحى فى بعض الأوقات إذ أذكر الألاعيب التى كنت أدبرها ! » .

وكانت كيتى تضحك إذ تتصور أن هذه الراهبة البدينة التى تجتاز وسطى مراحل العمر ، كانت يوماً كبقية الأطفال .. ومع ذلك ، فقد كانت لا تزال بها بقية من روح الطفولة تجتذب قلبك إليها .. وكانت تلوح وكأنما يفوح حولها عبير ساحة ريفية فى فصل

الخريف ، وأشجار التفاح محملة بالثمار ، والمحصولات مكدسة فى مخازنها .. لم يكن لها الوقار الآسى الذى يلوح على الأم الرئيسة ، وإنما كانت طروباً ، ساذجة ، سعيدة ..

سألتها كيتى مرة : «ألا تتمنين قط أن تعودى لوطنك يا أختاه».

ــ آه ، لا .. فلسوف يشق على أن أرجع إلى هنا ، فى حين أننى أحب أن أكون هنا ، وما أشعر قط بمثل السعادة التى تغمرنى إذ أكون بين الأيتام .. إنهم طيبون ، شاكرون .. ولكن .. بالرغم من أن التفرغ للدين نعمة ، إلا أن للمرء أماً لا يمكن أن ينسى أنه رضع اللبن من ثدييها .. وإن أمى لعجوز ، ومن العسير على النفس أن لا أراها ثانية .. وإن كانت ، من ناحية أخرى ، تحب زوجة أخى ، كما أن أخى حفى بها .. إن ابنه كبر ولا بد ، وما أظنهم إلا سيسرون بأن ينضم إليهم فى أعمال الحقل ساعداه الفتيان .. كان طفلا حين بارحت فرنسا ، ولكن شكله كان يبشر بأنه سيقوى على أن يصرع ثوراً بقبضته ..

وكان من المستحيل وأنت تجلس فى تلك الغرفة تصغى إلى الراهبة ، أن تفطن إلى أن الكوليرا كانت تعيث فساداً خارج تلك الجدران الأربعة .. وكانت الأخت تمطر كيتى بالأسئلة عن إنجلترا ، وعن لندن التى كانت تتصورها مدينة ترزح تحت الضباب الكثيف حتى ليتعذر عليك أن ترى يدك فى وضح النهار !.. كما كان يحلو لها أن تعرف ما إذا كانت كيتى قد ترددت على المراقص ،

وما إذا كانت عاشت فى قصر كبير .. وكم أوتيت من الإخوة والأخوات .. وكثيراً ما كانت تتحدث عن وولتر .. وكانت الأم الرئيسة تقول : إنه رائع ، وإنهن يصلين من أجله كل يوم .. وإن كيتى محظوظة إذ أوتيت زوجاً له مثل هذه الطيبة والشهامة والمهارة!

ــ ٥١ ــ

● بيد أن الأخت سان جوزيف كانت لا تفتأ تعود إلى موضوع الأم الرئيسة فى أويقات متفاوتة .. وكانت كيتى قد فطنت من البداية إلى أن شخصية هذه المرأة كانت تسيطر على الدير .. فكانت كل المقيمات فيه يرمقنها فى إعزاز أكيد وإعجاب ، و .. فى مهابة أيضاً وشىء من الخوف قليل .. وكانت كيتى نفسها تشعر بأنها تستحيل أمامها إلى تلميذة ناشئة أمام ناظرة مدرستها ، رغم ترفقها ولطفها .. فهى قط لم تشعر فى وجودها بكامل حريتها ، إذ كان يتملكها شعور عجيب يحيرها .. احترام ضاف !.. ولقد راحت الأخت سان جوزيف ــ تدفعها رغبة خبيثة فى أن تبهرها ــ راحت تحدثها عن مدى عظمة الأسرة التى كانت تنتمى إليها الأم الرئيسة ، فقد كان بين أجدادها أشخاص ذوو أهمية فى التاريخ ، وكانت ذات صلات وأوشاج بنصف ملوك أوربا . وكان الفونسو ــ ملك أسبانيا ــ يزور ضياع والدها للصيد .. وكانت لهم قصور فى كافة أرجاء فرنسا .. ولذلك فقد كان من الشاق أن تهجر كل هذه الأبهة !

وكانت كيتى تنصت مبتسمة ، والحديث يترك آثاره فى نفسها..

وقالت الأخت : « ليس عليك سوى أن تنظرى إليها ، تجدى أصلها منعكساً عليها » .. فقالت كيتى : « إن لها أجمل يدين رأيتهما فى حياتى » :

– ليتك تعرفين كيف تستخدمهما ، فإن أمنا الطيبة لا تأنف من عمل ما .: ولم يكن فى المدينة ما يستحق الذكر حين وفدت الراهبات ، فأنشأن الدير ، وتولت الأم الرئيسة بنفسها الإشراف على بنائه ورفع صرحه . وعكفن بمجرد وصولهن على إنقاذ الفتيات المسكينات من مولد الأطفال ومن أيدى القابلات القاسيات .. ولم يكن لديهن فى البداية أسرة ينمن فيها ، ولا زجاج للنوافذ يصد عنهن عادية هواء الليل .. وكثيراً ما كانت نقودهن تنفد فلا يتبقى لديهن ما يدفعن منه أجور البنائين ، بل ولا ما يفى أيضاً بقوتهن ، فكن يعشن كالفلاحات .. أو ، على حد تعبير الأخت سان جوزيف، كان الفلاحون فى فرنسا – الرجال الذين يعملون لدى أبيها – لا يتورعون عن إلقاء أمثال ما كن يقتتن عليه من أطعمة، للخنازير !.. وإذ ذاك ، كانت الأم الرئيسة تجمع « بناتها » حولها ، ويركعن مصليات ، فإذا العذراء المباركة ترسل لهن المال ... إذا بألف فرنك تصلهن بالبريد فى اليوم التالى !.. أو إذا بغريب ، أو إنجليزى – رغم أنه بروتستانتى – أو حتى صينى ، يقرع الباب وهن راكعات للصلاة ، حاملا إليهن منحة !.. ولقد كن مرة فى مأزق شديد ، حتى لقد نذرن للعذراء المباركة صلاة طويلة إذا هى أنقذتهن ..

فهل تصدقين ما جرى ؟.. لقد جاء مستر وادينجتن الفكه فى اليوم التالى ليرانا ، ومنحنا مائة دولار وهو يقول : إننا نبدو كما لو كنا فى حاجة إلى طبق من الشواء الشهى ! » .

ما كان أظرفه من رجل ، بصلعته ، وعينيه الماكرتين ، وفكاهاته .. يا إلهى !.. ما أجرأه على قتل اللغة الفرنسية باللهجة التى ينطقها بها ، « ومع ذلك فأنت لا تملكين سوى أن تضحكى منه .: كان دائماً فكهاً ، خفيف الروح ، ولقد ظل طيلة هذا الوباء الرهيب وكأنه يستمتع بعطلة طيبة .. كان له قلب كقلوب الفرنسيين فى مرحه :: وبديهة تجعلك لا تصدقين أنه إنجليزى ، لولا اعوجاج لسانه فى النطق ! » .. وإن كانت الأخت سان جوزيف تظن أحياناً أنه يتعمد أن يتكلم بلغة ركيكة ليثير ضحك من يستمع إليه .. ومن الصحيح أنه لم يكن كما ينبغى من الناحية الخلقية ، بيد أن هذا شأنه الخاص .. ثم إنه كان شاباً ، أعزب !

وتسألها كيتى مبتسمة : « وأى عيب فى أخلاقه يا أختاه ؟ » .

– أحقاً لا تعرفين ؟ .. إنها خطيئة أن أقول لك ، وليس من شأنى أن أخوض فى هذه الأمور .. إنه يعاشر امرأة صينية .. بل هى ليست من الصين ، وإنما من « مانشو » .. يبدو أنها أميرة ، وأنها تحبه فى جنون !

فصاحت كيتى : « إن هذا مستحيل ! » .

– لا ، بل أقسم لك أنه عين الحق .. وهذا إثم عظيم يقارفه ، إذ

لا تنبغى بممارسة مثل هذا العمل.. ألم تسمعى ما دار حين جئت أنت إلى الدير أول مرة ولم يشأ أن يتناول فطائر « المادلين » التى صنعتها خصيصاً، فقالت أمنا الطيبة إن معدته قد أفسدها طهى ابنة « مانشو » ؟ .. كانت تعنيها بذلك ، وكان خليقاً بك أن ترى الذى تجلى على وجهه .. إنها قصة غاية فى العجب :. الظاهر أنه كان فى « هانكو » أثناء الثورة ، عندما هب الثوار فأعملوا الذبح فى أبناء « مانشو » ، فإذا بوادينجتن الطيب ينقذ أسرة من أسراتهم الكبرى ، كانت تمت بالقرابة إلى الأسرة الإمبراطورية .. وكان أن تدلهت الفتاة فى هواه ، و .. وتستطيعين أن تتصورى بقية القصة ! .. وعندما غادر « هانكو » فرت الفتاة وتبعته ، وهى إلى الآن تتبعه أينما ذهب ، وقد راض نفسه على أن يأويها .. بل أستطيع أن أقول إن المسكين يحبها .. فإن بنات « مانشو » يكن فى بعض الأحيان فاتنات .. ولكن ، ما هذا الذى أفعله ؟ .. إن لدى ألف عمل ، ومع ذلك فقد استطبت الجلوس هنا .. إننى راهبة سيئة الخلق .. إننى أخجل من نفسى .. !

- ٥٢ -

● وانتاب كيتى شعور غريب بأنها تتطور .. فلقد صرف العمل المستمر ذهنها عن هواجسها ، وأيقظت خيالها اللمحات التى كانت تطلعها على حياة وأفكار سواها ، فشرعت تستعيد هدوءها وطباعها وتشعر بالتحسن يصيب صحتها وقواها .. وبعد أن كانت تخال أن لم يعد لها سوى البكاء ، انتبهت إلى أنها — لدهشتها وعجبها — أصبحت

تضحك لهذا الأمر وذاك .. وبدت لها الحياة وسط الوباء المروع أمراً طبيعياً ! كانت تدرك أن الناس يموتون عن يمينها وعن يسارها ، ولكنها كفت عن أن تشغل بالها بذلك .. وكانت الأم الرئيسة قد حرمت عليها أن تلج قاعات المرضى ، فإذا الأبواب المغلقة تذكى فضولها ، حتى لقد ودت لو تسترق النظر إلى ما كان يجرى خلفها ، لولا أنها خشيت أن يراها أحد ، ولم تك تدرى أى عقاب تنزله الأم الرئيسة بها ، سيما وأنها صارت تبغض أن تقصى عن الدير ، فلقد شغفت بالأطفال ، وأصبحت تشعر أنهم سيفتقدونها لو أنها أقصيت .. بل لقد غدت تعجب كيف يكون أمرهم بدون رعايتها ..

وفطنت ذات يوم إلى أنها قضت أسبوعاً كاملا دون أن تفكر فى تشارلس تاونسند أو تحلم به ، فخفق قلبها فجأة بعنف ، إذ رأت أنها برئت من حبه ، وأن فى وسعها الآن أن تفكر فيه بغير ما اكتراث .. إنها لم تعد تحبه ! .. أواه ، ما أجمل الشعور بالخلاص والتحرر ! .. وبدا لها غريباً — وهى تستعرض الماضى — ذلك الحنين المشبوب الذى كان يساورها نحوه :. لقد ظنت أنها ستموت عند ما تخلى عنها ، وخالت أن الحياة لن تتيح لها بعد ذلك سوى التعاسة .. ومع ذلك ، فهاهى ذى تضحك ، وترى فيه شخصاً حقيراً لا قيمة له. لقد جعلت من نفسها فى الماضى غبية حمقاء ، أما الآن ، وهى تفكر فيه بهدوء ، فقد أصبحت تسائل نفسها فى عجب : أى شىء استهواها فيه .. كان من حسن الحظ أن وادينجتن لم يعرف من أمرها معه شيئاً ، وإلا

ما احتملت نظراته الخبيثة ، وتعقيباته الساخرة .. لقد صارت أخيراً حرة .. حرة .. حرة ! .. ولم تمالك أن أرسلت ضحكة عالية ..

وكان الأطفال يلعبون فى ضجيج حولها .. وكان من عادتها أن ترقبهم فى ابتسامة متلطفة ، وأن تخفف من ضجيجهم إذا ما أسرفوا فيه ، وأن تراعى أن لايضار أحد منهم من جراء هرجهم .. أما الآن وهى فى سرورها الضافى ، فقد أحست بنفسها تهبط إلى سنهم ، فاشتركت معهم فى اللعب .. واستقبلتها الصغيرات فى اغتباط ، ورحن يتسابقن فى الغرفة ، صارخات بأعلى أصواتهن الرفيعة ، فى هرج وفوضى .. واشتد بهن التحمس فرحن يقفزن فى مرح .. وأصبحت ضوضاؤهن لا تطاق .

وفجأة ، فتح الباب ، وبدت الأم الرئيسة عند عتبته .. وخلعت كيتى نفسها من قبضات الصغيرات فى استحياء ، بينما كن يتشبثن بها صارخات .. وتساءلت الأم الرئيسة مبتسمة : « أهكذا تستبقين هؤلاء الأطفال هادئين ؟ » :

– كنا نقوم بإحدى الألعاب ياأماه ، فاشتد بهم الانفعال .. إنها غلطتى لأننى أنا التى قدتهم إلى ذلك ..

وتقدمت الأم الرئيسة ، فتزاحم الأطفال حولها كعادتهم ، وأحاطت أكتافهم الصغيرة بذراعيها ، وراحت تجذب آذانهم فى مداعبة ، وهى ترمق كيتى بنظرة طويلة حانية .. كان وجهها متضرجاً ، وأنفاسها متهدجة ، وعيناها الزرجاجتان تلمعان ، وشعرها الجميل قد تشعث

خلال اللعب والضحك فتناثر فى فوضى حبيبة .. وقالت الأم الرئيسة بالفرنسية : « ما أجملك يا ابنتى العزيزة ! » .. ثم أردفت بالإنجليزية : « إن مرآك يملأ القلب بهجة .. فلا عجب إن شغف بك هؤلاء الصغار ! » :

وازداد وجه كيتى تضرجاً ، وتدافعت الدموع إلى عينيها فجأة لغير ما سبب أدركته ، فغطت وجهها براحتيها وهتفت : « أواه ياأماه ! .. إنك تخجليننى » .

– لا تكونى بلهاء ، فإن الجمال نعمة من الله ، بل هو من أندر النعم وأغلاها : وجدير بنا أن نكون شاكرات إذا سعدنا بالفوز به .. وأن نكون حامدات إذا لم نفز به ، لأن سوانا قد حظى به كى نملى أنظارنا منه !

وعادت تبتسم ، وربتت خد كيتى الناعم برفق كما لو كانت طفلة ..

– ٥٣ –

● أصبحت كيتى لا ترى وادينجتن – مذ عملت فى الدير – إلا قليلا .. فقد وافاها مرتين أو ثلاثاً لدى ضفة النهر فسارا معاً صاعدين التل إلى دارها ، وكان يمكث ريثما يتناول قدحاً من الويسكى والصودا ، ولكنه قلما بقى حتى العشاء ..

على أنه اقترح فى أحد أيام الآحاد أن يأخذا غذاءهما معهما ويستقلا محفتين إلى معبد بوذى على مسافة عشرة أميال من المدينة ، اشتهر بأنه

مقصد الحجاج .. وكانت الأم الرئيسة تصر على أن تحظى كيتى بيوم
للراحة ، وتأبى أن تدعها تعمل فى أيام الآحاد .. أما وولتر فكان كعهده ،
أبداً مشغولا ..

وانطلقت كيتى ووادينجتن مبكرين كى يصلا قبل أن تشتد
حرارة الشمس ، فحملا على المحفتين فى طريق ضيق خلال حقول
الأرز .. وكانا من آن إلى آخر يمران ببعض البيوت الريفية الجميلة وقد
استكانت بين أحضان أحراش الخيزران .. واستطابت كيتى الخمول
الذى سرى إليها .. ولذ لها أن ترى الريف الفسيح بعد طول مقامها
فى المدينة المحدودة .. وانتهيا إلى المعبد .. مجموعة من المبانى المتلاصقة ،
المنخفضة ، قامت إلى جوار النهر ، فى ظلال الشجر .. وقادهما الكهنة
فى بشاشة إلى ساحات كانت خالية ، يسودها الوجوم ، ثم أروهما
أقسام المعبد وما فيها من آلهة .. وفى القسم الأوسط ، جلس بوذا ،
حزيناً ، مفكراً ، ساجياً ، وعلى أساريره طيف ابتسامة واهنة ..
وكان طابع الإهمال يدمغ كل شىء ، فكانت روعة المكان تتوارى
خلف القدم والتهدم .. وكانت تماثيل الآلهة ترزح تحت التراب ، كما
كان الإيمان الذى أدى إلى صنعها يحتضر .. وبدا كأنما الكهنة يمكثون
على مضض ، مرتقبين صدور الأمر بأن يغادروا المعبد .. وكان فى
ابتسامة كبيرهم — رغم أدبه الجم — استسلام ساخر .. إذ لن يلبث
الكهنة أن يتسللوا يوماً من الغابة الظليلة ، البديعة ، فتهدم العواصف
الهوجاء المبانى المتداعية المهجورة ، وتحاصرها الطبيعة حتى تضطرها

إلى الاستسلام .. وتلتف النباتات الزاحفة البرية حول التماثيل الميتة ،
وتتكاثف الأشجار فى ساحات المعبد .. ثم لايعود للآلهة مقام فى هذا
المكان ، فتعمره أرواح الشر والظلام ..

— ٥٤ —

● وجلسا على درجات مبنى صغير كان يتألف من أربعة أعمدة
بيضاء ، وسقف عال أقيم تحته جرس برونزى كبير .. وأخذا
يتأملان النهر وهو ينساب وئيداً ، فى كثير من التثنى ، نحو المدينة
الموبوءة .. وكانا يريان أسوارها غير المتناسقة ، والقيظ مبسوط
فوقها كغطاء التابوت .. ومع أن النهر كان ينساب بطيئاً ، إلا أنه كان
يكشف عن حركة توحى للمرء بإحساس حزين إزاء تطورات الأمور
.. كل شىء ينقضى ، فأى أثر يبقى لانقضائه ؟ .. وخيل لكيتى أنهم
جميعاً — الجنس البشرى بأسره — كقطرات ماء فى ذلك النهر ، تسرى
كل لصق الأخرى ، ولكنها على تقاربها متباعدة ، فى فيض لا كنه له ،
يمضى إلى البحر .. وإذا كانت جميع الأشياء لا تمكث إلا مثل هذا الأمد
الوجيز ، ثم لايعود لأى منها أهمية تذكر ، فإن من دواعى الرثاء أن
يشقى البشر أنفسهم ، وأن يشقى كل منهم الآخر ، إذ يعلقون أهمية
سخيفة على أمور تافهة !

وسألت كيتى وادينجتن وفى عينيها الجميلتين ابتسامة : « هل
تعرف بساتين هارينجتن ؟ » .

— لا .. لماذا ؟

ـ لا لشيء ، سوى أنها على بعد شاسع من هنا .. إنها المنطقة التي يقيم فيها أهلي ..

ـ أتفكرين في العودة إلى الوطن ؟

ـ لا ..

ـ أظن أنكما ستبرحان هذه المنطقة خلال شهرين ، فقد بدأت حدة الوباء تخف ، ولن تلبث برودة الجو أن تقضي عليه :

ـ أكاد أعتقد أنني سآسف للرحيل ..

واستغرقت لحظة تفكر في المستقبل .. لم تكن تدري ماذا أعد لها وولتر ، فما أنبأها بشيء .. كان بارداً ، مؤدباً ، صامتاً ، مغلقاً لا يكشف عن شيء ! .. كانا كنقطتين صغيرتين في ذلك النهر الذي كان ينساب في صمت نحو المجهول .. نقطتين لكل منهما في حد ذاتها كيان وشخصية ، ولكنهما للرائي عن كثب ليسا سوى جزء من الماء لا يمتاز عن باقي الأجزاء في شيء ..

وقال وادينجتن بابتسامته الخبيثة : « حذار أن تحولك الراهبات عن مذهبك إلى مذهبهن » .

ـ إنهن مشغولات للغاية .. ثم هن لا يحفلن بذلك .. إنهن رائعات ، رحيمات ، ومع ذلك فإن بينهن وبيني سياجاً لا أدري كيف أعلله .. بل لست أدري كنهه ! كأنما لديهن سر يعزى إليه ما أصاب حياتهن من تغير ، ولكنهن يرينني غير أهل لأن أشاطرهن إياه .. إنه ليس الإيمان ، بل هو شيء أعمق ، وأكبر .. وأخطر مغزى .. أنهن يسرن

في عالم غير عالمنا ، ولسوف نظل على الدوام أغراباً بالنسبة لهن .. وإني لأشعر حين تغلق أبواب الدير خلفي عند انصرافي كل يوم ، بأنني لم أعد ذات وجود في اعتبارهن !

فقال هازئاً : « أكاد أحس أن هذا يصدم غرورك وكبرياءك » .

فهتفت : « كبريائي » .. وهزت كتفيها .. ثم ابتسمت مرة أخرى ، واستدارت إليه في تكاسل وسألته فجأة : « لم لم تخبرني قط أنك تعيش مع أميرة من مانشو ؟ » .

ـ ما الذي روته لك تلك النسوة الثرثارات ؟ .. إنني أعتبرها خطيئة أن تخوض الراهبات في الشئون الخاصة لموظفي الجمارك !

ـ ولماذا تتأثر بكلامهن إلى هذه الدرجة ؟

فغض وادينجتن بصره ، وحول نظراته جانباً ، مما أضفى عليه مظهر المكر .. ثم هز كتفيه في حركة طفيفة ، قائلا : « ليست هذه بالمسألة التي يجوز إعلانها على الملأ .. ولا أظنها ستضاعف من فرص ترشيحي للترقية في عملي ! » .

ـ أو أنت مشغوف بتلك المرأة ؟

فتطلع إليها وعلى وجهه القبيح أسارير التلميذ الشقي ، وقال : « إنها قد نبذت كل شيء من أجلي : وطنها ، وأسرتها ، وأمنها ، وكرامتها .. ولقد انقضت سنوات عديدة مذ ألقت بكل شيء أدراج الرياح ، لكي تعيش معي :. وقد أقصيتها مرتين أو ثلاثاً ، ولكنها كانت دائماً تعود .. بل لقد هربت منها أنا نفسي ، ولكنها كانت دائماً

تتعقبني ، مما اضطرني في النهاية إلى التسليم بأن لا جدوى من كل ذلك ، وصرت أعتقد أن لامناص لي من أن أعيش معها ما تبقى من عمري ..

– لابد أنها مدلهة في حبك فعلا حتى الموت ! ؟

فأجاب وقد قطب جبينه في حيرة : «أتدرين ، إنه شعور غريب حقاً .. ليس لدي أتفه شك في أنها لا تتورع – إذا أنا هجرتها فعلا – عن الانتحار.. لا وهي موغرة الصدر نحوي ، وإنما كتصرف طبيعي.. لأنها تأبى الحياة بدوني .. إنه لشعور غريب غامض ذاك الذي يساور المرء إذ يتبين هذا.. وإن كنت لا أراه ذا قيمة أو معنى بالنسبة لك ..

– ولكن الشيء المهم هو أن يحب المرء ، لا أن يكون موضع الحب .. فالمرء لايكاد يحمد لمن يحبونه حبهم ، بل إنهم لايكونون سوى مصدر لملله ، ما لم يكن هو ذاته يحبهم !

فأجاب : « لا خبرة لدي بالآخرين ، فإن تجربتي مستمدة من حالتي الفردية » .

– أو هي أميرة من الأسرة الإمبراطورية حقاً ؟

– لا ، هذه مغالاة خيالية من الراهبات .. إنها تنتمي إلى أسرة من أسرات « مانشو » الكبرى ، ولكن مجد أسرتها انهار بقيام الثورة .. وإن كانت قد بقيت لها هي مكانتها الرفيعة !

ولفظ العبارة الأخيرة بافتخار دفع إلى عيني كيتي ابتسامة ، وعادت تسأله : « أو ستمكث هنا إلى نهاية عمرك ؟ » .

– في الصين ؟ .. أجل .. إذ كيف ترينها تعيش في أي مكان

آخر ؟ .. عندما أعتزل العمل سأقتني بيتاً صينياً صغيراً في بكين ، أقضي فيه بقية أيامي ..

– هل رزقتما أطفالا ؟

– لا .

فتطلعت إليه في عجب .. كان من الغريب أن يثير هذا الأصلع الشبيه بالقرد ، مثل هذا الغرام الأهوج في تلك المرأة التي لم تكن من بنات جلدته .. ولم تدر لم أحست كيتي من لهجته في الحديث عنها – رغم تظاهره بالاستخفاف وقلة الاكتراث – بأن تلك المرأة كانت شديدة الوفاء ، فذة الولاء .. وأمضها ذلك بعض الشيء ، لكنها ابتسمت قائلة : « يبدو أن بيننا وبين حدائق هارينجتن مسافة شاسعة حقاً .. » .

– لم تقولين ذلك ؟

– لست أفقه شيئاً ، فالحياة غاية في الغرابة .. وإني لأشعر كما لو كنت عشت حياتي بجوار بركة للبط ، ثم اقتدت فجأة إلى البحر .. فإذا المنظر يبهر أنفاسي ، ويملأني – في الوقت ذاته – بالإعجاب والزهو .. لست أريد أن أموت ، وإنما أبغي أن أعيش .. ولقد بدأت أشعر بشجاعة جديدة : أشعر كأني من أولئك الجنود القدماء الذين كانوا يقلعون سعياً إلى بحار لم تكتشف بعد .. فإني لأحس بأن روحي تسعى تواقة إلى المجهول ..

فتطلع إليها وادينجتن متأملا .. وكانت نظراتها الشاردة تترامى

على النهر الهادئ ، وهى تتمثل نفسها و « وولتر » كنقطتين صغيرتين تسربان فى صمت وسكينة نحو بحر الأبدية المظلم .. ثم سألته فجأة وهى ترفع رأسها : « هل لى أن أزورك لأرى تلك السيدة ابنة مانشو ؟ » .

– إنها لا تعرف كلمة إنجليزية واحدة ..

– لقد كنت مفرط الكرم معى ، وقد بذلت الكثير من أجلى ، ولعلى أستطيع بمسلكى أن أشعرها بأننى أكن لها وداً ..

فارتسمت على شفتى وادينجتن ابتسامة رقيقة ، ساخرة ، ولكنه أجاب فى سماحة نفس : « سأحضر لأصحبك ذات يوم ، ولسوف تقدم لك كوباً من الشاى المعطر بالياسمين .. » .

ولم تشأ أن تخبره أن قصة هذا الحب الغريب قد أثارت خيالها مذ سمعتها ، حتى أصبحت الأميرة ابنة « مانشو » بالنسبة لها أشبه برمز يشير لها فى إبهام – ولكن فى دأب ودون انقطاع – إلى عالم خرافى تعمره الأرواح ..

– ٥٥ –

● بيد أن كيتى لم تلبث أن اهتدت بعد يوم أو اثنين إلى كشف لم تكن تتوقعه ولا عملت له حساباً .. فلقد ذهبت إلى الدير كعادتها ، وشرعت تؤدى عملها فاحصة الأطفال لتستوثق من أنهم قد اغتسلوا وارتدوا ثياباً نظيفة .. ولما كانت الراهبات يؤمن فى إصرار بأن هواء الليل ضار ، لذلك كانت نوافذ عنبر النوم تغلق طيلة الليل ، فإذا ما أصبح الصباح ، كان الجو يبدو ثقيلا فاسداً مشبعاً بالأنفاس ، مما كان

يضايق كيتى ، فيجعلها تسارع إلى فتح أكبر عدد تستطيع من النوافذ .. ولكنها فى ذلك اليوم أحست بإعياء شديد ، ودوار فى رأسها ، وغثيت نفسها ، فوقفت إلى جوار النافذة تحاول أن تنتعش وتمالك نفسها .. إنها ما أحست قط بمثل هذا الشعور من قبل .. ثم غلبها الغثيان فتقيأت .. وندت عنها صرخة أزعجت الأطفال .. فهرعت نحوها الفتاة الكبرى التى اعتادت أن تساعدها ، ولكنها لم تكد تراها ترتجف وقد شحب وجهها ، حتى توقفت ، وهتفت .. كوليرا ! .. ومرقت الفكرة فى ذهن كيتى كالسهم ، ثم داخلها شعور بخطر الموت ، فتملكها ذعر ، وراحت تكافح لحظة ضد الظلام الذى خالت أنه يزحف فى عروقها بسرعة أليمة .. واشتد شعورها بالإعياء .. ثم اكتنفها ظلام تام !

ولم تدر لأول وهلة أين كانت ، حين فتحت عينيها .. بدا لها أنها نائمة على الأرض ، فلما حركت رأسها قليلا أحست بوسادة تحتها .. ولم تستطع أن تتذكر شيئاً .. وكانت الأم الرئيسة تجثو إلى جوارها ، مقربة أملاح النوشادر إلى أنفها ، بينما وقفت الأخت سان جوزيف تتأملها .. ثم عادت إليها ذاكرتها .. الكوليرا ! .. واستبانت الاهتمام الذى كان يسيطر على وجهى الراهبتين ، فغشيها الذعر مرة أخرى ، وهتفت باكية : « أواه يا أماه .. يا أماه .. أو سوف أموت ؟ .. لا أريد أن أموت ! » .. فأجابتها الأم الرئيسة : « لن تموتى بالتأكيد » .

وكانت رابطة الجأش ، وفى عينيها شىء من الاطمئنان ..

وعادت كيتى تقول : « ولكنها الكوليرا .. أين وولتر ؟ .. هل أرسلتم تستدعونه ؟ .. أواه يا أماه .. يا أماه ! » .

وانسابت دموعها مدراراً ، فبسطت لها الأم الرئيسة يدها ، وإذا هى تتشبث بها وكأنها تلوذ بملاذ ترجو أن يبقيها على قيد الحياة التى كانت تخشى أن تفقدها .. وقالت الأم الرئيسة : « رفهى عن نفسك ياصغيرتى العزيزة ! . لا تكونى غبية ، فليست هذه بالكوليرا ، ولا بأى شىء من هذا القبيل .. » .

— وأين وولتر ؟

— إن زوجك أكثر انشغالا من أن نزعجه .. ولن تمضى خمس دقائق حتى تكونى بأتم خير ..

فحملقت فيها كيتى بعينين مشدوهتين ، وهى تتساءل : لم تبدو هادئة إلى هذا الحد ؟ . إنها لقسوة ! .. على أن الأم الرئيسة استرسلت قائلة : « الزمى السكون التام لمدة دقيقة فليس ثمة مايستدعى انزعاجك »

وأحست كيتى بقلبها يخفق فى عنف .. كانت قد ألفت التفكير فى الكوليرا ، حتى لم تعد ترى أن من المحتمل أن تصاب بها .. أواه ، ما كان أحمقها ! .. وأدركت أنها ستموت فاشتد جزعها .. وأحضرت البنات مقعداً طويلا من الخيزران وضعنه إلى جوار النافذة ، فقالت الأم الرئيسة : « لنحملك إلى المقعد الطويل فسيكون هذا أدعى لراحتك .. هل تحسين أن بوسعك أن تنهضى ؟ » .

ووضعت يديها تحت ذراعى كيتى ، بينما عاونتها الأخت سان



فلما حركت رأسها قليلاً أحست بوسادة تحتها .. ولم تستطع أن تتذكر شيئاً .. وكانت الأم الرئيسة تحنو إلى جوارها ..

جوزيف على الوقوف .. ولم تلبث أن تهالكت على المقعد فى إعياء ..
فقالت الأخت سان جوزيف : « يحسن أن أغلق النافذة ، فإن هواء البكور ليس مما يفيدها » .

فصاحت كيتى : « لا .. لا .. أرجو أن تتركيها مفتوحة » .. كانت قبة السماء الزرقاء تبعث فى نفسها الطمأنينة .. وكانت مضعضعة الحواس ، ولكنها ما لبثت أن شرعت تحس بالتحسن . وتأملتها الراهبتان لحظة فى صمت ، ثم تمتمت الأخت سان جوزيف للأم الرئيسة بكلمات لم تفهمها كيتى ، وإذ ذاك جلست الأم الرئيسة على حافة المقعد ، وتناولت يدها وقالت : « اسمعى ياطفلتى العزيزة .. » .

ووجهت إليها سؤالا أو اثنين ، أجابت عنهما كيتى دون أن تدرك ما وراءهما .. وكانت شفتاها ترتجفان ، فلا تكاد تنبعث الكلمات واضحة من بينهما . وقالت الأخت سان جوزيف : «ليس ثمة شك فى الأمر ، فأنا لا يمكن أن أخدع فى مثل هذه المسألة ! » . وأطلقت ضحكة صغيرة لمست فيها كيتى شيئاً من الانفعال وغير قليل من العطف ، فابتسمت الأم الرئيسة فى حنان وهى لاتزال ممسكة بيد كيتى ، ثم قالت : « إن للأخت سان جوزيف خبرة بهذه الأمور تفوق مالدى ياصغيرتى العزيزة .. ولقد أدركت فى الحال ما بك ، فإذا بها على صواب واضح » .

فتساءلت كيتى فى لهفة : « ماذا تعنين ؟ » .

– إنه لأمر جلى .. ألم يخطر لك قط احتمال حدوث شىء كهذا ؟ .. إنك حبلى ياعزيزتى !

وهزت المفاجأة كيان كيتى هزة عنيفة ، فوضعت قدميها على الأرض كأنما كانت تهم بأن تقفز ، لكن الأم الرئيسة ابتدرتها : « امكثى مضطجعة ، ساكنة ! » .. وأحست كيتى بالدماء تتدافع إلى وجهها فى عنف ، ووضعت يديها على ثدييها وهى تقول : « هذا مستحيل .. ليس هذا بحق » .. فتساءلت الأخت سان جوزيف بالفرنسية : « ماذا تقول ؟ » .

وترجمت لها الأم الرئيسة ، فأشرق وجه الأخت سان جوزيف المستدير ، الساذج ، ذو الوجنتين المتوردتين ، وقالت : « لا مجال للخطأ ، إننى أقسم بشرفى » .. وتساءلت الأم الرئيسة : « منذ متى تزوجت ياصغيرتى ؟ .. لقد كان لزوجة أخى طفلان حين انقضى على زواجها من الزمن ما انقضى على زواجك ! » .

فغاصت كيتى فى المقعد ، وهى تحس بالموت يطرق قلبها ، وهمست : « لشد ما أنا خجلى ! » .

– ألأنك سترزقين بطفل ؟ .. أى شىء طبيعى يفوق هذا ؟

وقالت الأخت سان جوزيف بالفرنسية : « ما أشد فرحة الطبيب ! » .

– أجل ، فكرى فيما سيبعثه هذا فى زوجك من سعادة .. لسوف يطغى عليه الابتهاج . يكفى أن تريه مع الأطفال ، وأن تتأملى وجهه

وهو يداعبهم ، كى تدركى مدى فرحه حين يؤتى طفلا من صلبه ..

ولاذت كيتى بالصمت برهة ، والراهبتان ترمقانها فى اهتمام وحنو ، والأم الرئيسة تربت يدها .. وقالت كيتى أخيراً : « كان من الغباء أن لا أحدس هذا من قبل .. إننى ، على كل حال ، مسرورة لأنها لم تكن الكوليرا .. وإنى لأحس بتحسن كبير .. فلأعد إلى عملى » :

— لن تعملى اليوم يا ابنتى العزيزة — لقد تعرضت لمفاجأة أثارتك ، ويحسن أن تعودى إلى دارك لتستريحى :.

— لا .. لا .. بل أفضل أن أمكث وأعمل ..

— إننى أصر على ما قلت :: ما الذى يقوله طبيبنا الطيب إذا تركتك تقدمين على تصرف غير حكيم ؟ .: تعالى غداً ، إن شئت ، أو بعد غد .. أما اليوم ، فيجب أن تلزمى الهدوء .. سأستدعى لك محفة .. أو ترغبين أن أوفد معك إحدى بناتنا الصغيرات ؟

— لا .. سأكون بخير وأنا وحيدة ..

— ٥٦ —

● كانت كيتى مستلقية على فراشها وقد أغلقت المصاريع الخشبية للنوافذ .. وكان الغداء قد رفع ، واستسلم الخدم للقيلولة .. إن ما علمته فى ذلك الصباح ، وما غدت على يقين من صحته ، يملأها جزعاً وخبالا .. ولقد ظلت مذ عادت إلى الدار تحاول أن تفكر ، ولكن ذهنها بدا خاوياً ، ولم تستطع أن تجمع شوارد أفكارها .. وفجأة ،

سمعت وقع قدمين فى حذاءين ، مما نم عن أنهما لايمكن أن يكونا لأحد الخدم .. وفى إدراك مرتاع أيقنت أن القادم لايمكن أن يكون سوى زوجها .. وكان قد دخل غرفة الجلوس .. وسمعته يناديها ، فلم تجب .. وسادت فترة صمت ، ثم دوت طرقة على باب حجرتها ، فصاحت : « نعم ؟ » .

— هل لى أن أدخل ؟

فنهضت كيتى من فراشها ، والتفت فى رداء وقالت : «أجل» .

وولج الحجرة .. وسرها أن المصاريع الخشبية المغلقة كانت تحجب النور عن وجهها .. وقال لها : «آمل أن لا أكون قد أيقظتك .. لقد طرقت بمنتهى الرفق .. » .

— لم أكن نائمة ..

وذهب إلى إحدى النوافذ ففتح مصراعيها .. وانساب إلى الحجرة فيض من الضوء الدافىء .. فسألته : « ماذا جرى ؟ .. لم عدت إلى البيت مبكراً ؟ » .

— قالت الراهبات إنك كنت متوعكة ، فآثرت أن آتى لأتبين ما هنالك ..

فانبعث قبس من الغضب فى أعماقها ، وتساءلت : « وماذا كنت تراك قائلا لو أنها كانت الكوليرا ؟ » .

— لو كانت ، ما استطعت بالتأكيد أن تعودى إلى البيت فى هذا الصباح ..

فسعت إلى مائدة الزينة ، وجاست بالمشط خلال شعرها الناعم الغزير .. كانت تحاول كسب الوقت .. ثم جلست وأشعلت سيجارة، وقالت : « لم أكن على ما يرام فى هذا الصباح ، فرأت الأم الرئيسة أنه يحسن بى أن أعود إلى هنا .. على أننى الآن بخير .. وسأذهب إلى الدير كالمعتاد غداً » .

— وماذا كان بك ؟

— ألم ينبئنك ؟

— لا .. قالت الأم الرئيسة إن عليك أن تخبرينى بنفسك !

وفعل إذ ذاك ما لم يعد يفعله إلا نادراً .. تطلع إليها متفرساً فى وجهها .. وكانت نظراته — كطبيب — أقوى من نظراته الشخصية .. وترددت ، ثم غصبت نفسها على أن تواجه نظراته ، وقالت : « إننى حامل » :

وكانت قد ألفت عادته فى أن يتلقى صامتاً من الأنباء ما يرتقب عادة أن يثير الدهشة والعجب .. ولكن هذه العادة لم تبد لها ممضة كما بدت إذ ذاك ، فما نبس ببنت شفة ، ولا صدرت عنه إشارة ، ولا اختلج وجهه بشىء ، أو تغير التعبير الذى كانت تفيض به نظراته ، بما ينم عن أنه سمع ما قالت .. وأحست فجأة برغبة فى أن تبكى .. لو أن رجلا أحب زوجته ، وكانت زوجته تحبه ، لقرب بينهما فى مثل هذه اللحظة فيض العواطف المنفعلة .. أما هذا الصمت فكان أقوى مما تحتمل ، لذلك بادرت إلى خرقه قائلة : « لست أدرى كيف لم

يخطر لى من قبل :. لقد كان غباء منى .. ولكن :: ماذا كان يرتقب منى .. » .

فقاطعها : « كم مر من الزمن .. متى تتوقعين الوضع ؟ » .

وخيل إليها أن الكلمات تنبعث من بين شفتيه فى عناء . وأحست أن بحلقه مثل ما بحلقها من الجفاف .. وضايقها أن راحت شفتاها ترتجفان وهى تتكلم .. كان خليقاً بحالها أن تثير شفقته ، ما لم يكن قد من صخر .. وقالت : « أظن أن الأمر قد بدأ منذ شهرين أو ثلاثة » .

— وهل أنا الأب ؟

وبدرت منها شهقة خافتة .. كان فى صوته ظل طفيف من الارتجاف المنفعل .. كانت هذه السيطرة الباردة على أعصابه فظيعة ، جعلت للرجفة العاطفية الضئيلة أثراً قاسياً .. ولم تدر لم تذكرت فجأة آلة عرضت عليها فى هونج كونج ، تجرى عليها إبرة دقيقة ، وقيل لها إن الخط المرتجف الذى رسمته الإبرة يشى بزلزال وقع على بعد ألف ميل ، وربما أودى بحياة ألف شخص .. وتطلعت إلى زوجها ، فإذا به شديد الشحوب ، كما لم تره من قبل — اللهم إلا مرتين ! — وكان يوجه نظراته إلى الأرض ، فى انحراف بسيط .. وعاد يسألها :

— ما قولك ؟

فضمت قبضتيهما .. كانت تدرك أنها لو قالت « نعم » ، لأشرقت الدنيا وما فيها فى وجهه :. وكانت توقن من أنه سوف يصدقها .. أجل ، إنه على استعداد لأن يصدقها ، لأنه كان يتوق

إلى ذلك .. ومن ثم فلسوف يصفح عنها .. وكانت تدرك مدى عمق حنانه ، ومدى استعداده – رغم خجله – لأن يفيض عليها من هذا الحنان .. كانت تدرك أنه ليس تواقاً للثأر ، وأنه لن يلبث أن يغفر لها إذا هى أتاحت له تعلة لذلك ، إذا هيأت له عذراً يحرك قلبه .. ولسوف يكون صفحه شاملا حتى لتستطيع أن تطمئن إلى أنه لن يدع أبداً كلمة واحدة عن الماضى تجاوز شفتيه .. فإنه رغم قسوته ، وبروده ، وازدرائه ، لم يكن قط وضيعاً ولا دنيئاً .. كان مجرد قولها « نعم » كفيلا بأن يبدل كل شىء !

وكانت فى حاجة ماسة للعطف .. كان علمها بالحمل الذى لم يكن متوقعاً ، قد جعل الآمال الغريبة والرغبات غير الملموسة تتوزعها .. فأحست بضعف ، وبشىء من الخوف ، وبالوحدة والبعد عن أى صديق .. حتى لقد خامرها الشوق فى ذلك الصباح إلى أن تكون مع أمها ، رغم أنها لم تكن تحفل بها كثيراً .. كانت فى حاجة إلى عون وتسرية .. ولم تكن تحب وولتر ، بل كانت تدرك أنها لا يمكن أن تحبه ، ولكنها فى تلك اللحظة تاقت بكل قلبها إلى أن يأخذها بين ذراعيه ، حتى تلقى برأسها على صدره ، وتتعلق به ، وتبكى فى هناء .. كانت تشتهى أن يقبلها ، وتصبو إلى أن تعقد ذراعيها حول عنقه ..

وشرعت تنتحب .. إنها كثيراً ما كذبت ، وما أيسر أن تكذب الآن .. وما قيمة أكذوبة واحدة إذا كان من ورائها خير ؟..

أكذوبة واحدة .. وأى أكذوبة ؟.. كان من اليسير أن تقول « نعم » .. وتمثلت نظرات وولتر تلين ، وذراعيه تمتدان نحوها .. ومع ذلك فإنها لم تقو على أن تقولها !.. وما كانت تدرى لذلك سبباً : كل ما هنالك أنها لم تكن تقوى . كان كل ما تعرضت له خلال تلك الأسابيع المريرة : تشارلى وجحوده .. الكوليرا وجميع أولئك الذين يلقون حتفهم .. الراهبات .. بل – وهذا من دواعى العجب – حتى ذلك الـ « وادينجتن » الضئيل الجسم ، الطروب ، السكير .. كل هؤلاء الأشخاص وهذه العوامل قد غيرتها ، حتى لم تعد تعرف نفسها .. ومع أن حسها كان مرهفاً ، إلا أن شيئاً فى أعماقها بدا كالمتفرج يرقبها فى جزع ودهشة .. كانت مسوقة إلى أن تقول الصدق ، إذ لم يبق ثمة شىء يستحق أن تكذب من أجله !. وراح فكرها يهيم فى شرود عجيب : رأت فجأة ذلك المتسول الميت تحت سور الدار .. لماذا فكرت فيه ؟.. ولم تبك فى نهنهة ، وإنما راحت الدموع تسيل على وجهها من عينيها الواسعتين ، فى سهولة وسخاء .. وأخيراً ، أجابت عن السؤال .. لقد استفسر عما إذا كان هو أب الجنين .. فقالت : « لست أدرى ! » .

وأطلق شبه ضحكة ساخرة جعلت كيتى ترتعش .. ثم قال : « إنه لموقف حرج .. أليس كذلك ؟ » .

كان جوابه يتسق وشخصيته .. كان عين ما توقعت أن يقول .. ومع ذلك ، فإن قلبها قد غاص فى أعماقها .. وعجبت مما إذا كان

قد تبين مدى القسوة التى عانتها كى تقول الحق – ولو أنها قد تبينت فى اللحظة ذاتها أن ليس فى الأمر قسوة ، لأنه كان أمراً محتوماً لا مناص منه – ولكن ، هلا ينصفها لذلك .. وراح ردها يتردد فى رأسها كصوت المطارق : لست أدرى .. لست أدرى !.. لقد غدا من المستحيل أن تسحب هذا الرد .. فأخرجت منديلها من حقيبة يدها ، وراحت تجفف عينيها .. ولم ينبسا ببنت شفة .. ملأ لها كوب ماء ، حملها إليها ، وظل ممسكاً بها حتى شربت .. ولاحظت مدى نحول يده .. كانت فى الماضى يداً رقيقة ، بضة ، ذات أصابع رشيقة .. أما الآن ، فلم تعد سوى جلد على عظام .. وكانت اليد ترتجف بعض الشىء .. كان بوسعه أن يسيطر على خلجات وجهه ، ولكن يده كانت تشى بانفعاله !

وقالت : « لا تأبه لبكائى .. إنه لا شىء فى الواقع .. لا شىء سوى أننى لا أملك أن أكبح الدموع عن أن تسيل من عينى » .

وإذ شربت، رد الكوب إلى مكانها ، وجلس فأشعل سيجارة، ثم أرسل زفرة خافتة .. ولم تك قد سمعته يتنهد كذلك سوى مرة أو اثنتين من قبل ، فوخزت زفرته قلبها إشفاقاً .. وكان يوجه بصره نحو النافذة فى نظرة جوفاء ، فأخذت تتأمله .. وأذهلها أنها لم تلاحظ من قبل مدى النحول الفظيع الذى أصابه فى الأسابيع الأخيرة : فلقد غار صدغاه ، وبرزت عظام وجهه من خلف جلده ، وتهدلت ثيابه عليه ، وكأنها أعدت لشخص أضخم منه ، واصطبغ وجهه الأسمر

بشحوب مخضوضر ، وبدا منهوك القوى .. كان يفرط فى العمل ، ولا ينام إلا لماماً ، ولا يكاد يصب شيئاً من الأكل .. وفى غمرة أساها وهمها ، وجدت مجالا كى ترثى له .. كان من القسوة أن تحس أنها لا تستطيع أن تفعل من أجله شيئاً !

ووضع يده على جبينه وكأن برأسه ألماً ، فهجس ببالها أن عبارتها كانت تتردد فى رأسه هو الآخر فى عنف : لست أدرى .. لست أدرى !.. كان من العجيب أن يكون لدى هذا الشخص البارد ، المتعنت ، الخجول ، مثل هذا الشوق الطبيعى إلى الأطفال، فإن معظم الرجال لا يحفلون كثيراً ، حتى بأطفالهم .. ولكن الراهبات تحدثن أكثر من مرة عن شغفه بالأطفال وهن متأثرات ، متعجبات.. وإذا كان هذا شعوره نحو أولئك الأطفال الصينيين الغريبى الخلقة ، فماذا يكون شعوره نحو .. ابنه ؟

وعضت كيتى شفتها لتتفادى البكاء من جديد .. ونظر هو إلى ساعته ثم قال : « أرانى مضطراً إلى أن أعود إلى المدينة ، فإن لدى اليوم عملا كثيراً .. هل أنت بخير ؟ » .

– آه .. أجل .. لا تهتم بى .

– أرى أنه يحسن بك أن لا تنتظرينى هذا المساء ، فقد أتأخر ، وسأحصل من الكولونيل « يو » على أى شىء يؤكل ..

.. ثم نهض مستطرداً : « لو كنت فى مكانك ما حاولت أن

أعمل اليوم شيئاً .. خليق بك أن تهونى من الأمر على نفسك .. هل تبغين شيئاً قبل أن أنصرف ؟ » .

– لا .. شكراً .. لسوف أغدو بخير ..

وتوقف برهة وكأنه غير مستقر على أمر .. ثم ، فجأة ، ودون أن ينظر إليها ، تناول قبعته وغادر الحجرة .. وسمعته يجتاز ساحة الدار ، فأحست بوحدة موحشة .. ولم تعد بها حاجة إلى أن تتجلد ، فأسلمت نفسها لدموعها ..

– ٥٧ –

● كان هواء الليل راكداً ، مشبعاً بالرطوبة .. وكانت كيتى تجلس إلى جوار النافذة تتأمل أسقف المعبد الصينى المعتمة على أضواء النجوم الواهنة ، حين جاء وولتر أخيراً .. وكانت عيناها متورمتين لفرط البكاء ، ولكنها كانت رابطة الجأش .. وعلى الرغم من كل ما كان يضنى فكرها ، إلا أنها بدت فى طمأنينة غريبة ، لعلها كانت وليدة الإعياء والإرهاق ..

وقال وولتر وهو يدخل : « ظننتك أويت إلى فراشك » :

– لم أحس بحاجة إلى النوم ، فخيل إلى أننى سأجد نسمة عليلة فى مجلسى هذا .. هل وجدت عشاء ؟

– كل ما كنت أبغى ..

وراح يذرع الحجرة الطويلة .. وأدركت أن لديه ما يود أن يقوله .. وكانت تعلم أنه محير ، مرتبك .. وظلت تنتظر فى غير

اكتراث ريثما يجمع عزمه .. وفجأة ، شرع يقول : « لقد فكرت فيما أفضيت لى به بعد ظهر اليوم ، فبدا لى أن من الخير أن ترحلى ، وقد تحدثت إلى الكولونيل « يو » فى ذلك ، فاتفقنا على أن يعين لك حراساً يرافقونك .. وفى وسعك أن تأخذى الوصيفة معك .. وبذلك تكونين فى أمان » .

– وإلى أين ترانى أذهب ؟

– إلى جوار أمك ..

– أتظنها تسر بأن ترانى ..

وأمسك برهة فى تردد ، وكأنما كان يفكر ، ثم قال : « إذن ، فلتذهبى إلى هونج كونج » .

– وماذا أفعل هناك ؟

– ستكونين بحاجة إلى كثير من العناية والرعاية ، وما أرى من الإنصاف أن أسألك البقاء هنا ..

ولم تقو على مغالبة الابتسام ، لا عن مرارة ، وإنما عن دهشة حقيقية .. ورمقته بنظرة وهى توشك أن تضحك ، ثم قالت : « لست أدرى ما الذى يجعلك قلقاً بشأن صحتى ! » .

فسار إلى النافذة ، ووقف يطل على الليل .. كانت السماء خالية من السحب ، ومع ذلك فلم تكن ترصعها نجوم كثيرة .. وقال : « ليس هذا بالمكان الملائم لامرأة فى مثل ظروفك » .

فتطلعت إلى شكله الأبيض بالقياس إلى الظلام الذى ساد فى

الخارج .. فبدا منظره رهيباً ، ومع ذلك فمن العجيب أنه لم يثر فى نفسها – فى تلك اللحظة – أى خوف !.. وسألته فجأة : « ألم تكن راغباً فى قتلى حين أصررت على مجيئى إلى هنا ؟ » .

وانقضى وقت طويل ، حتى خيل إليها أنه أعرض عن سماعها . ثم أجاب قائلا : « فى بداية الأمر » .

وسرت فى جسدها رعشة ، إذ كانت هذه أول مرة يعترف فيها بنيته .. ولكنها لم تحقد عليه لذلك ، بل إن شعورها أذهلها : كان فيه نصيب من الإعجاب ، وقسط ضئيل من العجب .. ولم تدر لم فكرت فجأة فى تشارلى تاونسند ، فبدا لها مأفوناً ، وضيعاً .. ثم قالت : « كنت تعرض نفسك لمغامرة رهيبة .. فإنى لأشك – لما أعرفه عن ضميرك المرهف – فى أنك كنت تصفح عن نفسك لو أننى مت ! » .

– ولكنك لم تموتى ، بل عشت ..

– وما شعرت فى حياتى قط بأننى أوفر صحة مما أنا اليوم !

وهفت بها رغبة إلى أن تهيب بما لديه من شفقة ورحمة .. لقد عانيا ، وهما يعيشان وسط مناظر الفزع والهلاك ، أقسى التجارب ، ورأيا ما تتضاءل إلى جانبه زلة الفسق الحمقاء .. فعندما يقف الموت متربصاً ، يحصد الأرواح كما يحصد البستانى ثمار البطاطس ، يغدو من العته أن يحفل المرء بالتصرفات القذرة التى يعرض لها جسمه هذا الشخص أو ذاك .. ليتها تستطيع أن تطلعه على مدى ما تضاءل

إليه قدر تشارلى لديها – حتى غدت تجد عناء فى أن تتمثل قسمات وجهه فى خيالها ! – وأن تبين له كيف انجاب حبه تماماً عن قلبها !. ولقد كان من جراء تلاشى شعورها نحو تاونسند ، أن فقدت الزلات العديدة التى ارتكبتها معه كل معناها ومغزاها ، فاستردت قلبها ، ولم يعد لما بذلته من جسدها أتفه الأثر فى كيانها .. ولكم هفت إلى أن تقول لوولتر : « اسمع .. ألا ترى أننا استمرأنا الحماقة زمناً طويلا ؟.. لقد تخاصمنا كطفلين ، فلم لا يقبل كل منا الآخر ونغدو صديقين ؟.. ليس ثمة ما يبرر أن لا نكون على صداقة لمجرد أننا لسنا متحابين .. » .

وكان يقف جامداً وقد ضاعف ضوء المصباح من شحوب وجهه الذى بدا كما لو كان من صخر .. ولم تكن لتطمئن إليه ، بل كانت تخشى إذا هى أخطأت اختيار كلماتها ، أن ينقلب عليها بصرامته تلك الجليدية .. كانت قد أصبحت على دراية تامة بحساسيته المرهفة ، التى كانت تخفى سخريته اللاذعة لوقايتها ، وكانت تعرف مدى إسراعه إلى إغلاق فؤاده إذا ما جرح شعوره .. وأحست بالغيظ لحظة ، لهذا الغباء منه – فما كان ثمة شك فى أن أقصى ما كان يضيره هو أن تجرح كرامته – وتبينت فى إبهام أن ذلك هو أصعب الجراح برءاً . ومن المسلم به أن الرجال يعلقون أهمية كبرى على إخلاص زوجاتهم ، ولقد توقعت حين زلت لأول مرة مع تشارلى أن تشعر باختلاف .. أن تشعر بأنها تغيرت وغدت امرأة أخرى .. ولكنها

أحست أنها كعهدها بنفسها تماماً .. لم تزدد سوى هناء وحيوية ..

وتمنت لو أمكنها أن تقول لوولتر : إن الجنين ابنه .. إن الأكذوبة لم تكن بالشيء الذى يذكر بالنسبة لها ، ولكنها تكون ولا ريب مبعث ارتياح عظيم له .. ثم إنها قد لا تكون — فى حقيقة الأمر — أكذوبة !.. كان عجيباً ذلك الشعور الخفى الذى ثار فى قلبها فمنعها من أن تستغل الشك لصالحها .. ما أسخف الرجال !.. إن دورهم فى الإنجاب غير ذى أهمية ، فالمرأة هى التى تحمل الطفل شهوراً طويلة مليئة بالقلق والألم ، ومع ذلك فإن الرجل ، لعلاقته العابرة — التى لا تستغرق سوى لحظة — بهذه العملية ، يزعم لنفسه حقوقاً تجاوز المعقول .. فلماذا يغير هذا من شعوره نحو الطفل ؟

وانتقلت بأفكارها إلى الطفل الذى كان لزاماً عليها أن تحمله .. وأخذت تفكر فيه بعاطفة الأمومة ، لا بشغف الأمومة المشتهاة ، وفى فضول متكاسل متلكىء .. ربما خرق وولتر الصمت الطويل قائلا : « أرى أنك قد تودين أن تفكرى فى الأمر قليلا ! » .

— أفكر فى أى أمر ؟

— فى اختيار الموعد الذى تحبين الرحيل فيه .

— ولكننى لا أبغى الرحيل ..

— ولم لا ؟

— إننى أحب عملى فى الدير ، إذ أعتقد أننى بذلك أجعل لوجودى نفعاً .. وإنى لأوثر أن أبقى إلى أطول أمد أستطيعه .

— أعتقد أن من واجبى أن أخبرك أنك فى ظرفك الراهن أكثر تعرضاً لأن تلتقطى عدوى أى مرض يكون حولك ..

فابتسمت فى سخرية وقالت : « أحب هذا التحايل الذى تخفى وراءه السبب الأصلى الذى تريده مبرراً لرحيلى ! » .

— لعلك لا تبقين من أجلى ؟

فترددت .. لم يكن ليحدس قط أن الانفعال العاطفى الذى أثاره فى نفسها ، كان آخر ما يمكن أن يتوقع .. كان إشفاقاً ورثاء !.. وأجابت أخيراً :

— لا .. فلست تحبنى ، بل ليخيل إلى فى كثير من الأحيان أننى أثقل عليك !

— ما كنت لأتصور أنك من ذلك النوع من الناس الذى يجود بنفسه من أجل بضع راهبات مملات ، وحفنة من الأطفال الصينيين !

فانفرجت شفتاها عن ابتسامة وقالت : « لست أرى من الإنصاف أن تزدرينى إلى هذا الحد لأنك أخطأت فى تقديرك يوم اخترتنى زوجة .. ولم يكن ذنبى أنك كنت كالبغل غباء ! » .

— إذا كنت مصرة على البقاء ، فأنت حرة بالطبع ..

ووجدت أن اصطناع الجد معه أمر عسير .. ومع ذلك فقد قالت : « يؤسفنى أنى لا أستطيع أن أتيح لك فرصة تبدى فيها شهامة. والواقع أنك مصيب ، فلست أمكث من أجل الأيتام فحسب .. وإنما ، أنت تعلم أن لى وضعاً عجيباً ، إذ ليس لى فى الدنيا من ألوذ

به :. لست أعرف شخصاً لا أثقل عليه إن أقمت عنده :. لست أعرف من يحفل البتة بحياتى أو موتى ! » .

وقطب جبينه ، ولكن فى غير غضب ، وقال : « لقد أفسدنا كل شيء .. ألسنا كذلك ؟ » .

– أما زلت راغباً فى أن تطلقنى ؟.. ما أظننى عدت أكترث لذلك ..

– إنك تعرفين ولابد أننى باصطحابك إلى هنا قد أبطلت الحجة ..

– لم أكن أعرف .. إننى – كما ترى – لم أقم بدراسة الخيانة . فماذا ترانا فاعلين إذن عندما تغادر هذا المكان ؟.. هل سنظل نعيش سوياً ؟

– أوه .. ألا ترين أن من الخير أن ندع للمستقبل أمر تدبير نفسه ؟

وكان صوته مثقلا بالضجر إلى أقصى درجة :

– ٥٨ –

● قصد « وادينجتن » بعد يومين أو ثلاثة إلى الدير حيث التقى بكيتى – إذ كان اضطرابها قد حملها على أن تستأنف عملها فوراً – فصحبها لتتناول كوب الشاى التى وعدها بها مع خليلته :.

وكانت كيتى قد تناولت العشاء – فى أكثر من مناسبة – فى دار وادينجتن .. كانت داراً مربعة ، بيضاء ، ذات طابع يميزها عن سواها ، ككافة الدور التى تشيد لموظفى الجمارك فى جميع أرجاء

الصين .. وكانت قاعة المائدة ، حيث تناولوا الطعام ، وقاعة الاستقبال – التى جلسوا فيها – مؤثثتين برياش أنيقة ، متينة ، تضفى عليهما مظهراً يجمع بين روح المكاتب وجو الفنادق ، فما كان فيهما ما ينم عن الطابع المنزلى ، حتى ليخيل لمن يدخل ذلك المنزل وأشباهه أنها لم تكن سوى مجرد أماكن لإقامة عابرة للموظفين المتعاقبين .. فلا يخطر قط بالبال أن فى طابق علوى منها غموضاً متشحاً فى غلالة من الحب والخيال !

وصعدا سلماً إلى طابق ثان ، ففتح وادينجتن باباً نفذت منه كيتى إلى حجرة واسعة ، عارية من الأثاث ، ذات جدران بيضاء علقت عليها حصائر نقشت بمختلف الخطوط الصينية .. وفى مقعد ثقيل ذى مسندين ، من الخشب الأسود المنقوش ، وإلى مائدة مربعة من نفس النوع ، جلست سليلة « مانشو » .. حتى إذا دخلت كيتى ووادينجتن ، نهضت .. ولكنها لم تسع خطوة نحوهما .. وقال وادينجتن بالإنجليزية : « هذه هى » ، ثم أردف ناطقاً بضع كلمات باللغة الصينية .. فصافحت كيتى مضيفتها ..

وبدت هذه فى غلالتها المزركشة السابغة ، نحيلة ، أطول قليلا مما توقعت كيتى على هدى ما ألفت عليه بنات الجنوب .. وكانت ترتدى فوق الغلالة سترة من الحرير الأخضر الباهت ، ذات كمين يبلغان رسغيها ويحيطان بالساعدين فى إحكام .. وقد علا شعرها المنسق فى أبهة ، غطاء الرأس المألوف لدى نساء « مانشو » ..

أما وجهها ، فكان مكسواً بالمساحيق ، كما غطيت وجنتاها – من العينين إلى الفم – بطبقة كثيفة من الطلاء الأحمر .. وكان حاجباها مندوفين بحيث استحالا إلى خط أسود رفيع ، فى حين كان فمها قرمزى اللون .. وأومضت عيناها السوداوان الواسعتان، المنحرفتان قليلا ، خلال هذا القناع ، كما لو كانتا بحيرتين من القار المذاب .. كانت تبدو كتمثال أو صنم أكثر منها امرأة ، وكانت حركاتها بطيئة ، متئدة .. وداخل كيتى شعور بأنها على شيء من الخجل وكثير من الفضول .. وهزت رأسها مرتين أو ثلاثاً وهى تنظر إلى كيتى بينما كان وادينجتن يتحدث إليها .. ولاحظت كيتى أن يديها كانتا أطول من المعتاد ، رفيعتين ملفوفتين ، فى لون العاج ، وقد طليت أظافرهما الطويلة .. وخيل لكيتى أنها لم تر قط أجمل من هاتين اليدين الرشيقتين ، النحيلتين ، اللتين أوحتا إليها بأنهما نتاج عناية امتدت قروناً لا عداد لها ..

وكانت مقلة فى كلامها ، ولكن صوتها كان عالياً ، كتغريد الطيور فى البستان .. وراح وادينجتن يترجم عباراتها قائلا لكيتى : إنها قد سرت لرؤيتها ، وإنها تسألها عن سنها وعن عدد ما أوتيت من أبناء .. وكانوا يجلسون فى ثلاثة مقاعد مستوية الظهور حول المائدة المربعة ، وما لبث أن حمل خادم أوانى الشاى الأخضر المعطر بالياسمين .. وقدمت ابنة « مانشو » إلى كيتى علبة صفيحية خضراء

تضم سجائر من ماركة «القلاع الثلاث» .. ولم يكن فى الحجرة – عدا المائدة والمقاعد – سوى القليل من الأثاث : سرير ذو حشية من القش عليه وسادة مطرزة ، وبجانبه صندوقان من خشب الصندل .

وسألته كيتى : « ماذا تراها تفعل بنفسها طلية يومها ؟ » .

– إنها ترسم أحياناً بالألوان ، وتقرض الشعر أحياناً أخرى .. ولكنها تقضى الشطر الأعظم من وقتها جالسة .. وهى تدخن، ولكن باعتدال ، وهذا من حسن الحظ لأن من واجباتى أن أمنع تداول الأفيون ..

فسألته كيتى : « وهل أنت تدخن ؟ » .

– نادراً .. أقول لك الحق إننى أوثر الويسكى على كل ما عداه .

وكانت تشيع فى الغرفة رائحة نفاذة مثيرة ، ليست بالكريهة ، ولكنها غريبة، قوية .. وعادت كيتى تقول : « نبئها بأننى آسفة لعدم استطاعتى التحدث إليها ، فإنى واثقة من أن لدى كل منا الكثير مما تحب أن تفضى به للأخرى .. »

وإذ ترجم الرجل هذا لابنة « مانشو » ، رمقت كيتى بنظرة سريعة أومضت بلمحة من ابتسام .. وكان شكلها مهيباً وقد جلست فى ثيابها الجميلة فى غير ما حرج أو ارتباك ، بينما أخذت عيناها تطلان – خلال الوجه المخضب – بنظرات حريصة ، متزنة ، غير متعمقة .. وكانت تبدو « غير حقيقية » ، كأنها صورة .. ومع ذلك فقد كان لها لطف حير كيتى ، فما كانت من قبل قد أولت تلك

(الصين) التى ألقت بها المقادير فيها ، سوى اهتمام سطحى عابر ..
أما الآن ، فقد فطنت فجأة إلى شعور جعلها تحس بشىء من القدم
والغموض فى الجو المحيط بها.. هنا كان الشرق ، بخلوده ، وغموضه ،
وظلماته .. التى كانت معتقدات الغرب ومثله ومذاهبه تبدو فجة
بجوارها . وخيل لكيتى أنها تلمح ومضة من معتقدات الشرق ومثله
فى أعماق المتبرجة التى كانت تجلس أمامها .. هنا كانت حياة غير
التى ألفتها ، فى كوكب غير الذى عاشت عليه .. وأحست كيتى بأن
مرأى هذا الصنم بوجهه المخضب ، وعينيه المنحرفتين اليقظتين ،
يجعل مشاق العالم الذى عهدته وآلامه التى خبرتها ، مجرد سفاسف
تافهة .. ولاح كأنما كان ذلك القناع الملون يخفى وراءه سر خبرة
وافرة ، عميقة زاخرة بالمعانى :: وكأنما كانت اليدان البضتان
بأصابعهما الملفوفة الطويلة المتناسقة ، تمسكان بمفتاح أحاج وألغاز
لا سبيل إلى التكهن بكنهها ..

وتساءلت كيتى : « ما الذى تفكر فيه هذه المرأة طيلة النهار؟ »
فأجاب وادينجتن مبتسماً : « لا شىء » :
— إنها رائعة .. قل لها : إننى لم أر مثل يديها الجميلتين أبداً ..
ترى ما الذى يعجبها فيك ؟

وترجم وادينجتن السؤال مبتسماً ، ثم ترجم الجواب قائلا :
« تقول : إننى طيب » .. فعلقت كيتى ساخرة : « كأنما بين النساء
من تحب رجلا لفضيلته واستقامته ! » .

لم تضحك « المانشوية » سوى مرة واحدة ، وذلك حين أعربت
كيتى — سعياً منها إلى وصل حبل الحديث — عن إعجابها بسوار من
حجر اليشم كانت المرأة تلبسه ، فبادرت إلى خلعه ، وحاولت كيتى
أن تلبسه ولكنها تبينت أنه لا يتجاوز رسغيها رغم صغر يديها !..
إذ ذاك طفقت صاحبته تضحك كالطفل وقالت لوادينجتن شيئاً ،
ثم نادت وصيفة وأصدرت إليها أمراً ، وإذا بالوصيفة تعود بعد
لحظة حاملة زوجاً من الأحذية رائع الحسن .. وقال وادينجتن :
« إنها تود أن تهديك هذين إذا استطعت لبسهما ، ولسوف تجدين
أنهما يصلحان كنعلين لغرفة النوم .. » .

فقالت كيتى فى رضى : « إنهما يلائمانني كل الملاءمة » .
بيد أنها لاحظت بسمة وقحة تطوف بوجه وادينجتن ..فسألته :
« هل هما كبيران بالنسبة لها ؟ » .
— إنهما أكبر من قدميها بمراحل ..

وضحكت كيتى .. وإذ ترجم وادينجتن ما دار ، ضحكت
صاحبته والوصيفة بدورهما.. وعندما سارت كيتى ووادينجتن
— بعد ذلك بقليل — يصعدان التل ، التفتت إليه مبتسمة وسألته :
« إنك لم تنبئنى بأنك تكن لها حباً عظيماً ..! » .
— وما الذى يحملك على أن تظنى أننى أكن لها ذلك الحب ؟
— قرأته فى عينيك .. وإنه لغريب .. كأنما هو حب موجه
إلى طيف .. أو إلى حلم .. حقاً إن من العسير الحكم على الرجال ..

فلقد ظننتك فى البـداية كغيرك ، ولكنى أشعر الآن بأننى لا أدرى أبسط الأمور عنك ! » :

وسألها وادينجتن فى اقتضاب مباغت إذ بلغا دارها : « لماذا رغبت فى أن تريها ؟ » .

وترددت كيتى لحظة قبل أن تجيب قائلة : « إننى أبحث عن شىء لا أكاد أدرى كنهه ، بيد أننى أحس بأن من المهم لى أن أعرفه .. فإذا ما عرفته ، فسيغير ذلك كل شىء .. ربما كانت الراهبات يعرفنه ، فإننى أشعر حين أكون معهن بأنهن يكتمن سراً لا يردن أن يشركننى فيه .. ولست أدرى لم خطر ببالى أننى لو رأيت ابنة مانشو فقد ألمح قبساً مما أبحث عنه .. أو لعلها تخبرنى عن السر لو كان ذلك بوسعها !

— وما الذى حملك على أن تظنى أنها تعرفه ؟

ورمقته كيتى بنظرة من ركن عينها ، لكنها لم تجب .. بل سألته بدورها : « هل تعرفه أنت ؟ » .

فابتسم وهز كتفيه قائلا : « إنه عبادة الطبيعة !.. بعضنا يبحث عن الطريق إليها فى « الأفيون » ، وبعضنا يفتش عنها فى الله .. وبعضنا فى الويسكى .. وبعضنا فى الحب .. لكن الطريق إليها فى أى الحالات .. لا تقود إلى شىء ! » .

— ٥٩ —

● اندمجت كيتى مرة أخرى فى عملها مرتاحة إلى تواتره الرتيب ،

ومع أنها كانت تشعر فى باكورة كل صباح بشىء من التوعك ، إلا أنه كان فى نفسها من الانتعاش ما يمكنها من أن تحول دون تسلط هذا التوعك عليها .. وأدهشها ما كانت الراهبات يبدينه من اهتمام بها .. بل إن منهن أخوات كن فى الماضى — إذا رأتهن فى الردهة — لا يزدن على إن يحيينها ، فأصبحن الآن ينتحلن الأعذار ليفدن إلى الحجرة التى كانت تعمل فيها ، ويثرثرن معها فى انفعال مستعذب كما لو كن طفلات .. وكانت الأخت سان جوزيف لا تفتأ تخبرها فى تكرار كاد يصبح مملا ، كيف أنها ظلت أياماً تقول لنفسها : « ترى هل هى حامل ؟ » .. أو « لا عجب إن كانت كذلك » .. حتى إذا أغمى على كيتى ، هتفت : « لا مجال الآن للشك ، فالأمر واضح لكل ذى عينين » .. وأخذت تروى لها القصص الطوال عن المرات التى أنجبت فيها زوجة أخيها أطفالا ، وكانت قصصاً كفيلة بأن تبعث شيئاً من الذعر فى نفس كيتى لولا ما أوتيت من روح مرحة .. وكانت الأخت سان جوزيف تجمع بأسلوب عذب بين وقائع نشأتها — حيث كان ثمة نهر يتخلل مروج مزرعة أبيها ، وعلى ضفته أشجار الحور ترتجف تحت أرق النسمات — وبين ألفة حبيبة بأمور الدين . ولقد أخذت يوماً تحدث كيتى عن « البشرى » — بمولد المسيح — وهى مؤمنة بأن « كافرة » مثلها — فالبروتستانت مارقون فى نظر الكاثوليك ! — لا يمكن أن تكون على دراية بمثل هذه الشئون .. فمضت تقول :

— إننى لا أستطيع أن أقرأ هذه السطور فى الكتاب المقدس دون

أن أبكى .. ولست أدرى لذلك سبباً ، لكنه يبعث فى نفسى شعوراً غريباً ..

ثم انطلقت تردد بالفرنسية ، وبلهجة بدت لكيتى غير مألوفة ، وفى دقتها شىء من الفتور والجمود ، هذه الآية من الإنجيل : « وجاءها الملاك وقال : أبشرى أيتها المجيدة ، فالله معك .. مباركة أنت بين النساء » .

أجل ، كانت معجزة الميلاد تهب فى الدير كريح قوية تعبث بالبراعم البيضاء فى بستان .. ولقد أقلق أولئك العقيمات وأثارهن التفكير فى أن كيتى تحمل فى أحشائها طفلا ، فأصبحت تزعجهن قليلا ، وتفتنهن .. وأخذن ينظرن إلى الناحية البدنية من حالتها بإدراك « خشن » غير مرهف ، إذ كن ينحدرن من أصلاب فلاحين وصيادى سمك .. ولكن قلوبهن الساذجة كانت تنطوى على تهيب .. كان يقلقهن التفكير فى حملها ، ومع ذلك فقد كان يبعث فيهن انفعالا سعيداً وغريباً .. وأنبأتها الأخت سان جوزيف بأنهن كن جميعاً يصلين من أجلها .. ولقد رثت الأخت سان مارتان لها لأنها غير كاثوليكية ، ولكن الأم الرئيسة أنبتها لهذا ، وقالت إن من الممكن للمرأة أن تكون طيبة ولو كانت بروتستانتية ، وإن الله الرحيم كفيل بأن يدبر ذلك وفق ما يرى :.

وكانت كيتى تشعر بتأثر وسلوى لما أثارته من اهتمام ، ولكنها دهشت إلى أبعد حدود الدهشة حين تبينت أن الأم الرئيسة كانت

ـ رغم الجمود الذى تطبعها به مكانتها الدينية ـ تعاملها ببشاشة جديدة عليها .. فلقد كانت فى الماضى لطيفة إزاء كيتى ، ولكن لطفها كان يصدر فى أسلوب جامد ، أما الآن فقد أخذت تغمرها بحنان فيه شىء من الأمومة .. واكتسب صوتها نبرة جديدة ، رقيقة ، وأفعمت عيناها دعابة طارئة ، كما لو كانت كيتى طفلة أتت عملا ينم عن مهارة ويبعث على السرور .. وكان هذا يؤثر فى نفسها بشكل غريب ، فإذا نفسها تغدو كبحر هادئ ينساب فى جلال ، وفى اتساعه المبهم رهبة ومهابة ، ثم إذا بشعاع من الشمس يسقط عليه فيثير فيه يقظة ويحيله ودوداً مرحاً .. وكثيراً ما أصبحت توافى كيتى حوالى الغروب فتجلس إليها ، وهى تحاول أن تنتحل لنفسها عذراً واضحاً .. وقد قالت لها مرة : « يجب أن أحرص على أن لا تتعبى نفسك يا صغيرتى ، وإلا فلن يغفر لى الدكتور فين .. آه من أولئك البريطانيين الذين يجيدون السيطرة على أنفسهم ! .. فها هو ذا مبتهج بدرجة تفوق كل حد ، ومع ذلك فإنك إذا كلمته عن هذا الأمر انقلب شاحباً .. » .

وتناولت يد كيتى تربتها فى عطف وهى تواصل الحديث قائلة :

« لقد أخبرنى الدكتور فين بأنه رغب فى أن ترحلى عن هنا ، ولكنك أبيت لأنك لا تطيقين أن تفارقينا .. ولقد كان هذا كرماً منك يا ابنتى ، وأحب أن تعرفى أننا نقدر العون الذى تبذلينه لنا .. بيد أننى أظنك لم تكونى راغبة فى أن تفارقيه هو الآخر ، وهذا أفضل ، لأن مكانك

دائماً إلى جواره ، وهو فى حاجة إليك .. آه ، لست أدرى ما الذى
كنا نفعله بدون هذا الرجل الرائع .. »

فقالت كيتى : « إننى أغتبط إذ أرى أنه كان قادراً على أن
يؤدى لكن خدمة .. » .

— يجب أن تحبيه بكل قلبك ياعزيزتى .. فهو قديس .

وابتسمت كيتى ، وإن تنهدت فى أعماقها ! .. لم يعد فى وسعها أن
تفعل من أجل وولتر سوى أمر واحد ، ولم تكن تدرى كيف تفعله
.. كانت تبغى أن يصفح عنها ، لا من أجلها ، وإنما من أجل نفسه ،
إذ أحست أن هذا وحده كفيل بأن يريح باله ويبعث فى نفسه السكينة
.. وكان من العبث أن تسأله الصفح ، وحتى إذا أحس بأنها تشتهى هذا
الصفح لخيره أكثر منه لخيرها ، فإن كرامته العنيدة ستحمله على
الرفض ، مهما كبده ذلك .. ومن العجيب أن كبرياءه لم تعد تثير
أعصابها ، بل إنها بدت طبيعية فلم تزدها ألا أسفاً من أجله .. وكانت
الفرصة الوحيدة تلوح فى أن يقع حادث غير مرتقب يضطره إلى أن
يتخلى عن حذره .. وكان يجول بخاطرها أنه قد يرحب بفورة عاطفية
جياشة تحرره من كابوس الغيظ والاستياء الجاثم عليه ، ولكنه فى
جهالته العاطفية ما كان ليتورع عن مقاومة هذه الفورة — إذا واتته —
بكل قواه !

أفلم يكن مما يدعو إلى الرثاء ، أن يعذب بنو الإنسان أنفسهم على
هذه الصورة ، خلال العمر القصير الذى يقضونه فى دنيا مليئة بالألم ؟

— ٦٠ —

● على الرغم من أن الأم الرئيسة لم تتحدث إلى كيتى أكثر من
ثلاث مرات أو أربع ، وأن الحديث لم يطل مرة أو اثنتين منهـا ،
لأكثر من عشر دقائق ، إلا أنها استطاعت أن تحدث أعمق الأثر فى
نفس كيتى .. كانت شخصية الأم الرئيسة كبلد يبدو لأول وهلة
مترامى الأطراف ، ضنيناً بالحفاوة ، ولكنك لا تلبث أن تكتشف
فيه قرى باسمة بين أشجار الفاكهة فى ثنايا الجبال الشاهقة ، ولأنهاراً
تنساب فى ترقرق بهيج خلال المروج اليانعة .. غير أن هذه المناظر
وإن راقت لك وأثارت إعجابك ، بل وإن بعثت فى نفسك السكينة ،
لا تجعلك تشعر بأنك فى وطنك ، فى تلك البلاد ذات المرتفعات الشامخة
والفضاء الشاسع ..

كذلك كان من المستحيل على كيتى أن تشعر بألفة سابغة نحو
الأم الرئيسة ، إذ كان يحيط بها ذلك الشىء المبهم الذى كانت تحس
به محيطاً بالراهبات الأخريات — حتى الأخت سان جوزيف الطروب
الثرثارة — ولكنه فى حالة الأم الرئيسة كان يقوم كحاجز لاسبيل إلى
اجتيازه تقريباً .. كان يبعث فى نفسك شعوراً غريباً ، يثير فى الأعماق
قشعريرة ، ويوحى بالرهبة والمهابة ، ويصور لك أنها وإن كانت
تسير على الأرض التى تسير أنت عليها ، وتعنى بالشئون الدنيوية ،
إلا أنها تعيش فى الواقع فى كوكب ليس لك من سبيل للوصول إليه !

ولقد قالت لكيتى مرة : « ليس بكاف لمن وهبت نفسها للدين

أن تؤدى الصلوات فى مواعيدها ، بل أن تكون حياتها صلاة دائمة بلا انقطاع » .. ومع أن حديث الرئيسة كان يدور دائماً حول الدين ، إلا أن كيتى أحست بأن هذا الاتجـاه يأتى بالسليقة ، دون ما جهد من جانبها للتأثير عليها .. حتى لقد بدا لها من الغريب أن تقنع الأم الرئيسة – وهى التى طبعت على الخير – بأن تترك كيتى سادرة فيما كانت هى ولا بد تعتبره جهلا خاطئاً ، أو ضلالا .. !

وجلستا معاً ذات مساء .. وكان النهار قد بدأ يجنح إلى القصر ، وضوء الغروب الخافت يبعث فى النفس راحة وشجى .. وبدت الأم الرئيسة جد متعبة ، وقد ابيض وجهها الآسى وتراخت عضلاته ، وفقدت عيناها الداكنتان البديعتان بريقهما النارى .. ولعل التعب مال بها إلى أن تبدى قدراً من الثقة نادراً بالنسبة إليها ، فإذا بها تقول بعد طول تأمل وتفكير :

– هذا يوم من أيامى التاريخية يا ابنتى ، لأنه الذكرى السنوية لليوم الذى عقدت فيه العزم نهائياً على أن أهب نفسى للدين .. كنت قد قضيت عامين أفكر فى الأمر ، بيد أننى كنت أعانى نوعاً من الخوف ، إذ كنت أرهب أن يعاودنى الميل إلى الدنيا .. على أننى حين حضرت القداس فى ذلك الصباح ، أقسمت أن لا يحل المساء حتى أكون قد صارحت أمى العزيزة برغبتى .. وبعد أن « تناولت » الخبز المقدس ، سألت الله أن ينزل السكينة على نفسى .. وخيل إلى أنه أجابنى قائلا : « لن تنالى السكينة إلا إذا كففت عن الرغبة فيها .. ! » .

ولاح أن الأم الرئيسة قد تاهت فى ذكريات الماضى ، وهى تستطرد : « فى ذلك اليوم ، كانت إحدى صديقاتنا – مدام دوفيرنو – قد رحلت إلى دير « الكرمل » دون أن تخطر أحداً من أقاربها ، إذ كانت تعرف أنهم يعارضون إقدامها على هذه الخطوة .. غير أنها كانت أرملة . فكانت لذلك تملك الحق فى أن تفعل ما يحلو لها .. وكانت إحدى بنات عمى قد ذهبت تودع الهاربة العزيزة ، فلما عادت فى المساء كانت شـديدة التأثر .. ولم أكن قد فاتحت أمى فيما شغل خاطرى ، بل كنت أرتجف لمجرد التفكير فى إخبارها ، ومع ذلك فقد كنت راغبة فى أن أفى بما عاهدت الله عليه أثناء القداس ، فرحت أوجه لابنة عمى كل نوع من الأسئلة .. ولم تفت أمى – التى كانت تبدو منشغلة فى نسج سجادة كانت عاكفة عليها – كلمة مما تبادلنا .. وكنت لا أفتأ أقول لنفسى أثناء الكلام : ليست أمامى دقيقة أضيعها إذا شئت أن أفاتحها اليوم ..

« لشد ما أعجب إذ أذكر المنظر الآن بجلاء .. كنا نجلس حول المائدة .. مائدة مستديرة ، مكسوة بغطاء أحمر ، وكنا نشتغل على ضوء مصباح ذى مظلة خضراء .. وكانت ابنتا عمى تقيمان معنا ، وقد انهمكنا جميعاً فى نسج قماش كالسجاد كى نعيد كساء مقاعد قاعة الجلوس .. تصورى أن كساءها لم يكن قد جدد منذ أيام لويس الرابع عشر ، حين اشترى لأول مرة .. ومن ثم غدا باهت اللون كالحاً ، فكانت أمى تقول إنه مبعث للخجل ..

« وحاولت أن أنطق بالكلمات ، ولكن شفتى أبتا أن تتحركا .. ثم ، وفجأة ، قالت لى أمى بعد بضع دقائق من الصمت : « إننى فى الواقع لا أستطيع أن أفقه سر تصرف صديقتكن ، فلست أحب هذا الرحيل دون ما كلمة لكل هؤلاء الذين ينزلونها أعز منزلة فى قلوبهم .. إنه تصرف مسرحى يبدو لذوقى نابياً ، فإن المرأة الطيبة المنبت والتربية لا تقدم على شىء يثير كلام الناس .. وإنى لآمل إذا ما خطر لك يوماً أن تسببى لنا أعظم الأسى برحيلك ، أن لا تعمدى إلى الفرار كما لو كنت تأتين جرماً ! » .

« وكانت تلك خير لحظة ملائمة لى كى أتكلم ، لكنى كنت من الضعف بحيث لم أستطع سوى أن أقول : « آه .. طيبى بالا يا أماه ، فما أظننى أقوى على ذلك الفرار ! » .. ولم تجب أمى ، بينما تولانى الندم لأننى لم أجرؤ على أن أجهر بما فى نفسى .. وخيل إلى أننى أسمع كلمات الرب إلى القديس بطرس : « يا بطرس ، ألست تحبنى ؟ » .. أواه ! .. لشد ما كان ضعفى وجحودى ! .. كنت أحب الراحة التى كنت أنعم بها ، والحياة التى كنت أحياها ، وأسرتى ، وأسباب لهوى ومسرتى .. وفيما كنت غارقة فى مثل هذا التفكير المرير ، قالت أمى ــ بعد هنيهة ــ كأنما لم يكن حبل الكلام قد انقطع : « ومع ذلك ياأوديت فما أظنك ستموتين دون أن تقدمى على عمل يترك أثراً باقياً » .

« وكنت أتخبط بين لهفتى وأفكارى ، بينما مضت ابنتا عمى فى عملهما فى سكون ، لا تدريان ما كان يخفق به قلبى .. وفجأة تركت

أمى النسيج يهوى من يديها ، وتطلعت إلى فى اهتمام وهى تقول : « آه يا طفلتى الحبيبة .. إننى لواثقة من أنك ستنتهين إلى الرهبنة .. » .

« فأجبتها : « أجادة أنت فيما تقولين يا أمى الطيبة ؟ .. إنك بكلماتك تكشفين عن أعمق فكرة ورغبة فى فؤادى » .. وصاحت ابنتا عمى دون أن تدعا لى مجالا لإتمام حديثى : « أجل .. لقد انقضى على أوديت عامان لم تفكر خلالهما فى شىء آخر ، ولكنك لن تسمحى لها يا امرأة العم .. يجب أن لا تسمحى لها » .. فقالت أمى : « ولماذا نرفض ياطفلتى العزيزتين إذا كانت هذه إرادة الله ؟ » .

« وكأنما أرادت ابنتا عمى أن تحولا مجرى الحديث ، فراحتا تسألاننى عما اعتزمت أن أفعل بالتوافه التى كنت أمتلكها ، وأخذتا تتشادان ــ فى مرح ــ على من منهما تستولى على هذا ، ومن منهما تستولى على ذاك .. بيد أن هذا المرح لم يدم سوى فترة قصيرة جداً ، ثم انخرطنا فى البكاء .. وما لبثنا أن سمعنا وقع قدمى أبى وهو يصعد السلم » .

وأمسكت الأم الرئيسة لحظة عن الكلام ، لترسل زفرة من صدرها ، ثم استطردت : « وكان النبأ شديد الوقع على أبى ، فقد كنت ابنته الوحيدة ، والرجال عادة يكنون لبناتهم شعوراً أعمق مما يكنون لأبنائهم .. » .

فقالت كيتى مبتسمة : « من نكد الحظ أن يكون للمرء قلب » .

ــ ومن حسن الحظ أن يكرس المرء هذا القلب لحب المسيح ..

وفى تلك اللحظة أقبلت صبية على الأم الرئيسة ، وأرتها لعبة

طريقة وقعت فى يدها ، وهى مطمئنة إلى اهتمامها .. فوضعت الأم الرئيسة يدها الرخصة الجميلة على كتف الصبية ، فاستكانت هذه لها .. وخفقت مشاعر كيتى وهى تلمح الابتسامة الحلوة التى ارتسمت على وجه الأم الرئيسة ، والتى كانت – مع ذلك – مجردة من الشعور الدنيوى بالذات .. فقالت : « من الرائع حقاً أن يشهد المرء ما يكنه لك أيتامك من حب فياض .. وأعتقد أننى أزهو فخراً لو استطعت أن أثير فى نفس أحد مثل هذا الولاء الصافى ! » .

وابتسمت الأم الرئيسة ابتسامتها الجميلة « اللادنيوية » مرة أخرى ، وقالت : « ليس ثمة سوى طريق واحد لكسب القلوب ، وذلك بأن يجعل المرء نفسه على غرار أولئك الذين يحبونه .. » .

– ٦١ –

● لم يعد ولتر فى ذلك المساء إلى الدار لتناول العشاء ، فانتظرته كيتى لفترة وجيزة – إذ أنه كان يحرص دائماً على أن يرسل إليها يخطرها إذا اضطر إلى التأخر فى المدينة – لكنها جلست أخيراً إلى المائدة ، فلم تصب سوى نذر يسير جداً مما حوته الأطباق العديدة التى قدمها لها الطاهى الصينى فى سخاء ، غير مراع انتشار الوباء وصعوبة الحصول على المؤن .. ثم استلقت فى مقعدها الخيزرانى بجانب النافذة المفتوحة ، وأسلمت نفسها لجمال التل الذى رصعت النجوم سماءه ، وقد أحست للصمت طمأنينة وسكينة ..

ولم تحاول أن تقرأ .. فقد طفت أفكارها على سطح ذهنها

كسحابات بيضاء صغيرة انعكست على سطح بحيرة ساكنة .. وكانت من التعب بحيث لم تحاول أن تتشبث بإحدى هذه الأفكار وتتمشى معها ، وتستغرق فيما يتفرع عنها .. وإنما راحت تجوس على غير هدى فيما كان بنفسها من آثار خلفتها أحاديث الراهبات .. كان من الغريب أن مذهبهن لم يحرك فيها أى شعور ، وإن كانت الحياة التى يحيينها قد مست شغاف قلبها . وما كان ليخطر ببالها أى احتمال فى أن يأسرها الإيمان بمذهبهن يوماً .. وتنهدت وهى تحس بأن هذا الضوء الأبيض المنبثق إذا فاض على نفسها قد يهون كل شىء عليها .. ولقد تولتها الرغبة مرة أو مرتين فى أن تفضى للأم الرئيسة بشقوتها وسر تعاستها ، ولكنها لم تجسر ، فما كانت لتحتمل أن يسوء رأى تلك المرأة الجليلة فيها ، فإن ما فعلته سيبدو لها بطبيعته ذنباً لا يغتفر .. وكان أغرب ما فى الأمر أنها هى لم تكن ترى فيه إثماً بقدر ما كانت تراه غباء وبشاعة !

وكان فى أعماقها هاجس يهمس لها بصوت مختنق بما يجعلها تنظر إلى علاقتها مع « تاونسند » كحادث يدعو للأسف ، بل للفزع ، لكن نسيانه أجدى من الندم ! كان مثله كمثل ارتكاب هفوة فى حفلة ، فليس ثمة ما يفعل إزاء الخطأ .. قد يكون فظيعاً ، وقد يكون مكدراً ، ولكن من قلة الإدراك ونقص العقل أن يوليه المرء أهمية أكثر مما ينبغى ..

وارتجفت إذ فكرت فى تشارلى بجسمه الملىء المعتنى بملبسه ، وشكل فكه غير الواضح ، وطريقته فى الوقوف وقد أبرز صدره

كى لا يبدو تكرش بطنه !.. وكان طبعه الدموى ينم عن نفسه بتلك العروق الحمراء الرفيعة التى سرعان ما تتبدى على خديه المتوردين كأنها الشبكة .. ولقد كانت تحب حاجبيه الكثيفين .. كان يتراءى لها فيهما طابع حيوانى مثير !

والمستقبل ؟.. كان من الغريب أن التفكير فى هـذا المستقبل لم يكن يثير فيها أى انفعال أو فضول ، فلم تستطع أن تنفـذ إلى أعماقه .. من يدرى ، ربما ماتت وهى تضع الطفل – فلقد كانت شقيقتها دوريس أقوى منها بكثير ، ومع ذلك فإنها كادت تقضى أثناء الوضع – وابتسمت كيتى وهى تفكر فى ارتياح أمها إذ قامت دوريس بواجبها فأنجبت وريثاً للقب الذى ناله زوجها حديثاً !.. وخطر لها : لئن كان المستقبل مبهماً بهذا الشكل ، فليس لهذا سوى معنى واحد : لعله من غير المقدر لها أن ترى هذا المستقبل ! ومن المحتمل إذ ذاك أن يسأل وولتر أمها أن ترعى الطفل ، إذا عاش .. وكانت كيتى تدرك إدراكاً يصل بها إلى حد التأكد ، أن وولتر برغم عدم اطمئنانه إلى أبوة الطفل ، لن يحجم عن معاملته فى كرم – فقد كان من الممكن دائماً الاطمئنان إلى حسن مسلك وولتر وتصرفه مهما كانت الظروف ! – حقاً إنه لما يرثى له أنها لا تستطيع أن تحبه ، رغم صفاته المهذبة ، وبعده عن الأنانية ، وشرفه ، وذكائه ، وإحساسه !.. إنها لم تعد تشعر بأقل خوف منه ، وإنما كانت تحس بالأسف من أجله ، وإن كانت لا تملك – فى الوقت نفسه – إلا أن

ترى أنه سخيف بعض الشىء .. كان عمق انفعالاته العاطفية يوهن من صلابته ، حتى لقـد داخلها شعور بأنها تستطيع يوماً ما ، وبطريقة ما ، أن تحتال عليه حتى تحمله على الصفح عنها !.. ولقـد راحت هـذه الفكرة تلح عليها ، موحية إليها بأنها بذلك إنما تهبه التعويض الممكن الوحيد عما سببته له من أسى ، فإن زوال دواعى الشجون كفيل بأن يريح باله .. ومع أنه كان من دواعى الرثاء أن يكون تذوقه للفكاهة ضئيلا ، فقد خيل إليها أن سيأتى يوم يضحكان فيه معاً من تلك الطريقة التى عذبا بها نفسيهما ..

وبرح بها التعب ، فحملت المصباح إلى غرفتها ، ونضت عنها ثيابها ، ثم اندست فى الفراش .. وسرعان ما استغرقت فى النعاس .

– ٦٢ –

● بيد أنها أوقظت على دوى طرقات عالية ، لم تستوثق من أنها طرقات حقيقية ، إذ كانت مندمجة فى الحلم الذى انتزعت منه .. غير أن الطرقات استمرت ، وفطنت إلى أنها ولابد تنهال على باب السياج الخارجى .. وكان الظلام دامساً ، لكن عقربى ساعتها كانا مطليين بالفسفور ، فاستطاعت أن ترى أنهما يشيران إلى الثانية والنصف صباحاً .. وتوقعت أن يكون وولتر هو القادم ، وأنه عجز عن إيقاظ الخادم ، فهمست لنفسها : لشد ما تأخر فى الخارج !

وتوالت الطرقات ، مطردة فى ارتفاعها ، وقد بدت فى سكون الليل مفزعة رهيبة .. ثم توقف الطرق ، وسمعت صوت المزلاج

الثقيل يزاح عن مكانه .. إن وولتر لم يعتد أن يتأخر فى العودة إلى هذا الوقت .. يا له من مسكين !..لا بد أنه مرهق !.. وتمنت لو أن عقله ألهمه أن يأوى مباشرة إلى سريره بدلا من أن يعمل كعادته فى معمله الخاص بالبيت !

وسمعت أصواتاً ، وأناساً يلجون ساحة الدار .. وكان هذا غريباً ، فإن وولتر ألف — إذا عاد إلى البيت متأخراً — أن يتجشم العناء ليتسلل فى هدوء كى لا يزعجها .. وهرع شخصان أو ثلاثة يصعدون السلم الخشبى فى حركة خفيفة سريعة .. حتى وصلوا إلى الغرفة المجاورة : وأحست كيتى بشىء من الخوف ، فلقد كان يكمن فى ذهنها دائماً الخوف من حدوث ثورة ضد الأجانب .. ترى هل حدث شىء من هذا ؟ وراح قلبها يخفق فى سرعة ، وقبل أن تجد وقتاً لتحدد معالم أفكارها المبهمة ، اجتاز شخص ما الغرفة المجاورة، وطرق بابها هاتفاً : « مسز فين » .

وعرفت فى الصوت صوت وادينجتن ، فتساءلت : « نعم .. ماذا هناك ؟ » .

— أرجو أن تنهضى فوراً ، فإننى أحمل إليك نبأ ..

ونهضت فارتدت ثوباً ، وفتحت الباب .. فوقع بصرها على « وادينجتن » فى سروال صينى وسترة ، وكان خادم الدار يحمل مصباحاً متوهجاً من مصابيح الزيت « كلوب » .. وعلى مسافة ، وقف ثلاثة من الجنود الصينيين فى زيهم العسكرى !.. وذعرت

كيتى إذ رأت التجهم يعلو وجه وادينجتن ، وكان شعره مشعثاً كأنه قفز من سريره لفوره ..

وشهقت متسائلة : « ماذا جرى ؟ » .

— يجب أن تحتفظى بهدوئك ، إذ ينبغى ألا نضيع لحظة واحدة.. ارتدى ثيابك سريعاً وتعالى معى ..

— ولكن ، ماذا هناك ؟.: هل حدث شىء فى المدينة ؟

كان مرأى الجنود قد أوحى إليها لأول وهلة بأن ثمة ثورة ، وأنهم جاءوا لحمايتها .. ولكن وادينجتن قال : « لقد سقط زوجك مريضاً ، ونريدك أن تأتى فى الحال » .

فصرخت : « وولتر ؟ » .

— لا تنزعجى :: لست أدرى حقيقة الأمر تماماً ، فقد أوفد « الكولونيل يو » هذا الضابط إلى يسألنى أن أرافقك فوراً إلى الثكنات ..

وحملقت كيتى لحظة وقد سرى فى قلبها برود مفاجئ ، ثم تحولت وقالت : « سأكون متأهبة بعد دقيقتين » .. فأردف : « لقد جئت كما كنت .. كنت نائماً ولم أجد وقتاً لأكثر من ارتداء السترة والحذاءين .. » .. ولم تسمع ما قال .. وارتدت أول ثياب وقعت فى يدها على ضوء النجوم .: وبدت أصابعها فجأة ثقيلة الحركة ، حتى لقد خيل إليها أن دهراً قد انقضى قبل أن تعثر على «الكبسولتين» الصغيرتين اللتين تضمان فتحة ثوبها حول قفاها .. ثم طرحت على

كتفيها الشال الصينى الذى كانت ترتديه فى المساء، وقالت إذ فرغت: « لم أرتد قبعة ، فما أظن بى حاجة إليها .. أليس كذلك ؟ » .

فأجاب وادينجتن : « بلى » .. وتقدم الخادم رافعاً المصباح ، فأسرعا فى إثره يغادران الدار .. وقال وادينجتن : « حذار من أن تسقطى .. خليق بك أن تستندى إلى ذراعى » .

وسار الجنود خلفهما مباشرة ، وأردف وادينجتن : « لقد أرسل الكولونيل (يو) محفتين فى انتظارنا على الضفة الأخرى للنهر » .. ثم انحدروا من التل بخطى متعجلة ، وكيتى لا تقوى على النطق بسؤال كان يرتعش على شفتيها فى توجس وجزع — فلقد كانت فى خوف من الجواب ! — وبلغوا الضفة ، فإذا بزورق ينتظرهم ، وفى مقدمته خيط من ضوء ينم عنه .. وإذ ذاك واتتها القوة كى تتساءل : « أهى الكوليرا ؟ » :

وأجاب وادينجتن : « أظن ذلك » .

فتوقفت ، وندت منها صرخة واهنة .. ولكن وادينجتن مد يده يعينها على الهبوط إلى الزورق ، وهو يقول : « أعتقد أن عليك أن تسرعى ما استطعت » :

وكانت المسافة قصيرة ، وسطح النهر هادئ إلى درجة الركود.. ووقفوا جميعاً فى مقدمة القارب ، بينا راحت امرأة تسيره بمجداف واحد ، وفى حجرها طفل صغير :: وقال وادينجتن : « لقد فاجأه

المرض بعد ظهر اليوم .. أقصد بعد ظهر الأمس ، فنحن الآن فى اليوم الجديد » .

— ولماذا لم استدع فى الحال ؟

وكانا يتكلمان همساً رغم أنه لم يك ثمة مبرر لذلك .. ولم تكن كيتى تتبين وجه صاحبها فى الظلام ، ولكنها كانت تحس بقلقه .. وأجاب : « لقد أراد الكولونيل (يو) أن يدعوك ، ولكن وولتر أبى عليه ذلك .. إن الكولونيل (يو) يلازمه طيلة الوقت .. » .

— كان ينبغى أن يرسل فى طلبى ولو لم يشأ « وولتر » .. إنها قسوة !

— كان زوجك يعرف أنك لم ترى قط مصاباً بالكوليرا .. إنه منظر رهيب ، تتقزز له النفس .. لذلك لم يشأ أن تريه !

فقالت بصوت مختنق : « ولكنه زوجى ، قبل أى اعتبار » .. ولم يجب وادينجتن ، فعادت تتساءل : « ولماذا يتاح لى الآن أن أذهب إليه ؟ » .. فوضع وادينجتن راحته على ذراعها وقال : « يجب يا عزيزتى أن تتجلدى .. يجب أن تعدى نفسك لأسوأ الظروف ! » .

فأرسلت أنة معولة محزونة ، وأشاحت بوجهها قليلا ، إذ لمحت الجنود الصينيين الثلاثة ينظرون إليها .. وأوحى إليها بياض أعينهم بفكرة طارئة ، فتساءلت : « أهو يحتضر ؟ » .

– لست أدرى سوى ما ذكره الكولونيل « يو » للضابط الذى أوفده لى : وعلى هدى هذه الرسالة أعتقد أن زوجك قد انهار تماماً .

– أو لا مجال للأمل على الإطلاق ؟

– يؤسفنى أشد الأسف أن أعرب عن خشيتى – إذا لم نصل إلى هناك سريعاً – أن لا نجده على قيد الحياة !

وراحت ترتعش ، وانحدرت الدموع على وجنتيها :: بينما استطرد وادينجتن : « لقد كان ينهك نفسه بالعمل كما تعرفين ، فلم تبق لديه قوة للمقاومة » .. وإذ ذاك تملصت من قبضته فى انفعال ، وقد أهاجها أن يتكلم بذلك الصوت الخافت ، المحزون !

وبلغوا الجانب الآخر للنهر ، فتقدم خادمان صينيان كانا على الضفة وأعانا كيتى على الهبوط : وكانت المحفتان فى الانتظار ، فلما استوت فى محفتها ، قال وادينجتن لها : « اجتهدى فى أن تسيطرى على أعصابك ، فلسوف تحتاجين إلى كل جلدك » :

– سل الحمالين أن يسرعوا ..

– إن لديهم أوامر بأن يتعجلوا بقدر الإمكان ..

ومر الضابط فى محفته ، فتقدم الجمع ، وهو يهيب بحمالى محفة كيتى . وسرعان ما رفع الحمالان المحفة برشاقة فأسندا أعمدتها إلى كتفيهما ، وانطلقا فى خطى سريعة .. ومحفة وادينجتن فى إثرهما مباشرة : واجتاز الجميع التل مسرعين ، وقد تقدم كل محفة رجل يحمل مصباحاً : وإذ بلغوا بوابة الماء وجدوا حارس البوابة يقف

حاملا مشعلا ، فصرخ فيه الضابط وهم يقتربون ، فبادر يفتح جانباً من البوابة كى يمروا ، ولفظ بنداء أثناء مرورهم ، فتناقل الحمالون النداء كل منهم يبلغه لمن خلفه .. وبدت هذه الأصوات الأجشة وهى تنطق بلغة غريبة فى الليل البهيم ، مخيفة محوطة بالغموض !.. وانسابوا على الطريق المبتلة الزلقة ، فإذا بأحد حاملى محفة الضابط تزل قدمه ، وسمعت كيتى صرخة الحمال ، يعقبها صوت الضابط يرتفع غاضباً ، ثم عادت المحفة التى تتقدمها إلى إسراعها ..

وكانت الطرق ضيقة ملتوية ، والليل البهيم يسيطر على المدينة ، فبدت أشبه بمدينة للموتى .. وأسرعوا يجتازون حارة ضيقة ، ثم عرجوا إلى ممر أفضى بهم إلى درجات : وكانت أنفاس الحمالين قد بدأت تلهث فى عناء ، لكنهم مع ذلك واصلوا السير فى خطى سريعة ، وفى صمت .. وأخرج أحدهم منديلا مهلهلا راح يجفف به – وهو منطلق – العرق الذى كان يتفصد من جبينه وينحدر إلى عينيه .. وراحوا ينحرفون فى هذا الاتجاه ، ويعرجون إلى ذاك ، مما نم عن أنهم كانوا منطلقين فى شبكة من الطرق الملتوية .. وكانت تلوح فى بعض الأحيان أشباح ترقد إلى جوار أبواب الحوانيت المغلقة ، بيد أنه لم يكن بوسعك أن تجزم بما إذا كانت أشباح أناس ناموا ليستيقظوا عند الفجر ، أم هى لأناس ناموا فلا يقظة لهم أبداً !.. وبدت الطرقات الضيقة رهيبة فى وحشتها وصمتها ، فإذا عوى كلب فجأة بصوت عال ، أرسل هزة ذعر تخترم أعصاب كيتى : لم تكن تدرى إلى أين

كانوا ذاهبين ، وبدا لها أن لا نهاية للطريق .. وكانت لا تفتأ تسائل نفسها : « ألا يستطيعون أن ينطلقوا بأسرع من ذلك ؟.. أسرع .. أسرع » .. فقد كان الوقت يمضى ، ومن المحتمل أن يؤدى التوانى فى أية لحظة إلى وصولهم بعد فوات الأوان .

– ٦٣ –

● وفيما كانوا يسيرون إلى جوار جدار أبيض طويل ، أقبلوا فجأة على بوابة حف بها مركزان للحراسة ، فأنزل الحمالون المحفات إلى الأرض .. وأسرع وادينجتن إلى كيتى فإذا بها قد قفزت للفور من مقعدها . وطرق الضابط الباب بعنف وهو يصيح ، فإذا باب جانبى صغير يفتح ، فاجتازوه إلى ساحة واسعة مربعة .. وكان الجنود مستلقين فى جماعات متناثرة إلى جوار الجدران ، تحت مظلات من الخشب ، منكمشين فى أغطيتهم وقد استغرقوا فى النوم .

وظلوا لحظة وقوفاً ريثما تحدث الضابط إلى رجل ، لعله كان جاويشاً لنوبة الحراسة ، ثم التفت إلى وادينجتن وحدثه ببضع كلمات ترجمها هذا بصوت خفيض قائلا : « إنه لا يزال حياً .. انتبهى أثناء سيرك إلى مواطىء قدميك » .. واجتازوا الساحة ، وحملة المصابيح لا يزالون يتقدمونهم ، ثم صعدوا درجات أفضت بهم إلى باب أدى إلى ساحة أخرى واسعة .. وفى أحد جوانب الساحة ، كانت ثمة غرفة طويلة تنبعث منها أضواء كانت تشع خلال ورق الأرز الذى كان يحف بالنوافذ .. وقادهم حملة المصابيح إلى تلك الغرفة ، فلما

بلغوا بابها طرقه الضابط ، وإذا به يفتح فى الحال .. وتراجع الضابط خطوة إلى الوراء وهو ينظر إلى كيتى ، فقال وادينجتن : « تفضلى بالدخول .. » .

كانت الغرفة مستطيلة ، منخفضة السقف ، وقد أضفت عليها المصابيح المدخنة – التى كانت تضيئها – جواً كئيباً مقبضاً .. وكان هناك ثلاثة أو أربعة من الخدم العسكريين واقفين .. وعلى حشية من القش لصق الجدار المقابل للباب ، كان رجل مسجى تحت ملاءة بيضاء .. وقد وقف أمامه عند طرف الفراش ضابط لا يريم حراكاً ..

وأسرعت كيتى فمالت على الحشية .. كان وولتر يرقد مغمض العينين وقد بدا وجهه – تحت الضوء المعتم – مربداً كوجوه الموتى ، وكان سكونه يبعث الذعر فى النفس ، فهتفت كيتى فى صوت منخفض ، مفزوع : « وولتر !.. وولتر ! » .. وإذ ذاك سرت فى الجسد حركة خفيفة ، أو لعلها طيف حركة ، إذ بلغ من خفتها أنها بدت شبيهة بنسمة من الهواء لا تكاد تحسها ولكنها تداعب سطح الماء الراكد فتحركه .. وعادت كيتى تهتف : « وولتر .. وولتر .. كلمنى ! » .. فانفرجت الجفون فى بطء وكأنما كانت ثقيلة تتطلب جهداً مضنياً .. لكن الحدقتين لم تتحولا نحوها ، بل حملقتا فى الجدار الذى لم يكن على بعد أكثر من بوصات قلائل من الوجه .. وتكلم وولتر ، وفى صوته الخافت ، الواهن ، طيف ابتسامة !

– هذا مأزق لا مهرب منه !

وأمسكت كيتى أنفاسها لا تجسر أن تطلقها .. ولم يصدر عن وولتر صوت آخر ، أو محاولة للحركة ، ولكن عينيه – تلكما العينين الداكنتين ، الباردتى النظرات ، اللتين لم يكن فى وسع أحد أن يحدس ما كانتا تريان إذ ذاك من أسرار غامضة – ظلتا تحملقان فى الحائط الأبيض !.. واستوت كيتى على قدميها ، وواجهت الرجل الذى كان يقف إلى جوار الفراش ، وقد شحب وجهها وبدت عليه الحيرة ، وهتفت : « لا بد من شىء يبذل من أجله .. ما أظنكم ستبقون واقفين دون أن تقوموا بأى عمل ؟ » .

وراحت تعتصر كلا من يديها بالأخرى .. وتحدث وادينجتن إلى الضابط الذى كان يقف بجوار الفراش ، ثم قال لها : « أرى أنهم قد بذلوا كل ما كان ممكناً أن يبذل .. لقد تولى جراح الفرقة علاجه – وكان زوجك قد دربه – ففعل كل ما كان فى وسع زوجك نفسه أن يفعله ! » .

– وهل هذا هو الجراح ؟

– لا ، بل هو الكولونيل « يو » .. إنه لم يفارق فراش زوجك قط !

ورمته كيتى بنظرة زائغة ، فإذا هو طويل ، عريض المنكبين ، بدا عليه البرم ببزته العسكرية ، وكان يحملق فى وولتر ، فلمحت كيتى عينيه وقد تندتا بالدمع .. وخفق قلبها فى ذعر : ما الذى يدفع الدموع إلى مقلتى هذا الرجل العسكرى ذى الوجه الأصفر الأفطس؟



فهتفت كيتى فى صوت منخفض ، مفزوع « وولتر !.. وولتر ! » .. وإذ ذاك سرت فى الجسد حركة خفيفة ..

وتملكها جزع واله ، فهتفت : « من الفظيع أن نعجز عن عمــل شيء ! » .. فقــال وادينجتن : « إنه لم يعـد – على الأقل – يشعر بأى ألم » .

وعادت تنحنى على زوجها .. كانت عيناه المنطفئتان لا تزالان تحملقان بنظرات خاوية فى لا شيء : ولم تدر إن كان يبصر بهمــا أم لا ، ولا كانت تدرك إن كان قد سمع ما قالت .. فألصقت شفتيها بأذنيه وتضرعت : « وولتر .. أما من شيء نستطيع أن نفعله ؟ » .

وخطر لها أن لا بد من وجود عقار يستطيعون أن يعطوه إياه فيوقف تسلل الحيــاة من جسـده بهـذا الشكل الفظيع .. وإذ كانت عيناها قد ألفتا العتمة ، فقد استطاعت أن ترى فى ذعر أن عضلات وجهه قد تراخت ، بحيث كادت لا تعرفه ، فما كان ليخطر ببــال أن شكله يتغير إلى هذه الدرجة فى سويعات قلائل .. كان لا يكاد يبدو إنساناً على الإطلاق .. كان يبدو كأنه .. الموت عينه !

وخيل إليها أنه يبذل مجهوداً كى يقوى على الكلام ، فقربت أذنهــا منه .. وسمعته يقول : « لا تهتموا .. لقد كنت أجتاز طريقاً وعرة .. ولكننى الآن بخير .. » .

وتريثت كيتى لحظة ، ولكنه أخلد إلى الصمت . وبعث سكونه فى قلبها هماً ثقيلا : روعها أن يضطر إلى أن يرقد بلا حراك ، وكأنه يتأهب لسكون القبر !.. وأقبل شخص – لعله الجراح أو أحــد الممرضين – فأشار لهــا أن تتخلى عن مكانها ، ثم مال على المريض

فرطب شفتيه بخرقة مبللة ، واستوت كيتى فى وقفتها مرة أخرى ، وتحولت إلى وادينجتن هامســة فى قنوط : « أليس من أمل على الإطلاق » .

فهز رأسه بالنفى .. وعادت تسائله : « وإلى متى يبقى حياً ؟ » .

– لا أحد يدرى .. لعل الأجل يمتد به ساعة أخرى .

وتلفتت كيتى فى الحجرة العــارية من الأثاث ، ثم استقرت عيناها لحظة على الكولونيل « يو » ، فتساءلت : « هل أستطيع أن أخلو إليه برهة وجيزة ؟.. دقيقة واحدة فقط ؟ ».. فأجابها : « بكل تأكيد ، إذا شئت .. » .

وتحول وادينجتن إلى الكولونيل « يو » فتحدث إليه ، وسرعان ما انحنى الكولونيل قليلا ، ثم أصدر أمراً بصوت خفيض .. وقــال وادينجتن وهم يغادرون الغرفة : « سننتظر عند السلم ، وليس عليك سوى أن تنادى أن احتجت إلينا .. » .

أما وقد سيطرت عليها الحقيقة التى لم تكن تصدقها ، فتملكت وعيهــا كما لو كانت مخدراً انساب فى عروقهــا ، وتحققت من أن « وولتر » يوشك أن يموت ، فقد خلا ذهنهــا من كل فكرة اللهم إلا أن تهون عليه نهايته ، بأن تستل من نفسه المرارة التى سممتهــا .. وارتأت أنه لو مات وهو على وئام معها ، فسيموت وهو هــادئ النفس مطمئنها .. وهكذا لم تعد تفكر فى نفسها ، بل انصرف كل تفكيرها إليه وحده ، فمالت عليه وهى تحرص على ألا تمسه خشية أن

لا يحتمل ، وهتفت : « وولتر ، أناشدك أن تصفح عنى . إننى فى أشد درجات الأسى لكونى أذنبت فى حقك .. إننى فى أقصى حالات الندم على ما ارتكبت ! » .

ولم يقل شيئاً ، بل لم يبد عليه أنه سمع !.. فاضطرت إلى أن تلحف .. وداخلتها فكرة غريبة صورت لها نفسه كفراشة محلقة ، هائمة ، وقد أثقلت البغضاء جناحيها.. فعادت تهتف : « ياحبيبى .. » .

واختلج وجهه الذابل الضامر ، اختلاجة تافهة لم تكد تظهر ، لكنها كانت كافية لأن تنم عن اشمئزاز فظيع !.. فهى لم تناده بهذا النداء من قبل أبداً ، وربما خطر بذهنه المحتضر خاطر مضطرب غير واضح ، بأنه لم يسمعها تستعمل هذه الكلمة فى كلامها العادى إلا للكلاب والأطفال والسيارات !.. وفجأة رأت حدثاً رهيباً جعلها تعتصر يديها وهى تحاول أن تتجلد بكل ما أوتيت من قوة .. فقد رأت دمعتين تنحدران وئيداً على خديه اللذين خبا لونهما ، فراحت تهتف فى قنوط :

— أواه يا حبيبى الغالى .. لو أنك أحببتنى ! بل إننى لأعرف أنك أحببتنى ، لكنى كنت زاهدة كارهة .. فأتوسل إليك أن تغفر لى . إن الفرصة لاتنفسح الآن أمامى كى أظهر لك توبتى ، فارحمنى .. أستحلفك أن تصفح عنى !

وأمسكت وهى تنظر إليه ، حابسة أنفاسها ، تنتظر فى لهفة رده .. ورأته يحاول الكلام ، فخفق قلبها فى عنف ، وهى تعتقد

أنها لو ساعدته فى لحظته الأخيرة تلك على التخلص من وطأة المرارة التى أرهقت نفسه ، لكان فى ذلك بعض العوض عما سببته له من عذاب :: وتحركت شفتاه ، وهو لا ينظر نحوها ، إذ كانت عيناه تحملقان فى الحائط الأبيض دون ما إبصار .. ومالت عليه عسى أن تسمع ، وإذا صوته قد انبعث واضحاً يقول : « إنه الكلب .. الذى مات » .

وسمرت فى مكانها وكأنها استحالت إلى صخر ! لم تستطع أن تفهم قوله ، فراحت تحدق فيه ذاهلة مرتاعة : كانت كلماته بلا معنى .. لعلها كانت هذياناً .. لابد أنه لم يفقه كلمة مما قالت . وكان من المستحيل أن يكون جامداً بلا حراك ومع ذلك حياً .. وراحت تتفرس فيه .. كانت عيناه مفتوحتين ، لكنها لم تستطع أن تتبين ما إذا كان فيه نفس يتردد .. وبدأ الهلع يتملكها ، فهمست : « وولتر !.. وولتر ! » .

وإذ لم يجب ، نهضت بغتة ، وقد دهمها الخوف ، وتحولت نحو الباب فهتفت : « أرجوأن تتكرموا بالدخول .. لايبدو عليه أنه .. » .

ودخلوا .. وتقدم الجراح الصينى إلى الفراش ، وكان فى يده مصباح كهربائى من مصابيح الجيب أضاءه وراح ينظر فى عينى وولتر ، ثم أطبقهما ، وقال كلمات بالصينية .. فأحاط وادينجتن كيتى بذراعه وقال : « أخشى أن يكون قد مات ! » .

أطلقت كيتى زفرة عميقة ، وانحدرت من عينيها بضع دموع ،

وقد أحست بدوار طغى على كل ما جاشت به مشاعرها .. بينما أحاط الصينيون بالفراش فى يأس وحيرة وكأنهم لا يدرون ما ينبغى عليهم بعدذلك أن يفعلوا !.. وأخلد وادينجتن إلى الصمت .. وبعد دقيقة بدأ الصينيون يتبادلون الحديث بصوت منخفض ، فقال وادينجتن : « يحسن أن تدعينى أعود بك إلى الدار ، ولسوف يحملونه إلى هناك ..».

ومرت بيدها على جبينها فى إعياء وحيرة ، ثم سارت إلى الحشية التى كان مسجى عليها ، وانحنت فقبلت شفتى وولتر فى رفق ، وقد كفت عن البكاء ، ثم قالت لمن حولها : « يؤسفنى أن كبدتكم هذا العناء » .. فحياها الضابطان تحية عسكرية ، قابلتها بانحناءة مهيبة وهى تمضى مع وادينجتن إلى الساحة .. وهناك استقلا محفتيهما ، فأشعل وادينجتن سيجارة ، ونفث دخانها فى الهواء ..

هكذا حياة الإنسان .. قليل من الدخان .. فى الهواء !

— ٦٤ —

● كان الفجر قد بدأ يطلع على الكون .. وهنا وهناك ، كان أحد الصينيين يعالج فتح باب حانوته ، وقد بدت فى أكناف الظلام المتراكم فى المؤخرة ، وعلى ضوء الذبالة المحتضرة ، امرأة تغسل يديها ووجهها .. وفى مشرب عند منعرج فى الطريق ، جلس جماعة يتناولون إفطارهم مبكرين .. وأخذ ضوء النهار الوليد يتسلل شاحباً فى الطرقات الضيقة كاللص ، وران على النهر ضباب شاحب بدت خلاله صاريات المراكب الموسوقة كأنها حراب جيش من الأشباح !

وكان الجو بارداً ، فأحكمت كيتى حولها أطراف شالها ذى الألوان البهيجة ، وهى تجتاز النهر .. ثم سارت مع وادينجتن يصعدان التل حتى تجاوزا منطقة الضباب ، فإذا الشمس تبزغ من سماء صافية ، فتشع وكأن اليوم كان كغيره من الأيام ، وكأنما لم يقع فيه ما يميزه عن سواه !

وقال لها وادينجتن وهما يدخلان الدار : « هلا نمت قليلا ؟ » .

— لا .. بل سأجلس إلى جوار النافذة ..

لطالما جلست إلى جوار هذه النافذة كثيراً ، ولفترات طويلة ، خلال الأسابيع التى انقضت .. فألفت عيناها منظر المعبد المبهرج فى زخارفه ، الملتف فى إطواء الغموض والأسرار ، ووراء السياج الكبير ذى الأبراج :: بل إن المنظر أصبح يدخل على روحها سلوى وعزاء .. كان يبدو بعيداً عن أن يكون حقيقة مادية ، حتى تحت أضواء الظهيرة القوية ، ومن ثم كان ينتزعها من حقيقة الحياة وواقعيتها ..

وقال وادينجتن : « سآمر الخادم أن يعد لك بعض الشاى .. يؤسفنى أن يكون من الضرورى أن ندفنه هذا الصباح ، وسأتولى اتخاذ الإجراءات .. » .

فقالت فى اقتضاب : « أشكرك » .

— ٦٥ —

● ودفنوه بعد ساعات ثلاث .. وهال كيتى أن يضطروا إلى إيداعه تابوتاً صينياً ، وكأنما خيل إليها أنه لن يرتاح فى مرقد غريب

كهذا ، ولكن لم تكن ثمة حيلة فى ذلك .. وإذ علمت الراهبات بموت ولتر – كما كن يعلمن بكل ما يجرى فى المدينة – أوفدن رسولا يحمل صليباً من زهور « الداليا » بدا جامداً كرمز رسمى متكلف ، وإن نسق بيد ماهرة كأنها يد خبير فى تنسيق الزهور .. وحين وضع وحده على التابوت الصينى ، بدا شكله قبيحاً غير منسجم .

وعندما تم إعداد كل شىء ، اضطروا إلى انتظار الكولونيل « يو » الذى أرسل إلى وادينجتن معرباً عن رغبته فى أن يشيع الجنازة .. وما لبث أن أقبل يصحبه ياور من أركان حربه . وحمل ستة من الخدم الصينيين التابوت ، ثم سار الجمع مرتقين التل إلى بقعة من الأرض كان طبيب الإرسالية – الذى خلفه ولتر – قد دفن فيها .. وكان وادينجتن قد عثر بين مخلفات الطبيب المبشر على كتاب للصلوات بالإنجليزية ، فأخذ يقرأ قداس الدفن بصوت خفيض وأسى لم يعهد فيه من قبل .. ولعله تمثل فى خاطره وهو يقرأ الكلمات الجليلة المهيبة ، أنه إذا وقع بدوره فريسة للوباء ، فلن يجد من يردد هذه الكلمات على جسده :

وأنزل التابوت إلى القبر ، وبدأ الحفارون يهيلون عليه التراب . وكان الكولونيل « يو » يقف إلى جوار القبر حاسر الرأس ، فلبس قبعته وأدى التحية لكيتى فى احترام وحزن ، وأزجى لوادينجتن كلمة أو اثنتين ، ثم انصرف يتبعه ياوره .. وكان الخدم الصينيون قد تلكأوا يدفعهم الفضول إلى مشاهدة الطقوس المسيحية للدفن ،

فلم يلبثوا أن انصرفوا بخطى متسكعة :: وبقيت كيتى ووادينجتن حتى ملىء القبر بالتراب ، فوضعا عليه الصليب الذى صنعته الراهبات من زهور الداليا ..

ولم تبك كيتى ، لكنها شعرت حين ألقيت أول كومة من التراب بقلبها يخفق ملتاعاً .: وقالت لوادينجتن فى النهاية : « أومتعجل أنت؟ لست أبغى العودة إلى الدار بهذه السرعة » :

– ليس أمامى ما أفعله ، فأنا رهن إشارتك ::

- ٦٦ -

● وراحا يسيران على مهل حتى بلغا قمة التل ، حيث قام النصب الذى على شكل القوس ، والذى أقيم لتخليد ذكرى أرملة فاضلة ، فكان له نصيب كبير من الأثر الذى تركته تلك المنطقة فى نفس كيتى :. كان رمزاً ، ولكنها لم تكد تدرى لأى شىء كان يرمز لديها :: ولا كانت تدرى لماذا كان يبدو لها ناطقاً بالسخرية اللاذعة !

وقالت : « هل نجلس هنا فترة ؟ :: إننا لم نجلس هنا منذ عهد طويل » :

وبدا السهل مترامياً أمامها ، هادئاً ، واجماً ، تحت ضوء النهار :: واستطردت تقول : « لم ينقض على وجودى هنا سوى أسابيع قلائل ، ومع ذلك فإنها تبدو عمراً طويلا ! » :

وظل برهة لا يجيب ، فأطلقت لأفكارها العنان .. وتنهدت ثم سألته : « أتظن أن الروح خالدة ؟ » .

ولم تبد عليه أية دهشة لسؤالها ، بل قال : « ومن أدرانى ؟ » .

– لقد نظرت إلى « وولتر » منذ برهة وهم يغسلونه قبل أن يضعوه فى التابوت ، فبدا فى شرخ الشباب .. بدا أصغر من أن يستحق أن يعدو عليه الموت .. أتذكر ذلك المتسول الذى رأيناه فى أول مرة صحبتنى فيها لنتمشى ؟ إن ذعرى منه لم يكن لأنه ميت ، وإنما لأنه لاح وكأنه لم يكن إنساناً قط .. كان مجرد حيوان ميت ! أما وولتر ، فقد بدا كآلة توقفت عن الدوران ، وهذا مثار الجزع : فإذا كان الإنسان مجرد آلة ، فما جدوى كل هذا العذاب والضنى والتعاسة ؟

ولم يجب ، لكن عينيه راحتا تجوسان خلال المنظر الذى كان يستلقى تحت أقدامهما .. كان الفضاء الفسيح فى ذلك النهارُ المشرق البهيج يملأ القلب نشوة .. وكانت حقول الأرز المتناسقة تمتد إلى أقصى مرامى البصر ، وقد انهمك الفلاحون ذوو الثياب الزرقاء ، ومعهم جاموسهم ، فى العمل فى كثير منها .. كان منظراً وادعاً هنيئاً .:

وقطعت كيتى حبل الصمت قائلة : « إننى لأعجز عن أن أصف لك مدى تأثرى بكل ما رأيت فى الدير .. إن أولئك الراهبات لرائعات .. إنهن يجعلننى أرى نفسى عديمة القيمة ، فهن يضحين

بكل شىء : بدورهن ، وبلادهن ، وحبهن ، وأطفالهن ، وحريتهن ، وكل تلك التوافه التى لا أزال أرى أحياناً أن من العسير التخلى عنها – كالزهور ، والحقول اليانعة ، والنزهة فى أحد أيام الخريف ، والكتب ، والموسيقى ، والراحة ! – كل شىء يضحين به ، كل شىء ، ويفعلن ذلك كى يكرسن أنفسهن لحياة كلها تضحية ، وفقر وطاعة ، وعمل مرهق قاتل ، وصلاة .. إن هذه الدنيا – بالنسبة لهن جميعاً – مجرد « مهجر » ، والحياة صليب يحملنه طواعية وعن طيب خاطر ، وفى قلوبهن طيلة الوقت رغبة .. أواه ، بل هى أقوى من الرغبة بكثير .. إنها حنين ، شوق ، لهفة مشبوبة إلى الموت الذى يقودهن إلى حياة دائمة أبداً .. » .

واعتصرت راحتيها وهى تتطلع إليه فى حزن فياض ، فقال : « وبعد ؟ » .

– هب أن ليست ثمة حياة باقية ؟ تصور ما يكون لو أن الموت هو النهاية الحقيقية لكل الأشياء .. إنهن إذ ذاك يكن قد جدن بكل شىء من أجل .. لا شىء ! .. يكن مخدوعات ..

وفكر وادينجتن لحظة ، ثم قال : « لست أدرى ، ترى هل يهمنى فى شىء أن يكون ما هدفن إليه مجرد وهم ؟ .. إن حياتهن فى ذاتها جميلة ، وأنا أرى أن الشىء الوحيد الذى يجعل من المحتمل أن نرقب هذه الحياة التى نعيشها فى غير اشمئزاز ، هو ذاك الجمال الذى ينسجه البشر من آن لآخر من الأوهام المشوشة : من الصور التى

يرسمونها ، والألحان التى يصوغونها ، والكتب التى يؤلفونها ، وألوان الحياة التى يمارسونها .. وأغنى هذه كلها بالجمال : الحياة الجميلة .. فهى أكمل تحف الفن » .

وتنهدت كيتى وقد لاح لها قوله صعب التحقق .. ورغبت فى المزيد ، فاستأنف قائلا : « هل حضرت يوماً حفلة من حفـلات الموسيقى الوترية ؟ » .. فابتسمت مجيبة : « أجل .. إننى لا أفقـه شيئاً فى الموسيقى ، ومع ذلك فأنا شغوفة بها » .

– إن كل عضو فى الفرقة يعزف على آلته الخاصة الصغيرة ، فماذا تظنينه يعرف عن الأنغام المتداخلة التى تتماوج فى الجو ؟ إنه لا يحفل بغير نصيبه الصغير ، وإن عرف أن اللحن فى مجموعه بديع . ومع أنه قد لا يكون ثمة من يصغى إليه ، إلا أنه يظل بديعاً ، ويظل العازف مغتبطاً بعزف دوره فيه !

قالت كيتى بعد أن ساد الصمت برهة : « لقد تحدثت منذ أيام عن (عبادة الطبيعة) .. فهلا حدثتنى بالمزيد عنها ؟ » .

فرمقها وادينجتن بنظرة وجيزة ، وتردد لحظة ، ثم شـاعت فى وجهه المضحك ابتسامة واهنة وأجاب : « إنها الطريق ، وسـالك الطريق .. إنها السبيل الخالدة التى تسير فيها كل الكائنات ، وليس منهم من صنعهـا ، لأنهـا كائنة فى حـد ذاتها .. إنهـا كل شىء ، ولا شىء .. منها تنبعث كل الأشياء ، وكل الأشياء تطابقها وتتمثل بها ، وإليها تعود كل الأشياء فى النهاية .. إنهـا مربع بلا زوايا ،

وصوت لا تسمعه الآذان ، صورة بلا شكل .. إنها شبكة واسـعة العيون ، عيونها فى مثل اتساع البحر ، ومع ذلك فهى لا تسمح لشىء بأن ينفـذ من خـلال هـذه العيون .. إنهـا الملاذ الذى تلجأ إليه كل الأشياء فتجد المأوى . ليس لها مكان ، ومع ذلك فأنت إذا أطللت من النافذة رأيتها .. إنها تدعو إلى الرغبة فى عدم الرغبة ، ثم تترك كل شىء يختار طريقه ومنهجه .. فالذى يتواضع يصان ، والذى ينحنى يقام .. والفشل أساس النجاح ، والنجاح مجرد مكان يتوارى فيـه الفشل ، ولكن منذا الذى يعرف نقطة التحول ومتى تأتى ؟ وذاك الذى يجاهد من أجل الحنان يستطيع أن يصبح فى النهاية أشبه ما يكون بالطفل الصغير .. واللطف واللين يجلبان النصر لذاك الذى يهاجم ، والأمن والسلامة لذاك الذى يدافع ، والقادر هو ذاك الذى يغلب نفسه !

– هل لهذا معنى ؟

– أحياناً :: عندما أتناول ست كؤوس من الويسكى ، ثم أتطلع إلى النجوم ، أرى أنه ربمـا كان ذا معنى ..!

وران عليهما الصمت ، فلما تبدد أخيراً ، كانت كيتى هى التى بددته – فى هـذه المرة أيضاً – إذ قالت : « نبئنى .. هـل وردت عبارة : « إنه الكلب .. الذى مات » ، فى أى كتاب تعرفه ؟ » .

وارتسمت على شفتى وادينجتن ابتسـامة ، وهم بأن يجيب ، ولكن يبدو أن إدراكه كان إذ ذاك مرهفاً فوق عادته .. ولم تكن كيتى

تنظر إليه ، ولكنه رأى فى التعبير الذى صاغت به سؤالها ما جعله يغير رأيه ، فيمسك عن الجواب ، ويقول فى حذر : « إذا كانت قد وردت فإن عينى لم تقع عليها .. لماذا ؟ » :

– للا شيء .. وإنما خطرت ببالى ، فشعرت أن لها وقعاً مألوفاً ..

وشملهما الصمت مرة أخرى .. وما لبث وادينجتن أن قال :

« عندما تركناك وحدك مع زوجك ، تحدثت إلى جراح الفرقة ، إذ رأيت أن من حقنا أن نلم بشيء من التفصيلات » :

– حسناً ..

– كان الرجل فى حالة انفعال هستيرى ، حتى لقد عز على أن أفهم فى الواقع ما كان يعنى تماماً .. وبقدر ما وسعنى ، أدركت أن زوجك أصيب بالعدوى أثناء قيامه ببعض التجارب ..

– لقد كان يجرى التجارب دائماً ، فهو لم يكن طبيباً فى الواقع ، وإنما كان من البكتريولوجيين .. وهذا سر لهفته على المجيء إلى هنا.

– لكنى لم أفهم من تصريحات الجراح ما إذا كانت العدوى قد أصابت زوجك عفواً ، أو أنه كان يجرى التجربة على نفسه فعلا !

فاشتد بكيتى الشحوب ، واقشعر بدنها للفكرة .. فتناول وادينجتن راحتها ، وقال فى لطف : « اغفرى لى أنى تحدثتُ فى هذا مرة أخرى ، لكنى خلت أنك قد تجدين فيه عزاء .. إننى أدرك مدى ما هناك من قسوة وعناء يتأتيان عن أى قول ليست له جدوى فى هذه

المناسبات .. لكنى ظننت أنه قد يعنيك أن تعرفى أن ولتر مات شهيد العلم وشهيد واجبه .. » .

هزت كيتى كتفيها فى شك وبرم وقالت : « بل إنه مات كسير القلب ! » :

ولم يحر وادينجتن جواباً .. فالتفتت إليه ، متطلعة فى تؤدة ، وقد شحب وجهها وجمدت ملامحه .. وقالت : « ما الذى كان يعنيه بقوله : « إنه الكلب .. الذى مات » ؟.. ما هذه العبارة ؟ » .

– إنها السطر الأخير من مرثية « جولد سميث » .

– ٦٧ –

● ذهبت كيتى فى الصباح التالى إلى الدير .. وبدا الذهول على الفتاة التى فتحت لها الباب إذ رأتها .. ولم تنقض دقائق على كيتى فى عملها ، حتى أقبلت الأم الرئيسة ، فتقدمت من كيتى وتناولت يدها قائلة : « إننى مسرورة لرؤيتك يا ابنتى العزيزة .. إنك بمقدمك إلى هنا عقب مصابك الفادح تكشفين عن شجاعة رائعة ، وحكمة .. لأننى واثقة من أن العمل سيشغلك عن التفكير .. » .

وغضت كيتى بصرها وقد تضرج وجهها ، وحرصت على أن لا تستشف الأم الرئيسة ما فى أعماق قلبها .. بينما عادت هذه تقول : « ما أرانى بحاجة لأن أبين لك مدى عطفنا الصادق جميعاً عليك » .

فهمست كيتى : « إنكن جد رحيمات » .

– إننا جميعاً نصلى دون انقطاع من أجلك ، ومن أجل روح ذاك الذى فقـدت ..

ولم تحر كيتى جواباً .. فأفلتت الأم الرئيسة راحتها، ثم تحولت تعهد إليها بلهجتها الجـادة الآمرة ببعض المهام .. وربتت رؤوس طفلين أو ثلاثة .. وأولتهم ابتسامها اللادنيوية الخلابة .. ثم انصرفت إلى أعمالها الأكثر أهمية .

– ٦٨ –

● وانقضى أسبوع .. وفيما كانت كيتى تحيك بعض الثياب فى الدير للأيتام ، دخلت الأم الرئيسة الحجرة، فجلست إلى جوارها، وألقت على شغلها نظرة عابرة .. وقالت : « إنك تتقنين الحيـاكة جداً يا عزيزتى ، وهو شىء نادر بين الشابات فى دنياكم اليوم ! » .

– إننى مدينة بذلك لأمى ..

– أؤكد لك أن أمك ستبتهج برؤيتك ثانية ..

وتطلعت كيتى إلى ما أمامها .. كان فى أخلاق الأم الرئيسة تلك الميزة التى لا تجعل العبارة تؤخذ على أنها مجرد مجاملة عابرة .. ولكن الأم الرئيسة استطردت قائلة :

– لقـد سمحت لك بأن تأتى بعـد وفاة زوجـك العزيز ، لأننى ظننت أن العمل قد يصرفك عن التفكير ، إذ رأيت أنك قد لا تقوين إذ ذاك على تحمل الرحلة الطويلة إلى هونج كونج وحدك . كما أننى لم أحب أن أدعك تمكثين وحيدة فى دارك ، وليس لك ما تفعلين

سوى التفكير فى مصابك .. أما وقد انقضت ثمـانية أيام ، فقـد آن الوقت كى ترحلى .. » .

– لكنى لا أريد أن أرحل يا أماه ، أريد أن أبقى هنا

– ليس ثمة ما يدعوك للبقـاء .. لقد جئت لتكونى فى صحبة زوجك ، وقد مات زوجـك .. ثم إنك فى حـال لن تلبثى معها أن تحتاجى بعد قليل إلى عناية ورعاية يستحيل توفرهما هنا .. إن واجبك يا صغيرتى العزيزة يقتضيك أن تبذلى كل ما فى طوقك لخير المخلوق الذى أودعه الله عنايتك ..

ولزمت كيتى الصمت برهة ، ثم قالت وهى تغض بصرهـا : « كنت أظن أننى ذات نفع هنا .. وكان من أعظم دواعى سرورى أن أظننى كذلك .. وكنت آمل أن تسمحى لى بالاستمرار فى عملى حتى ينتهى الوباء .. » .

فقالت الأم الرئيسة فى ابتسامة خفيفة : « إننا جميعاً مقـدرات لما بذلت من صنيع لنا ، بيد أن خطر المجىء إلى هنا – وقد خفت حدة الوباء – لم يعد كبيراً ، ومن ثم فأنا أرتقب مقـدم أختين من (كانتون) لن تلبثا أن تصلا عما قريب ، وإذ ذاك لن أكون فى حاجة ماسة إلى خدماتك .. » .

وغاص قلب كيتى :: كانت لهجة الأم الرئيسة لا تدع مجـالا لرد ، وكانت قد أصبحت تعرفها إلى الدرجة التى تجعلها تدرك أنها لن تصغى لأى رجاء : وكان شعورها بضرورة إبداء مبررات لكيتى

قد أشاع فى صوتها نبرة إن لم تنم عن انفعال ، فقد نمت على الأقل عن الحزم الذى قد يؤدى إلى الانفعال :: ثم أردفت : « لقد تكرم مستر وادينجتن فاستشارنى .. » .. فقاطعتها كيتى : « تمنيت لو أنه شغل بشئونه الخاصة عن شئون سواه ..! » .

فقالت الأم الرئيسة مترفقة : « لو أنه لم يستشرنى لما حال ذلك دون أن أشعر بأن من واجبى أن أقدم له مشورتى :: إن مكانك فى اللحظة الراهنة ليس هنا ، وإنما هو بجوار أمك : وقد دبر مستر وادينجتن الأمر مع الكولونيل « يو » لإمدادك بحراسة قوية حتى تكونى آمنة كل الأمان فى رحلتك ، كما دبر أمر الحمالين والخدم :: ولسوف ترافقك الوصيفة ، كما ستتخذ الإجراءات فيما يتعلق براحتك فى المدن التى ستمرين بها .. والواقع أن كل شىء فى الإمكان قد اتخذ لراحتك .. » .

وزمت كيتى شفتيها ، فقد رأت أنه كان يليق بهم أن يستشيروها على الأقل فى مسألة لا تخص سواها :: واضطرت إلى أن تبذل جهداً لتسيطر على أعصابها حتى لا تحتد وهى تتساءل : « ومتى يجب أن أبدأ رحلتى ؟.. » : فظلت الأم الرئيسة هادئة ، وقالت : « كلما أسرعت فى العودة إلى هونج كونج ، ثم الإبحار إلى إنجلترا ، كان ذلك أفضل يا صغيرتى العزيزة .. لذلك رأينا أنك قد ترغبين فى أن تبدئ رحلتك فى فجر بعد غد .. » .

— أبهذه السرعة ؟

وأحست كيتى بشىء من الرغبة فى البكاء .. لكنهم كانوا على حق ، فإنه لم يبق لها مكان فى الدير .. وقالت فى جفاء ولوم : « لشد ما يلوح لى أنكم جميعاً تتعجلون التخلص منى » !

وفطنت كيتى إلى أن الأم الرئيسة بدأت تخفف من مسلكها ، إذ تبينت أن كيتى كانت مستعدة لأن تصدع لما أعدوه لها ، فاتخذت — دون أن تفطن — لهجة لطيفة، رحيمة . وكانت روح الفكاهة لدى كيتى مرهفة ، فأومضت عيناها ، وطاف بخاطرها أن القديسات هن الأخريات يحببن أن يكون رأيهن النافذ ! .. بينما قالت الأم الرئيسة : « لا تظنى أننى لا أقدر ياصغيرتى العزيزة طيبة قلبك وذلك الكرم الرائع الذى يجعلك غير راغبة فى أن تتخلى عن الواجبات التى تطوعت لأدائها .. » .

وحدقت كيتى فى الفضاء أمامها بنظرات جامدة .. وهزت كتفيها فى حركة خفيفة ، وهى تدرك أن ليس لها أن تضفى على نفسها مثل هذا الفضل المغالى فيه ، فهى لم تبغ البقاء إلا لأنها لا تملك مكاناً تذهب إليه :. وكان هذا الشعور غريباً : لم يكن فى العالم من يحفل بما إذا كانت على قيد الحياة أم كانت ميتة !

وكانت الأم الرئيسة ماضية تقول فى لطف : « لست أفهم كيف تعرضين عن العودة إلى الوطن .. كم من أجانب فى هذه البلاد على استعداد لأن يبذلوا الكثير كى يحظوا بمثل هذه الفرصة ! » :

— ولكنك لست منهم يا أماه ؟

– آه .. إن الأمر يختلف بالنسبة لنا ياطفلتى العزيزة .. إننا حين نأتى إلى هنا ندرك أننا قد هجرنا أوطاننا إلى الأبد !

وانبعثت من أعماق نفس كيتى الجريحة رغبة ساورتها ، قد تكون منطوية على خبث ، أوحت إليها أن تبحث عن تلك الناحية من درع الإيمان التى تجعل الراهبات فى مناعة بالغة ضد كافة المشاعر الطبيعية.. ورغبت فى أن ترى ما إذا كان قد تبقى فى نفس الرئيسة شىء من الضعف البشرى ، فقالت : « لقد كنت أرى فى بعض الأحيان أن من العسير عليكن أن لا ترين مرة أخرى أولئك الذين كنتن تحببنهم ، ولا تلك المناظر التى نشأتن بينها » .

فترددت الأم الرئيسة لحظة – ولكن كيتى لم تلمح أى تغير طرأ على صرامة ذلك الوجه الجميل المهيب – وقالت أخيراً : « إن ذلك لشاق بلا شك على أمى التى اكتهلت ، لأننى ابنتها الوحيدة ، فهى تتوق طبعاً إلى أن ترانى مرة أخرى قبل أن تقضى نحبها .. وأنا أتمنى أن أتيح لها هذه الغبطة ، ولكن ذلك مستحيل .. فعلينا أن نصبر حتى نلتقى فى النعيم » ..

– ولكن هذا لايغير من الأمر شيئاً ، فلابد للمرء – إذا ما فكر فى أولئك الذين كان حبيباً إليهم – من أن يجد مشقة فى أن لايسائل نفسه عما إذا كان قد أصاب فى اقتطاع نفسه عنهم ؟؟

وفجأة ، أشرق وجه الأم الرئيسة ، وقالت : « أو تراك تسائليننى عما إذا كنت قد ندمت يوماً على الخطوة التى اتخذتها ؟ .. أبداً ، أبداً .

لقد استبدلت بحياة تافهة لا قيمة لها ، حياة قوامها التضحية والتعبد » .

ران عليهما صمت وجيز ، ثم ابتسمت الأم وأردفت فى لهجتها اللطيفة الخفيفة : « سأطلب منك أن تحملى معك طرداً صغيراً تسلمينه إلى مكتب البريد عند وصولك إلى مرسيليا ، إذ أننى لا أبغى أن أعهد به إلى مكتب البريد الصينى .. سأحضره لك حالا » .

قالت كيتى : « تستطيعين أن تعطينى إياه غداً » .

– سيكون لديك من الشواغل ما يصرفك عن الحضور إلى هنا غداً ياعزيزتى .. وإنه لأنسب لك أن تودعينا الليلة .

ونهضت فى رشاقة جليلة غير متكلفة ، لم تكن ثيابها الفضفاضة لتخفيها ، وغادرت الحجرة .. وإن هى إلا لحظة حتى أقبلت الأخت سان جوزيف ، وقد جاءت تودعها متمنية لها أن تحظى برحلة ممتعة ، ومؤكدة لها أنها ستكون آمنة لأن الكولونيل « يو » سيوفد معها حراسة قوية ، فضلا عن أن الراهبات اعتدن أن يقمن بالرحلة دائماً وحيدات فلم يمسهن أذى :: وسألتها هل تحب ركوب البحر :. ثم أردفت تصف ما اعتراها هى من دوار حين هبت عاصفة وهى تجتاز المحيط الهندى..
ثم أعربت عن يقينها من أن « المدام » – والدة كيتى – ستبتهج ولاشك إذ ترى ابنتها ، وسترعاها بنفسها ، سيما وأن فى أحشائها الآن نفساً أخرى صغيرة ، وأنهن جميعاً سوف يصلين من أجلها ، وهى بالذات ستصلى دواماً من أجلها ومن أجل الطفل الصغير العزيز ، ومن أجل روح الطبيب المسكين ، الشجاع :. كانت الراهبة ذلقة اللسان ،

رحيمة ، حنوناً ، ومع ذلك فقد أحست كيتى فى أعماقها بأنها لم تعد فى نظر الأخت سان جوزيف – التى تتطلع دواماً إلى الأبدية – سوى مجرد طيف لاجسم له ولا كيان مادى .. وتملكتها رغبة جامحة فى أن تمسك بكتفى الراهبة الطيبة البدينة فتهزها وتصيح : « أولا تعلمين أننى آدمية ، تعسة ، وحيدة ، وأننى أنشد السلوى والعطف والتشجيع .. أواه ، ألا تستطيعين أن تتحولى لحظة عن الله وأن تسبغى على شيئاً من الحنان .. ألا ذلك الحنان الدينى الذى تولينه كل المعذبين ، فإنما أنا أنشد حناناً إنسانياً !؟ » .. وبعثت الفكرة إلى شفتى كيتى ابتسامة وقد تصورت ماينتاب الأخت سان جوزيف من دهشة لو أنها فعلت !.. لسوف تقتنع إذ ذاك بما لم يكن يرقى لديها حتى الآن عن مرتبة الشك : إن جميع الإنجليز .. مجانين !

لكن كيتى اكتفت بأن أجابت« إننى لحسن الحظ أحتمل الرحلات البحرية ، ولم أصب حتى الآن بدوار البحر » :

وعادت الأم الرئيسة مبتسمة ، تحمل طرداً صغيراً أنيق الحزم ، وقالت : « هذه مناديل صنعتها لأمى لمناسبة عيدها .. وقد طرزت بناتنا هنا حروف اسمها عليها » .. وهنا أشارت الأخت سان جوزيف إلى أن كيتى قد تحب أن ترى جمال التطريز ، ففكت الأم الرئيسة الطرد فى ابتسامة مشفقة ، مسترحمة .. وكانت المناديل من تيل خفيف جداً ، وقد طرزت الحروف بحيث تداخلت وتشابكت بعضها فى بعض ، يعلوها تاج من أوراق التوت .. وبعد أن أعربت كيتى عن إعجابها

بها ، لفتها الرئيسة ثانية ، وسلمتها إياها .. وإذ ذاك هتفت الأخت سان جوزيف : « حسناً ياسيدتى .. آن لى أن أنصرف » ، وكررت لها تحياتها المجاملة ، ثم انصرفت .. وأدركت كيتى أن لحظة توديع الرئيسة قد حانت ، فشكرت لها ما لقيت منها من كرم .. وسارا معاً خلال الأبهاء العارية، ذات الجدران البيضاء .. وتساءلت الرئيسة : « ألست أتعبك إذ أسألك أن تسجلى الطرد بالبريد حين تصلين إلى مرسيليا ؟ » .

فقالت كيتى : « سأسجله بالتأكيد » .. وألقت نظرة على العنوان ، فبدا لها الاسم محفوفاً بالعظمة . لكن المكان استلفت انتباهها ، فهتفت : « عجباً .. هذا أحد القصور التى شاهدتها ، إذ جلت مرة خلال فرنسا بالسيارة مع بعض الأصدقاء » .

فقالت الأم الرئيسة : « من الجائز جداً ، فإن زيارته ومشاهدته تتاح للأغراب فى يومين من كل أسبوع » .

– أعتقد أننى لوكنت أقمت فى مثل هذا المكان البديع ، لما وجدت الجرأة على مغادرته !

– إنه حقاً أثر تاريخى يندر مثاله ، لكنى إذا أسفت على شىء ، فلست آسف على هذا ، وإنما آسف على القصر الصغير الذى كنا نعيش فيه وأنا بعد طفلة ، ويقع فى جبال « البيرينز » .. لقد ولدت إلى جوار البحر ، ولا أنكر أننى أهفو أحياناً إلى سماع صوت الأمواج وهى تتلاطم على الصخور .

وخطر لكيتى أن الأم الرئيسة تحاول أن تسخر منها ، لكنهما كانتا

قد بلغنا باب الدير ، الباب الصغير المتواضع .. ولدهشة كيتى ، احتضنتها الأم الرئيسة وقبلتها .. وكان وقع شفتيها الشاحبتين على وجنتى كيتى على التعاقب ، مفاجئاً لها بدرجة جعلت الدم يتصاعد إلى وجهها ، بل بعثت فى نفسها ميلا .. إلى البكاء .

وظلت الرئيسة محتضنة إياها برهة وهى تقول : « وداعاً ، وليباركك الله يا ابنتى العزيزة . تذكرى أن ليس بالكثير أن تؤدى واجبك ، فهو مطلوب منك ، وليس من فضل لك إذا أديته أكثر مما قد يكون هناك من فضل إذا أنت غسلت يديك حين تتسخان .. إنما الشىء المهم الوحيد هو حب القيام بالواجب ، فعندما يكون الحب والواجب شيئاً واحداً ، تعمر نفسك بالجمال والبهاء ، وتستمتعين بسعادة تفوق كل إدراك .. » .

وأغلق باب الدير دونها .. للمرة الأخيرة !

— ٦٩ —

● سار وادينجتن مع كيتى صاعدين التل ، ثم عرجا جانباً ليلقيا نظرة على قبر ولتر .. وعند القوس التذكارى ، ودعها .. وألقت على النصب نظرة أخيرة ، فأحست بأنها أصبحت تقوى على أن تجيب على الروح الساخرة التى تتراءى لها فيه ، بسخرية مماثلة من عندها !

وصعدت إلى المحفة ..

وأخذت الأيام تمر تباعاً .. وكانت المناظر التى تصادفها أثنـاء رحلة العودة بمثابة أفق خلقى تتوالى منه أفكارها .. كانت تراها كما

لو كانت نسخاً مزدوجة ، قد لف بعضها فى بعض وكأنها وضعت فى منظار اسطوانى ، واقترنت بكل منها معانى جديدة ، إذ كانت تضيف إلى كل شىء ذكرى لما رأت حين قامت بالرحلة ذاتها — فى الاتجاه المضاد — منذ أسابيع قلائل .. وكان الحمالون الصينيون يمضون بأحمالهم فى غير انتظام ، يسير كل اثنين أو ثلاثة منهم مترافقين ، ثم يأتى خلفهم بعـد مائة ياردة واحـد يسير منفرداً ، ليتلوه اثنان أو ثلاثة آخرون .. وكان جنود الحراسة يطوون الأرض فى خطوات غير منسقة ، قاطعين خمسة وعشرين ميلا فى اليوم .. وكان يحمل محفة الوصيفة رجلان ، أما محفة كيتى فكان يحملها أربعة ، لا لأنها كانت أثقل وزناً ، ولكن من قبيل الإكرام والمجاملة ...

وكانوا يصادفون بين آن وآخر صفاً من الحمالين الوطنيين يسيرون مترنحين تحت أحمالهم الثقيلة ، أو يلتقون بموظف من الصينيين يستوى فى محفة ويحملق بنظرات متسائلة فى المرأة البيضاء ! وأحياناً كانوا يمرون بفلاحين يسعون إلى السوق وقد ارتدوا القبعات العريضة الحواف ذات اللون الأزرق الباهت .. وأحياناً أخرى بامرأة ، عجوز أو شابة ، تسير متمايلة على قدميها الصغيرتين ..

وصعدوا سفوحاً وهبطوا أخرى وهم يجتازون التلال الصغيرة تكسوها حقول الأرز المنسقة ، والدور الريفية تستسلم فى دعة لأحضان أحراش الغاب (البوص) .. ومروا بقرى فقيرة ، وبمدن آهلة تحيط بها الأسوار كمدن الأساطير .. وكانت شمس الخريف الباكر رائعة .

وحتى حين كانت البرودة تسرى فى الجو عند مطلع الفجر وهو يخلع بأضوائه الباهتة على الحقول المترامية سحراً من جو الأساطير ، فإن الدفء كان لا يلبث أن يسرى بعد ذلك فيكون له وقع جميل .. وكان ذلك يملأ نفس كيتى بشعور من الدعة والاسترخاء لا تحاول له صداً .. فإن المناظر الحية ، بألوانها البهيجة ، وتباينها غير المرتقب ، وطرافتها ، كانت تبدو كستار موشى تتراقص عليه أطياف خيال كيتى كما لو كانت ظلالا لأشباح خفية .. أجل ، كانت المناظر تبدو غير حقيقية ، فإذا بمنطقة « مى — تان — فو » بأسوارها ذات البروج والحصون ، تظهر كلوحة مرسومة بالألوان أقيمت على مسرح لتمثل مدينة فى مسرحية قديمة .. أما الراهبات ، ووادينجتن ، وابنة « مانشو » التى كانت تحبه ، فبدوا كشخصيات وهمية مقنعة فى المسرحية .. وأخيراً كانت هناك شخصيات المسرحية الثانوية « الكومبارس » ، وهم أولئك المنسابون فى الطرق الضيقة الملتوية ، وأولئك الذين قضوا نحبهم .. وكانت لهؤلاء طبعاً ، بل كانت للجميع ، قيم ومعان خاصة .. كأنما كانوا جميعاً يؤدون رقصة تقليدية رائعة ، عتيقة .. فأنت تدرك أن لحركاتهم المعقدة ، المقيدة ، معنى من الضرورى أن تلم به ، ولكنك لا تجد سبيلا إلى فهمه ، ولا ضوءاً يبدد غموضه ..

وبدا الأمر لكيتى أبعد من أن يكون حقيقة .. ومرت فى الطريق إذ ذاك امرأة عجوز فى ثوب أزرق كان شعاع الشمس يحيله لازوردياً ، وقد بدا وجهها الملىء بالغضون والتجاعيد أشبه بقناع من عاج تقادم

به العهد .. وكانت تتوكأ — وهى تمشى على قدميها الصغيرتين — على عصا سوداء .. فبدا لكيتى وهى تتأمل ما فعلت بها الأيام ، أن مما يصعب تصديقه أنها وولتر قد اشتركا فى تلك الرقصة الغريبة غير الواقعية ، بل وكان دورهما فيها هاماً .. كيف لا وقد كان من الممكن أن تفقد حياتها بسهولة ، ففقد هو حياته .. يالها من مهزلة ! .. لعل الأمر كله لم يعد أن يكون حلماً لن تلبث أن تستيقظ منه فجأة ، فتطلق زفرة ارتياح .. فالواقع أن ذلك كله كان يبدو لكيتى أحياناً كأنه حدث فى زمن سحيق ، وفى مكان بعيد ! .. وكان من الطريف حقاً أن يبدو الأشخاص أحياناً إزاء مناظر الحياة الواقعية تحت ضوء الشمس كأشباح باهتة .. وفى أحيان أخرى كانت الأحداث تبدو لكيتى وكأنها وقائع قصة كانت تقرأها .. لكن العجيب حقاً أنها لم تكن تحرك فى نفسها سوى القليل من الاهتمام ، بل لقد تبينت أنها لم تعد تذكر وجه وادينجتن بوضوح ، رغم أنها ألفته .. !

وأخيراً حل اليوم الذى كان مقرراً أن تبلغ فى مسائه مدينة على ضفة النهر الغربية ، تستقل منها باخرة فلا تلبث أن تبلغ هونج كونج مع مهبط ليل اليوم التالى ..

— ٧٠ —

● كانت كيتى فى أول الأمر تشعر بالخجل لأنها لم تبك وتنتحب حين مات وولتر ، إذ لاح لها هذا نابياً ، بشعاً .. أى عار ! .. حتى الضابط الصينى — الكولونيل « يو » — تندت عيناه بالدموع ! ..

والواقع أن وفاة زوجها قد أذهلتها . كان من العسير أن تقر فى وعيها أنه لن يعود إلى الدار ثانية ، وأنها لن تسمعه وهو يأخذ حمامه اليومى فى الصباح .. لقد كان حياً، ثم إذا به ميت ! .. ولقد عجبت الراهبات لصبرها ، وأعجبن بجلدها فى تحمل المصاب .. لكن وادينجتن كان ماكراً ، فقد أحست رغم كل ما أبداه من عطف آس ، بأنه — كيف تصف ذلك الشعور ؟ — بأنه كان يضع لسانه فى شدقه ! .. أو بمعنى آخر ، بأنه لم يكن مقتنعاً بحزنها .. فى حين أن وفاة « وولتر » كانت صدمة حقيقية لها ، فما كانت تريد له أن يموت — ولو أنها لم تكن تحبه ، ولا أحبته قط يوماً ! — وقد اقتضتها اللياقة أن تتكلف المظاهر المناسبة للحزن الذى نزل بساحتها ، إذ كان من البشع المستنكر أن تطلع أحداً على مكنون قلبها ، غير أنها كانت قد عانت ما لا يمكنها من الإفراط فى الاصطناع .. ولقد بدا لها أن الأسابيع القليلة الأخيرة — على الأقل — قد علمتها أن الضرورة إذا دعت أحياناً إلى الكذب على الآخرين ، فإن من المستهجن أن تكذب على نفسها .. وهى قد أسفت لوفاة وولتر بهذا الشكل المحزن ، لكن أسفها كان منبعثاً عن أسى إنسانى محض ، كذلك الذى يواتيها نحو أى شخص من معارفها .. وإنها لتعترف بأن وولتر كان ذا مناقب تدعو للإعجاب ، ولكن الذى حدث أنها لم تمل إليه .. لم تحبه .. كان يبعث السأم دائماً فى نفسها ! .. وما كانت لتصف موته بأنه خلاص وراحة لها ، وإنما كانت تقول لنفسها ، صادقة ، أنه لو أتيح لكلمة منها أن ترده إلى الحياة ، لما توانت عن

قولها ! .. لكنها لم تكن تملك أن تنكر الشعور بأن وفاته قد يسرت أمامها السبيل بعض الشىء ، فما كان من المحتمل أن يسعدا معاً قط ، كما أن الفراق كان صعباً عسيراً . ولقد أزعجها أن تشعر — فيما بينها وبين نفسها — بهذا الشعور ، وخيل إليها أن الناس لو دروا به لرموها بالجحود والقسوة ، وإذن فلا ينبغى لهم أن يدروا .. وكانت تسائل نفسها : ترى هل كانت لكل زميلاتها أسرار مخجلة يدفنها فى قلوبهن ويقضين أوقاتهن فى صيانتها من النظرات المتطفلة !؟

على أنها لم تكن توغل فى النظر إلى المستقبل ، ومن ثم لم ترسم خططاً ما .. كل ما كانت تدركه هو أنها لم تكن ترغب فى أن تمكث فى هونج كونج سوى أقصر أمد ممكن .. بل إنها كانت تتطلع إلى وصولها إلى هناك فى هلع ، وتود لو ظلت تجوس فى محفتها خلال ذلك الريف الودود الباسم ، وتقضى العمر تشهد ، فى غير ما اكتراث ، مناظر الحياة تترى كخيال الظل .. وتأوى كل ليلة تحت سقف غير الذى أظلها فى الليلة السابقة .. بيد أنه لم يكن ثمة بد من أن تواجه المستقبل القريب ! فمتى بلغت هونج كونج ، خليق بها أن تأوى إلى فندق ، ثم تعمل على التخلص من الدار وبيع الأثاث ، ولا تدع ثمة حاجة تضطرها إلى أن ترى تشارلى ! وهو بدوره خليق به أن يظل بعيداً عن طريقها .. على أنها تمنت — مع ذلك — أن تراه مرة أخرى ، لتصارحه بمدى ازدرائها إياه .. ولكن .. ما قيمة تشارلى تاونسند وما أهميته ؟

وأخذت تخفق فى قلبها ، بإلحاح ، فكرة واحدة ، كنغم عال من

قيثارة يتردد وسط الأنغام المتداخلة المركبة فى سمفونية .. كانت نفس الفكرة التى أضفت على حقول الأرز جمالا غريباً ، والتى دفعت إلى شفتيها الشاحبتين ابتسامة حين مر بها فتى أمرد ، كان ينطلق فى طريقه إلى سوق البلدة وفى حركاته طرب ، وفى عينيه جرأة .. نفس الفكرة التى كانت تسبغ على المدن الصاخبة التى اجتازتها سحراً .. لقد كانت المدينة الموبوءة سجناً أفلتت منه ، فإذا بها تخال أنها أبداً لم تعرف ما لزرقة السماء من بهاء ، وما لمنظر عيدان الغاب المنحنية فى جلال ورشاقة على جانب الطريق ، من بهجة .. إنها الحرية ! .. تلك كانت الفكرة التى راحت تتردد فى قلبها كالنغم ، فإذا المستقبل رغم ظلامه يمسى شفافاً ، تنعكس خلاله أطياف الأمل انعكاس شعاع الشمس على الضباب المعلق فوق النهر فى الصباح .. الحرية ! .. لا من قيد كان يضنيها فحسب ، ولا من رفقة كانت تثقل عليها فقط .. الحرية ، ليس من الموت الذى كان يتهددها وحده ، وإنما الحرية من الحب الذى كان يستبد وينحط بها .. والحرية من كل الروابط الروحية ، ومن الروح المجردة عن الجسد .. ومع الحرية ، داخلتها شجاعة وجسارة جعلتاها لا تكترث لأى شىء قد تأتى به الأيام !

- ٧١ -

● عندما دخلت السفينة ميناء « هونج كونج » ، كانت كيتى تقف على سطحها تتأمل الحركة النشيطة ، البهيجة ، المتباينة الألوان ، فى النهر .. فأوت إلى قمرتها لتستوثق من أن الوصيفة لم تغفل شيئاً ،

وألقت نظرة على صورتها فى المرآة .. كانت ترتدى ثوباً أسود صبغته لها الراهبات ، لكنه لم يكن من ثياب الحداد .. وطاف بخاطرها أن ابتياع ملابس للحداد هو أول ما يجب أن تفعله ، فليس أجدى منها فى إسدال ستار كاف لأن يخفى ما قد يساورها من مشاعر لا يهضمها الناس من أرملة !

وسمعت طرقات على باب القمرة ، فخفت الوصيفة تفتحه .. وإذا بصوت يهتف : « مسز فين » !

والتفتت كيتى فرأت وجهاً لم تعرفه فى بادئ الأمر ، ثم خفق قلبها فجأة بسرعة ، وتدافعت الدماء إلى وجهها .. كانت القادمة « دوروثى تاونسند » . وما كانت كيتى لتتوقع أن تراها، ومن ثم لم تدر ماذا تقول أو ماذا تفعل :. لكن مسز تاونسند ولجت القمرة ، وفى حركة سريعة احتضنت كيتى بين ذراعيها معانقة ، وهتفت بها : « أواه يا عزيزتى .. يا عزيزتى .. ما أشد أساى من أجلك ! » .

وانصاعت كيتى لقبلاتها وهى فى دهشة لهذه الحرارة من امرأة طالما اعتبرتها باردة الحس ، متأنفة .. وتمتمت : « إنه لكرم عظيم منك أن أتيت » .

— هيا إلى سطح المركب ، وستعنى الوصيفة بمتاعك ، كما أننى أحضرت خدمى ..

وتناولت يد كيتى ، فانساقت لها كيتى وهى تلاحظ أن وجهها الطيب ، الذى لوحته الشمس بالسمرة ، ينم عن اهتمام صادق ..

وقالت مسز تاونسند : « لقد وصلت مركبك مبكرة عن موعدها ، حتى لقد أوشكت أن لا أكون هنا فى الوقت المناسب .. وما كنت لأحتمل أن لا أكون فى استقبالك .. » .

فهتفت كيتى : « ما أحسبك جئت خصيصاً لاستقبالى » ؟

– بل لهذا جئت ..

– ولكن .. كيف عرفت أننى قادمة ؟

– لقد أبرق لى مستر وادينجتن ..

وأشاحت كيتى بوجهها وقد قفزت إلى حلقها فجأة غصة .. كان من الطريف أن يهز مشاعرها هذا العطف الذى ما كانت تتوقعه . ولم تك راغبة فى البكاء ، وإنما تمنت لو أن دوروثى تاونسند خلفتها وانصرفت ! .. لكن دوروثى أمسكت بيدها التى كانت متخاذلة إلى جوارها ، وراحت تضغطها .. وأدهش كيتى أن تكون لهذه المرأة الخجول مثل هذه المقدرة على التعبير عن عواطفها !

وقالت دوروثى تاونسند : « إننى أريد أن تسدى لى صنيعاً كبيراً .. إن تشارلى وأنا نود أن تأتى فتقيمى معنا خلال مدة وجودك فى هونج كونج » .

فاجتذبت كيتى يدها وقالت : « هذا كرم عظيم منكما .. لكنى لا أستطيع » .

– بل يجب .. ما أراك تذهبين إلى دارك وتقيمين فيها وحدك .. سيكون هذا فظيعاً بالنسبة لك .. لقد أعددت كل شىء ، وستكون

لك غرفة جلوس خاصة بك ، وتستطيعين أن تتناولى فيها وجباتك إذا لم تشائى أن تتناوليها معنا .. كلانا يرجو أن تأتى ..

– لم أكن أفكر فى الذهاب إلى البيت ، بل كنت مزمعة أن أحجز لنفسى غرفة فى فندق هونج كونج ، فما أرجو أن أجشمكم كل هذا العناء ..

كان الاقتراح مفاجأة لها ، فأربكها وساءها .. لو كان لدى تشارلى شىء من اللياقة والأدب ما سمح لزوجته بأن تدعوها .. وما كانت تود أن تكون مدينة لأى منهما بأى فضل !

وقالت دوروثى : « أواه ، إننى لا أطيق التفكير فى أن تقيمى بفندق .. ثم إنك ستكرهين فندق هونج كونج بما يعج به من أناس ، وموسيقى « الجاز » التى تعزف فيه باستمرار .. أرجو أن تقبلى .. لقد وعدت تشارلى ، ولن أضايقك أو أثقل عليك .. » .

فقالت كيتى وقد أوشكت حججها أن تنفد ، دون أن تقوى على أن تعتذر فى حزم بات : « لست أدرى لم توليانى كل هذا العطف ؟ .. أخشى أن لا أصبح الآن فى حالة تمكننى من أن أكون طيبة الصحبة للأغراب » .

– ولكن .. أو نحن غريبان عنك ؟ أواه ، لست أود ذلك ، بل إننى أرغب فى أن تسمحى لى بأن أكون صديقتك ..

وضمت دوروثى يديها ، وبدا صوتها – الصوت الفاتر ، المتراخى

غير المكترث — كما لو كان دامعاً، وهى تستطرد قائلة : « لشد ما أرجو أن تأتى .. الواقع أننى أريد أن أعوضك » .

ولم تفقه كيتى ما كانت تعنى ، إذ لم تكن تدرى بأى تعويض كانت زوجة تشارلى مدينة لها ! .. لكن دوروثى استأنفت حديثها قائلة : « يؤسفنى أننى لم آمل إليك كثيراً فى البداية ، كنت أظنك متحذلقة .. وأنت تعرفين أننى من الجيل القديم ، وأظننى لذلك على شىء من التزمت » .

فرمقتها كيتى بنظرة عابرة .. كانت تعنى أنها ظنتها فى البداية غير محتشمة .. مبتذلة .. ومع أن كيتى جهدت كى لا يلوح على وجهها شىء مما كان يدور فى نفسها ، إلا أنها ضحكت فى أعماقها .. لشد ما أصبحت الآن تحفل بظنون الناس فيها !

واسترسلت دوروثى قائلة : « وعندما سمعت أنك كنت ذاهبة مع زوجك إلى فكى الموت ، دون ما تردد ، شعرت بخوف شديد .. وأحسست بهوان وصغار . لقد كنت رائعة ، كنت شجاعة ، جعلتنا جميعاً نبدو مبتذلات ، وضيعات .. » .

وكانت الدموع فى أثناء ذلك قد انسابت على وجهها الوادع ، الرحيم ، وهى تتابع حديثها : « ليس بوسعى أن أصف لك مدى إعجابى بك ، ولا مبلغ احترامى لك :: إننى لأدرك أننى لا أملك أن أعزيك فى مصابك القاسى ، لكنى أريدك أن تعرفى مدى شعورى العميق ، ومدى وفائى لك .. ولسوف تكون مأثرة منك أن تسمحى

لى بأن أؤدى أية خدمة بسيطة لك .. فلا تحقدى على لكونى أسأت الحكم عليك ، فأنت بطلة ، فى حين أننى لست سوى امرأة حمقاء غبية » .

وغضت كيتى بصرها . كانت شديدة الشحوب ، وتمنت لو أن دوروثى لم تظهر مثل هذه العواطف الفياضة .. صحيح أن هذا أثر فى نفس كيتى ، لكنها لم تستطع أن تقاوم شيئاً من نفاد الصبر والبرم بأن تصدق تلك الساذجة مثل هذه الأكاذيب عنها !

وتنهدت أخيراً قائلة : « إذا كنت مصرة على الرغبة فى أن أنزل ضيفة عليكما فيسرنى طبعاً أن ألبى دعوتك » :

– ٧٢ –

● كان آل تاونسند يقيمون على قمة التل فى بيت يطل الشطر الأكبر منه على البحر . وكان من عادة تشارلى أن لايعود إلى البيت لتناول طعام الغداء ، لكن دوروثى أنبأت كيتى فى يوم وصولها — وقد اطمأنت كل منهما إلى الأخرى وتخلت عن الكلفة — بأنه يسر بأن يحضر ليرحب بها ، إذا أحست برغبة فى أن تلقاه .. ورأت كيتى أنها ما دامت ستضطر إلى رؤيته . فمن الخير أن تراه عاجلا ، وراحت تتمثل فى خاطرها — مسرورة — ما سوف تسببه له من حيرة وارتباك ! وكانت قد تبينت بجلاء أن فكرة دعوتها للإقامة فى البيت قد نبتت فى الأصل فى ذهن زوجته ، وأنه رغم مشاعره الخاصة بادر إلى الموافقة.. وكانت كيتى تدرك مدى رغبته دائماً فى أن يؤدى الواجب — ومن الجلى أن كرم الضيافة من أهم وأقدس الواجبات — ولكنها ما كانت

تستطيع أن تتصور أن فى وسعه أن يتذكر لقاءهما الأخير دون أن يتولاه الخجل الخانق ، فإن هذا اللقاء ينبغى أن يكون – بالنسبة لرجل مزهو مغرور مثل تاونسند – مصدر علة كالقرحة ، لاسبيل إلى شفائها !.. وكانت تتمنى أن تكون قد آلمته كما آلمها ، وتوقن أنه لابد راض نفسه على أن يكرهها .. وسرها أنها لم تكن تكرهه ، بل كانت تحتقره .. وبعث فى نفسها رضاء ينطوى على شىء من السخرية اللاذعة ، أن تتصور أنه رغم مشاعره مضطر إلى أن يكرمها .. إذ لابد أنه تمنى – بعد أن بارحت مكتبه عصر ذلك اليوم المشئوم – أن لا تقع عيناه عليها قط مرة أخرى !

وها هى ذى تجلس مع دوروثى فى انتظار مقدمه ، وقد فطنت إلى أنها استعذبت ما كان فى غرفة الجلوس من فخامة محتشمة ؛ كانت تجلس فى مقعد وثير ، وقد تناثرت الزهور الجميلة هنا وهناك ، وازدانت الجدران بصور بهيجة .. وكانت الحجرة ظليلة ، وجوها عليلا ، وقد سيطرت عليها روح الود والوئام والهدوء : وارتجفت كيتى إذ ذكرت قاعة الجلوس العارية فى دار طبيب الارسالية ، والمقاعد الخيزرانية ، ومنضدة المطبخ بغطائها القطنى ، والأرفف الملطخة التى كانت تحمل كل تلك الروايات الرخيصة ، وتلك الستائر الحمراء ذات المظهر المترب .. لكم كانت داراً غير مريحة !.. ولعل دوروثى لم تفكر يوماً فى هذا الأمر !

وسمعا صوت سيارة تقترب ، وما لبث أن أقبل تشارلى على

الحجرة بخطى واسعة .. وهتف عند دخوله : « هل تأخرت ؟ أرجو أن لا أكون قد أبقيتكما طويلا فى انتظارى ، فقد كنت مضطراً إلى مقابلة الحاكم ولم أجد سبيلا للفرار » :: وتقدم من كيتى فتناول راحتيها قائلا : « لشد ما أنا مسرور بمقدمك : إنى لأدرك أن دوروثى قد أعربت لك عن رغبتنا فى أن تعتبرى دارنا كما لو كانت دارك، ولكننى أحب أن أردد لك هذا القول بدورى . ولن يسعدنى قدر أن أؤدى لك أية خدمة .. » .

وكانت عيناه تومضان بإخلاص وسحر ، فساءلت نفسها : أتراه قد فطن إلى السخرية التى أومضت بها عيناها ؟.. واستطرد يقول : « إننى غبى فى اختيار الكلمات التى تعبر عما فى نفسى ، ولا أريد أن أبدى غبائى هذا ، بيد أننى أحب أن أظهرك على مدى عطفى العميق عليك فى محنتك بوفاة زوجك .. لقد كان شاباً طيباً ، نشيطاً ، ولسوف نفتقده هنا إلى مدى يفوق كل تعبير :. » :

فقالت زوجته : « كفى يا تشارلى ، فإنى واثقة من أن كيتى تدرك ما تعنى .. ها هو ذا الكوكتيل » .

ووفقاً لما اعتاده الأجانب من رفاهية فى الصين ، وفد على الغرفة خادمان فى زى خاص ، يحملان كؤوس وزجاجات « الكوكتيل » وبعض المأكولات الخفيفة . وأبت كيتى أن تتناول شيئاً ، فأصر تاونسند قائلا فى لهجته اللطيفة الخفية : « بل يجب أن تتناولى كأساً ، لسوف تفيدك .. وإنى لواثق من أنك لم تحظى بشىء

كالكوكتيل مذ غادرت هونج كونج ، إذ لم يكن فى وسعك — ما لم أكن مخطئاً — أن تحصلى على ثلج فى « مى — تان — فو » .. » .

فقالت كيتى : « لا .. لست مخطئاً » .

وتمثلت فى ذهنها لحظة صورة المتسول ذى الرأس المشعثة والأسمال البالية التى بدت خلالها ضلوعه النحيلة ، وقد استلقى ميتاً إلى جوار سور دارها .. هناك !

— ٧٣ —

● ونهضوا للغداء ، فجلس تشارلى إلى رأس المائدة ، وراح يدير الحديث بيسر .. وكان قد أخذ يعامل كيتى ، بعد كلمات العزاء القليلة ، لا كامرأة تعانى من تجربة قاسية حديثة العهد ، وإنما كما لو كانت قدمت لتوها من (شانغهاى) للسياحة أو لإجراء عملية لاستئصال الزائدة الدودية .. كانت فى حاجة إلى إنعاش يدخل على نفسها الانشراح ، وكان هو على استعداد لأن يدخل السرور عليها . وكانت خير طريقة تزيل عنها الوحشة أن يعاملها كما لو كانت فرداً من الأسرة .. كان لبقاً بارعاً ، فشرع يتحدث عن حفلة بدء موسم الخريف لسباق الخيل ، وعن رياضة البولو .. ويحه ! لسوف يضطر إلى أن يهجر لعب البولو إذا لم يستطع أن يخفف وزنه .. ثم انتقل إلى الحديث الذى دار بينه وبين الحاكم فى الصباح ، وتكلم عن حفلة حضرها على سفينة القيادة ، وعن الأحوال فى كانتون ، وعن الروابط مع « لوشان » ، فلم تنقض دقائق حتى شعرت كيتى أنها

لم تغب عن هونج كونج أكثر من عطلة قصيرة فى نهاية أسبوع .. وغدا من العسير أن تصدق أن فى الريف ، على بعد ستمائة ميل فقط من المكان — أى ما يعادل المسافة بين لندن وأدنبرة — كان الرجال والنساء والأطفال يهوون صرعى كالذباب !.. وسرعان ما ألفت نفسها تسأل عن هذا أو ذاك ممن اشتركوا فى مباراة البولو ، وعما إذا كانت السيدة « فلانة » قد ذهبت إلى إنجلترا ، أو ما إذا كانت السيدة « علانة » قد اشتركت فى مباريات « التنس » الدورية .. وراح تشارلى يلقى نكاته الخفيفة ويضحك لها ، بينما أخذت دوروثى تعلق على عدة أفراد من موظفى المستعمرة فى سخرية رقيقة ، وقد حف بها شىء من الترفع الذى سرى فى تلك الأثناء إلى كيتى فلم يعد فيه ما يمس شعورها ، بل غدا رابطة توثق ما بينهما .. وهتف تشارلى بزوجته : « انظرى ، لقد بدأ التحسن يظهر عليها .. لقد كانت شديدة الشحوب قبل الغداء حتى أننى جزعت لمنظرها : أما الآن فقد سرى بعض التورد حقاً إلى وجنتيها » :

على أن كيتى راحت تتأمل مضيفها وهى تشترك فى الحديث بشىء من الانتعاش ، لم يبلغ درجة المرح ، إذ أحست أن دوروثى — بل وتشارلى ، رغم روحه المرحة الرائعة — لن يغفرا لها لو أنها انساقت للمرح .. وكانت خلال تلك الأسابيع التى شغل فيها بالها بالنقمة على تشارلى ، قد رسمت له صورة حية من نسج مشاعرها : كان شعره الكث المجعد أطول قليلا مما ينبغى وقد أفرط فى العناية

بتصفيفه .. ولكى يخفى ما بدأ يدب خلاله من شيب ، أخذ يسرف فى تغذيته بالزيت !.. وكان وجهه شديد الاحمرار ، وقد بدت خلال بشرة خديه شبكة من العروق التى اختلطت فيها الزرقة بالحمرة .: وكان فكه ضخماً عريضاً، وما لم يرفع رأسه فإنك تلمح السمنة تهدل تحت ذقنه فيما نسميه « لغداً » .. وفى حاجبيه الكثيفين العريضين، النامى الشعر ، اللذين كانا يثيران فى نفسها اشمئزازاً غامضاً ، كانت ثمة سمة من سمات القرود !.. ثم إنه كان ثقيل الحركة ، إذ لم يحل كل ما كان يبذل من عناية بغذائه ، ولا كل ما كان يمارس من رياضة دون اطراد سمنته . وكان بديناً ، وآثار السن قد بدأت تؤثر على مفاصله .. ثم إن ثيابه الأنيقة كانت ضيقة بالنسبة له ، لا تليق لمن كان فى سنه ..

كانت هذه هى الصورة التى رسمها له خيالها الناقم خلال تلك الأسابيع التى مضت .. لكن كيتى تلقت صدمة أذهلتها حين أقبل على قاعة الجلوس قبل الغداء — ولعل هذا كان السر فى اشتداد شحوبها — فلقد اكتشفت أن خيالها عبث بها ، ولم يك تشارلى يبدو فى الصورة التى تمثلته عليها إطلاقاً ، حتى أنها لم تملك إلا أن تضحك من نفسها : لم يكن فى شعره أثر للشيب قط .: آه ، بل كانت ثمة شعيرات بيضاء قلائل فى مفرقه ، ولكنها كانت حديثة النبت .. ولم يكن وجهه أحمر ، بل أسمر .. وكان رأسه يستوى على عنقه فى رشاقة ، دون ترهل .. ثم إنه لم يكن سميناً ، ولا مكتهلا .. بل

كان فى الواقع رشيقاً ، وكان شكله يدعو إلى الإعجاب .. أفتلومه إذا ازدهى بنفسه قليلا ؟ لقد كان من المحتمل أن يأخذه الرائى على أنه فى شرخ الشباب . ثم إنه كان أنيقاً فى اختيار ثيابه ، فكان من السخف أن ينكر أحد ذلك . كان يبدو أنيقاً ، نظيفاً ، ممشوقاً ، حليق الذقن ، منسق الشعر .. فما الذى انتابها فجعلها تفكر فيه على تلك الصورة ؟ لقد كان مليحاً للغاية ، وكان من حظها أن تبينت مدى خسته وتفاهة شأنه .. ثم إنها كانت تقر دائماً بأن لصوته رنة تملك الأسماع ، فإذا هو كما كانت تتذكره تماماً .. لكن زيف كل كلمة يقولها صار يبدو أثناء كلامه فى وضوح صارخ .. كان رنينه ودفء نبراته يدويان فى أذنيها دوى الخطل وعدم الإخلاص ، فراحت تعجب فى نفسها : كيف قدر لها أن تغتر به ؟ وكانت عيناه جميلتين ، فهنا كانت تكمن فتنته . كان لهما بريق أزرق ، ناعم ، وتعبير تستعذبه النفس ، حتى حين يكون كلامه هذراً لا قيمة له !.. كان من المستحيل أن لا تستهويك عيناه ..

وقدمت القهوة أخيراً، فأشعل تشارلى غليونه ونظر إلى ساعته ، ثم نهض عن المائدة قائلا : « لابد لى من أن أترككما الآن لشئونكما أيتها الشابتان، فقد حان لى أن أعود إلى المكتب .. » .

وأمسك لحظة ، ثم قال وعيناه الساحرتان ترمقان كيتى فى صداقة : « سأدعك يوماً أو اثنين دون مضايقة ريثما تستريحين ، بيد

أننى أحب بعد ذلك أن أتحدث إليك فى بعض الشئون العملية » :

— إلى أنا ؟

— أجل ، يجب اتخـاذ بعض التدبيرات فيما يتعلق ببيتك ، كما تعرفين .. ثم هناك مسألة الأثاث ..

— آه ، ولكننى أستطيع أن أعهد بذلك إلى محـام ، فليس من داع لأن أشغلك به ..

— لا يخطرن ببالك لحظة واحدة أنى سأتركك تبددين نقودك فى استشارات قانونية .: سأتولى كل شىء .. ثم إنك تعـــرفين أن من حقك أن تتقاضى معاشاً ، وسأتحدث إلى سعادة الحاكم فى شـأنه ، لنرى ما إذا كان من الممكن ، بشىء من التوصيات للجهات المختصة ، أن نحصل لك على مزيد .. دعى نفسك فى رعايتى ، ولا تشغلى بالك بشىء . كل ما نريدك الآن أن تفعليه هو أن تستردى صحتك .. أليس كذلك يا دوروثى ؟

— بلى :: بكل تأكيد :

وهز رأسه فى انحناءة بسيطة ، حتى إذا مر بمقعد زوجته تنـاول يدها وقبلها .: ومعظم الإنجليز يبدون سخفاء إذ يقبلون أيدى النساء ، أما هو .: فقد طبع القبلة فى رشاقة وجلال !

— ٧٤ —

● لم تتبين كيتى أنها كانت مضناة مكدودة إلا بعد أن استقرت تماماً فى دار آل تاونسند ، فإن الراحة والرفاهية غير المـألوفتين بددتا

التوتر والإرهـاق اللذين كانت تعانيهما .. كانت قد نسيت متعة ترك النفس على سجيتها ، والدعة التى تنبعث من وجود أشياء بديعة تحيط بالمرء .. واللذة التى توانى النفس حين يجد الشخص أنه موضع الاهتمام والرعاية .. ومن ثم استسلمت — وهى تتنفس الصـعداء — لفخفخة الحياة الشرقية .. ولم يضرها أو يمضها أن تشعر أنها موضع اهتمام مشوب بالعطف والرثاء ، يبذل لها فى أدب وذوق ، وتستر .. فقد كان ترملها حديث العهد ، فكان من المستحيل أن تقام حفلات للحفاوة بها ، بيد أن السيدات ذوات المكانة فى المستعمرة — وهن زوجة صاحب السعادة الحاكم ، وزوجتا أميرال الأسطول وكبير القضـاة — زرنها وتنـاولن الشـاى معها . وقالت زوجة الحاكم : إن سعادته يتوق لرؤيتها ، وإن من دواعى السرور أن تأتى لتناول غداء هادئ بعيد عن كل زخرف أو كلفة « فهو لن يكون مأدبة رسمية بالتأكيد ، مراعاة لحدادك ، ولن يحضره سوانا والياوران » :

ولقد عاملتها هؤلاء السيدات فى ترفق كما لو كانت تحفـــة من الخزف ، هشة ، وثمينة .. ولم يخف عليها أنهن كن يرمقنها كبطلة ، فوجدت متعة فى أن تلعب دورها فى تواضع وإتقان .. وكانت تتمنى — فى بعض الأحيان — لو أن وادينجتن كان حاضراً ، فإن دهـاءه الخبيث كان كفيلا بأن يكشف له ما فى الموقف من فكاهة .. ولعلها لو كانت خلت إليه ، لاتخذت معه مما يجرى مادة للضـحك !.. وكانت دوروثى قد تلقت رسالة منه ، أسهب فيها فى الحديث عن

تفانى كيتى فى العمل فى الدير ، وعن شجاعتهـا وجلدها ورباطة جأشها .. كان يغرر بهن بالطبع .. ذلك الكلب القذر !

– ٧٥ –

● لم تدر كيتى أكان ذلك عن صدفة أم عن قصد ، أنها لم تجد نفسها على انفراد مع تشارلى لحظة .. وكانت معاملته لها قد راعى فيها الحرص ، فلقد ظل كريماً ، رقيقاً ، عطوفاً ، مسلياً .. وما كان أحد ليحدس قط أنهما كانا يوماً على أكثر من مجرد التعارف !.. غير أنه مر بالشرفة بعد ظهر أحد الأيام وهى مستلقية على أريكة خارج غرفتها تقرأ ، فوقف وسألها : « ما هذا الذى تقرئين ؟ » .

– كتاب ..

وتطلعت إليه فى سخرية ، فابتسم وقال : « لقــد ذهبت دوروثى إلى حفلة فى حديقة دار الحكومة » .

– أعرف ذلك .. ولمـاذا لم تذهب أنت الآخر ؟

– لم أشعر بأننى سأقوى على احتمالها ، فرأيت أن أعود لأونسك .. إن سيارتى فى الخارج ، فهل تحبين أن تأتى إلى نزهة حول الجزيرة ؟

– لا .. أشكرك .

وجلس على حافة الأريكة التى كانت ترقد عليهـا وقال : « لم تتح لنا فرصة الكلام على انفراد مذ جئت إلى هنا » .. فحدقت فى عينيه مباشرة بنظرة فاترة ، وقالت : « هل تظن أن لدينـا شيئاً يقوله أحدنا للآخر ؟ » .

– لدينا مجلدات ..

فأبعدت قدميها حتى لا تمسه ، بينما سألها وعلى شفتيه طيف ابتسامة ، وفى عينيه نظرة خلابة : « أما زلت غاضبة منى ؟ » .

فضحكت قائلة : « البتة ! » .

– ما أظنك كنت تضحكين إذا لم تكونى غاضبة ..

– إنك تخطىء ، فأنا أحتقرك احتقاراً عظيماً لا يدع مجالا لأن أغضب منك ..

ولم يؤخذ بردها أو يخجل ، بل قال : « أعتقد أنك قاسية على.. تأملى الماضى فى هدوء ، ألا ترين بحق أننى كنت على صواب » ؟ .

– من وجهة نظرك ..

– أما وقد عرفت دوروثى ، فما أراك ألا تقرين بأنها ظريفة ؟

– حقاً ، ولسوف أظل دائماً مقدرة لكرمها السابغ نحوى :

– إنها واحدة بين ألف من النساء .. ما كنت لأشعر بالسكينة لحظة لو أننا انسقنا فيما كنت تقترحين .. حقاً ما كان أسوأها من حيلة لو أننا لعبنـاها ! .. ثم كان يجب – فوق هـذا كله – أن أفكر فى أبنائى ، فقد كان انفصالى عن أمهم كفيلا بأن يقوم عقبة فى حياتهم !

ظلت برهة ترمقه وهى شاردة الذهن ، وقد أحست أنها سيدة الموقف المسيطرة عليه تمـاماً .. ثم قالت : « لقـد راقبتـك مراقبة دقيقة خلال الأسبوع الذى قضيته هنا ، فانتهيت إلى أنك مشغوف

بدوروثى حقاً .. وما كنت قط لأتصور أنك تشغف إلى هذه الدرجة بأحد ! » .

— لقد أخبرتك بأننى مغرم بها ، وما كنت لآتى أمراً يسبب لها كدراً ولو للحظة واحدة .. إنها خير زوجة فاز بها رجل ..

— هل فكرت يوماً فى أنك مدين لها بالولاء ، وأنك خنت يوماً عهد الوفاء لها ؟

فابتسم قائلا : « ما لم تره العين لا يحزن له القلب ! » .

فهزت كتفيها قائلة : « إنك جدير بالاحتقار » .

— بل أنا بشر .. لست أدرى لم تظنيننى على غير هذه الشاكلة لمجرد أننى وقعت فى هواك ؟ الواقع أننى لم أسع إلى هذا عمداً ، كما تعرفين ..

وخفق قلبها وهى تسمعه ينطق بذلك ، وأجابت فى مرارة : « لقد كنت ضحية سهلة » .

— الواقع أنى ما كنت لأتنبأ بأننا كنا مسوقين إلى مثل تلك الورطة اللعينة ..

— وكانت لديك ، على أية حال ، فكرة أريبة أوحت لك بأنه إذا كان لابد لأحد من أن يعانى ويتألم ، فلا ينبغى أن تكون أنت ذلك الواحد !

— أظن أن فى هذا شيئاً من التجنى .. وعلى العموم فإن المسألة انتهت ، وخليق بك أن ترى أننى إنما صدرت فى تصرفى عن

حرص على خير كل منا . لقد طاش فكرك إذ ذاك ، وكان ينبغى أن تغتبطى بأننى احتفظت بتعقلى .. أفتظنين أننا كنا نفلح لو أننا أتينا ما كنت تريدين ؟ لقد دفعنا فى غير هوادة إلى « المقلاة » ، ولكن حالنا كانت تزداد سوءاً لو أننا قفزنا إلى النار !.. ثم إنك لم تصابى بأى ضرر .. فلم لا نتبادل قبلة الصفح ونغدو صديقين ؟

وكادت تضحك .. وقالت : « ما ينبغى لك أن تتوقع أن أنسى أنك أرسلتنى إلى موت محقق دون أنفه وازع من ضمير !؟ » :

— آه ، أى هراء هذا ؟.. لقد أنبأتك بأن لا خطر هناك إذا اتبعت الاحتياطات المعقولة .. أو تظنين أننى كنت أدعك تذهبين لحظة واحدة لولا أننى كنت مقتنعاً بذلك كل الاقتناع ؟

— كنت مقتنعاً لأنك كنت راغباً فى الاقتناع .. إنك أحد أولئك الجبناء الذين لا يفكرون إلا فيما يرون أن التفكير فيه يعود عليهم بالنفع !

— حسناً ، إن الأكل خير مايدل على جودة الطعام .. وها أنتذى قد عدت ، وإذا لم يسؤك أن أقول الحق ، فأنت قد عدت أجمل من قبل !

— و « وولتر » ؟

ولم يقو على مقاومة الجواب المنطوى على تملق والذى قفز إلى ذهنه ، فابتسم قائلا : « لا يلائمك لون مثل الأسود .. » .

فحملقت فيه برهة ، واغرورقت عيناها بالدموع ، ثم شرعت

فى البكاء .. وعبث الأسى بوجهها الجميل ، فلم تحاول أن تخفى شجونها، ولكنها استلقت على ظهرها وذراعاها إلى جانبها، فهتف : « لا تبكى بربك .. ما أردت أن أقول لك ما يؤلم .. كانت مجرد مزحة .. إنك لتعرفين مدى إشفاقى عليك فى حزنك » .

– أواه .. أمسك لسانك الغبى عن الكلام !

– إننى لا أضن بشىء فى سبيل استرجاع وولتر ..

– لقد مات بسببك وسببى !

فتناول يدها .. لكنها انتزعتها منه ، وقالت منتحبة : « أرجو أن تنصرف .. هذا هو الشىء الوحيد الذى أوده منك الآن . إننى أكرهك وأحتقرك ! كان وولتر خيراً من عشرة من صنفك، وكنت حمقاء رعناء إذ لم أتبين ذلك فى حينه .. اخرج .. اخرج ! » .

ورأته يهم بأن يتكلم ، فقفزت من مكانها وهرعت إلى مخدعها . فتبعها ، ودخل خلفها .. وفى حذر غريزى ، أغلق مصاريع النافذة حتى أصبحا فى ظلام تقريباً .. وقال وهو يحيطها بذراعيه : « لا أستطيع أن أتركك هكذا .. إنك لتعلمين أننى لم أرد أن أسىء إليك .. » .

– لا تمسنى .. اذهب بالله .. اذهب ..

وحاولت أن تنتزع نفسها منه ، ولكنه لم يفلتها .. وأخذت تبكى فى انفعال .. فقال فى صوته العميق ، الساحر : « ألا تعرفين

يا حبيبتى أننى كنت دائماً أحبك .. وأننى اليوم أكثر حباً من ذى قبل ؟ » :

– ما أبرعك فى نسج الأكاذيب ! .. دعنى .. لعنة الله عليك .. دعنى !

– لا تكونى قاسية على يا كيتى .. إننى لأدرك أننى كنت فظاً معك ، ولكن .. اصفحى عنى .

وكانت ترتعد وتبكى وهى تحاول التخلص منه ، لكن ضغط ذراعيه كان يبعث فيها ارتياحاً غريباً .. لشد ما حنت إلى أن تحس بهما حولها مرة أخرى ! .. مرة واحدة .. وأخذ كل جسدها يرتعد .. وشعرت بوهن مفرط .. كأنما كانت عظامها تنصهر وتذوب .. واستحال الأسى الذى كان يتولاها من أجل وولتر ، إلى رثاء لنفسها ..

فقالت وهى تنتحب : « أواه ! .. كيف تقوى على أن تقسو على هكذا ؟ .. ألا تعرف أننى أحببتك بكل قلبى ؟ .. ما أحبك أحد قط كما أحببتك ! » .

– يا حبيبتى ...

وأخذ يقبلها ، فصاحت : « لا .. لا » .

وراح يتلمس وجهها بشفتيه، فأشاحت عنه .. وتلمس شفتيها .. ولم تعرف ما كان يقول من كلمات الهوى المشبوبة بلهجته المتهدجة .. وكانت ذراعاه تشدانها فى قوة حتى أنها أحست بأنها كالطفل الذى

كان تائهاً ثم اهتدى إلى داره بسلام .. وأخذت تئن فى وهن .. وكانت عيناها مغمضتين ، ووجهها مبللا بالدموع .. ثم عثر على شفتيها ، فأطبق عليهما بشفتيه ، وإذا بهـا تشعر كأن جـذوة من نار خالدة انطلقت فى جسدها .. كانت نشوة .. نشوة حارقة تألقت بوهجها كأنهـا طيف شفاف .. ما عرفت مثل هذه النشوة إلا فى أحلامها .. فى أحلامها .. ما الذى يفعله بها الآن ؟.. لم تدر .. لم تعد امرأة .. تحللت شخصيتها .. لم تعد شيئاً سوى .. شهوة !.. ورفعها إلى قدميها ، فإذا بها خفيفة فى ذراعيه .. وحملها ، فتعلقت به فى وجد وفى استسلام يائس .. وغاص رأسها فى الوسادة وقـد علقت شفتاه بشفتيها !

— ٧٦ —

● جلست على حافة الفراش وهى تخفى وجهها براحتيها .

وسألها : « هل تودين جرعة ماء ؟ »

فهزت رأسها بالإيجاب .. وسار إلى الحوض ، فملأ كوباً وحملها إليها قائلا : « هيا .. اشربى بعض المـاء لتنتعشى » .. ورفع الكوب إلى شفتيها فرشفت المـاء ، ثم حملقت فيه بعينين مرتاعين .. وكان يقف أمامها يصوب نحوها نظراته من أعلى قامته ، وفى عينيه وميض الرضى عن النفس .. وسألها : « أو ما زلت ترينني كلباً قذراً ؟ » :

فغضت بصرها وقالت : « أجل ، ولكننى أعرف أننى لست خيراً منك .. آه ، ما أشد عارى ! » .

— أرى أنك شديدة الجحود ..

— هلا انصرفت الآن ؟

— إن شئت الحق فإننى أرى أن الوقت قد حان ، سأسوى من مظهرى ما تشعث قبل أن تأتى دوروثى ..

وغادر الغرفة فى خطى رشيقة .. وجلست كيتى هنيهة على حافة سريرها ، مقوسة الظهر ذاهلة وكأنها مخبولة !.. كان ذهنها خاوياً.. وسرت فى كيانها قشعريرة ، ثم نهضت إلى منضدة الزينة فتهالكت على مقعدها ، وراحت تحدق فى شكلها المنعكس على صفحة المرآة .. كانت عيناها متورمتين لفرط البكاء ، ووجهها مبللا بالدموع ، وعلى أحد خديها علامة حمراء ، حيث كان قد أسند رأسه .. وتأملت نفسها مرتاعة .. كان الوجه هو ذات الوجه الذى كان لهـا ، وكانت قد توقعت أن يطرأ عليه تغير يسجل الانحطاط والصغار والهوان .. وصاحت فى الصورة المنعكسة على صفحة المرآة أمامها : « يا لك من خنزيرة .. خنزيرة ! » .

ثم تركت وجهها يسقط على ذراعها وانخرطت فى بكاء مرير .. يا للعار !.. يا للعار !.. إنها لم تدر ماذا دهاها .. ما كان أفظع ما جرى ! وأحست بأنها تكرهه ، وتكره نفسها ! لقد كانت فى نشوة .. ألا ما أبغض ذلك ! إنها لن تقوى مرة أخرى على أن ترفع بصرها إلى وجهه .. لقد أثبت الحادث أنه كان على حق ، إنه أصاب إذ أبى أن يتزوج منها ، لأنها تافهة حقيرة ، لا تفضل العاهرات

فى شىء !.. أواه ، بل هى أسوأ منهن ، إذ أن هؤلاء النسوة يبذلن أنفسهن من أجل العيش .. أما هى ؟.. ثم ، أيحدث ذلك فى البيت الذى آوتها فيه دوروثى فى أساها ووحدتها القاسية !؟ وراحت كتفاها تهتزان مع شهقاتها .. لقد ذهب كل شىء . كانت تظن أنها تغيرت . كانت تظن أنها قوية .. كانت تظن أنها عادت إلى هونج كونج امرأة كاملة السيطرة على نفسها .. وراحت الأفكار الجديدة ترفرف حول قلبها كفراشات صفراء صغيرة فى أشعة الشمس المشرقة .. كانت تبنى آمالا جساماً حول مستقبل أفضل .. لقد أشارت إليها الحرية كروح من نور كى تتقدم . وبدت الدنيا كسهل فسيح تسير فيه بخطى خفيفة وهى رافعة الرأس .. ظنت نفسها قد تحررت من الشبق والعواطف الآثمة ، تحررت لتعيش كالروح طاهرة نظيفة — حتى لقد شبهت نفسها بطائر « أبى قردان » الأبيض الذى يطير طليقاً فوق حقول الأرز فى الغسق ، فى أسراب كالأفكار التى تحوم فى آفاق ذهن رانت عليه الطمأنينة — كانت تظن ذلك فى نفسها ، فإذا بها عبدة رقيق .. أمة .. ضعيفة .. وأى ضعف ! لم يكن ثمة أمل .. ولا جدوى فى أن تحاول ، فهى امرأة قذرة !

ولم تشأ أن تتناول العشاء على مائدة الأسرة ، بل أوفدت الخادم ينبئ دوروثى أنها تعانى صداعاً وتؤثر أن تلازم غرفتها .. فأقبلت دوروثى ، وما أن رأت عينيها المتورمتين ، حتى تحدثت إليها قليلا بلهجتها اللطيفة ، المخففة ، المهونة للأمور .. وأدركت كيتى أن

دوروثى حسبتها كانت تبكى وولتر ، ومن ثم احترمت حزنها الطبيعى فى عطف كأية زوجة طيبة محبة ، فلم تشأ أن تثقل عليها .. وإنما قالت وهى تتركها : « إننى لأعرف أن الأمر جد صعب يا عزيزتى ، ولكن يجب أن تتجلدى ، فإنى لموقنة من أن زوجك العزيز ما كان يبغى منك أن تحزنى عليه بهذا الشكل .. » .

— ٧٧ —

● غير أن كيتى استيقظت مبكرة فى الصباح التالى ، فتركت رسالة لدوروثى تنبئها فيها بأنها ذاهبة لإنجاز عمل لها ، ثم استقلت الترام هابطة التل ، وشقت سبيلها خلال الطرق الزاخرة بالسيارات ، والمركبات التى يجرها البشر « الريكشو » والمحفات ذات المقاعد ، وأفواج الأوربيين والصينيين ، إلى مكتب شركة البواخر .. كانت ثمة باخرة ستبحر بعد يومين ، وقد عقدت كيتى عزمها على أن تستقلها ، مهما كلفها ذلك من ثمن .. فلما أنبأها الكاتب بأن جميع الأماكن محجوزة ، طلبت أن ترى رئيس المكتب . وكان الرجل قد تعرف إليها من قبل ، فلما أرسلت له اسمها ، خرج بنفسه يدعوها إلى مكتبه . وكان يعرف ظروفها ، فلم تكد تظهره على رغبتها حتى بادر فطلب قائمة أسماء المسافرين ، وتأملها فى حيرة .. بينما راحت تهيب به : « أناشدك أن تبذل ما فى وسعك من أجلى .. » . فأجابها : « لا أظن أن فى المستعمرة من لا يرغب فى أن يفعل أى شىء من أجلك يا مسز فين .. » .

وأرسل يستدعى أحد الموظفين ، فوجه إليه بعض أسئلة ، ثم هز رأسه وقال : « سأغير مكان واحد أو اثنين ، فإننى أعرف أنك تريدين أن تعودى إلى الوطن ، وأعتقد أن علينا أن نبذل قصارى جهدنا من أجلك .. إننى أستطيع أن أفرد لك قمرة صغيرة ، وأرجو أن يروق لك ذلك » .

فشكرته ، ثم غادرته بقلب تخفف من بعض همومه .. كان الفرار هو الفكرة الوحيدة التى أصبحت تشغل بالها .. الفرار !.. لذلك بادرت بالإبراق إلى أبيها تعلن عودتها فوراً ، وكانت قد أبرقت إليه تخبره بموت وولتر ، ثم عادت إلى آل تاونسند فأخبرت دوروثى بما فعلت .. وصاحت المرأة الكريمة : « لسوف نأسف إذ نحرم منك ، ولكننى أدرك طبعاً مدى رغبتك فى أن تكونى مع أمك وأبيك .. » .

وكانت قد ترددت — مذ عادت إلى هونج كونج — فى الذهاب إلى دارها ، فلقد كانت تبغض أن تلجها ثانية ، وأن تواجه الرؤى والذكريات التى كانت تعمر بها .. ولكن لم يعد لها الآن خيار ، إذ كان تاونسند قد دبر أمر بيع الأثاث ، كما وجد شخصياً تواقاً إلى أن يستأجر البيت .. ولكن بقيت هناك كل ثيابها وثياب وولتر ، إذ لم يكونا قد أخذا إلى « مى — تان — فو » شيئاً يذكر منها ، كما كانت هناك كتب ، وصور ، وأشياء عديدة متباينة .. ومع ما كانت عليه كيتى من زهد فى كل شىء ، ومن تلهف على أن

تقطع ما بينها وبين الماضى تماماً ، إلا أنها تبينت ما سوف تثيره من استنكار فى المستعمرة إذا تركت هذه الأشياء تباع فى قاعة المزايدات ، وإذن فلا بد من أن تجمع كلها وترسل إليها .. لذلك تأهبت بعد الغداء للذهاب إلى البيت : وأبدت دوروثى تحمساً لمساعدتها ، فعرضت عليها أن تصحبها ، لكن كيتى رجت أن يسمح لها بالذهاب وحدها ، وإن قبلت أن يرافقها صبيان من خدم دوروثى ليساعداها فى حزم الأشياء ..

وفتح لها باب البيت رئيس الخدم الذى كان يتعهده فى غيابها وغياب زوجها .. وأحست باستغراب وهى تدخل البيت ، وكأنها غريبة عنه .. وألفته نظيفاً منظماً .. كان كل شىء فى مكانه ، على أتم عدة لكى يستعمل ، ولكن كان يشيع فى الحجرات جو من البرودة والوحشة ، رغم أن اليوم كان دافئاً مشمساً . كان الأثاث مرتباً منسقاً ، كل قطعة فى مكانها الذى يجب أن تكون فيه .. والأوانى الخالية من الزهور فى أماكنها .. والكتاب الذى لا تذكر كيتى متى تركته مقلوباً على وجهه وهو مفتوح ، لا يزال فى وضعه المقلوب .. كأنما لم يترك البيت خالياً أكثر من دقيقة ، ولكنها كانت دقيقة زاخرة أبدية ، حتى أنك لا تستطيع أن تتصور أن جو هذا البيت سيردد مرة أخرى أصداء الكلام والضحكات ! .. وكانت على البيانو « نوتة » لحن « فوكستروت » كأنما كانت ترتقب أن تعزف ، ولكنك كنت تحس بأنك إذا دققت أصابع المعزف لما انبعث منها نغم ! .. وكانت

غرفة وولتر منسقة فى عناية كما لو كان موجوداً ، وعلى « الشفونيير » جثمت صورتان كبيرتان لكيتى إحداهما فى ثوب الخطوبة والأخرى فى ثوب الزفاف ..

ولم يلبث الخادمان أن أحضرا الحقائب ، فوقفت كيتى تراقبهما وهما يجمعان المتاع فى عناية وسرعة . وخطر لها أن فى الوسع الفراغ من المهمة فى يومين ، وعليه فلا ينبغى أن تنساق للخواطر والتأملات ، إذ لا وقت لديها تضيعه ..

وفجأة ، سمعت وقع قدمين خلفها ، فاستدارت لترى « تشارلى » واقفاً . وشعرت برعدة تسرى فجأة فى كيانها ، فسألته : « ماذا تريد ؟ » :

— هلا جئت إلى حجرة الجلوس ؟ لدى حديث معك ..

— إننى جد مشغولة .

— لن أستبقيك أكثر من خمس دقائق .

ولم تجادل ، بل أمرت الخادمين بأن يمضيا فيما كانا يعملان ، وتقدمت تشارلى إلى الغرفة المجاورة . ولم تجلس ، لتشعره بأنها تتوقع أن لا يستبقيها . وكانت تدرك أن وجهها شديد الشحوب ، وأن قلبها كان يخفق فى سرعة ، لكنها واجهته فى رزانة والعداء يتجلى فى عينيها ، وسألته : « ما الذى تبغيه ؟ » .

— سمعت من دوروثى أنك راحلة بعد غد ، وقد أنبأتنى بأنك

شئت أن تأتى إلى هنا كى تحزمى متاعك ، وسألتنى أن أتصل بك تليفونياً لأرى ما إذا كنت فى حاجة إلى خدمة أستطيع تأديتها لك ؟

— إننى جد شاكرة ، ولكننى أستطيع أن أؤدى لنفسى كل شىء :

— هذا ما رجحته ، فأنا لم أجئ لهذا الغرض ، وإنما جئت لأسألك عما إذا كان سفرك المفاجئ قد ترتب على ما حدث بالأمس ؟

— لقد كنت ودوروثى حفيين بى ، ولم أشأ أن تظن أننى كنت أستغل طيبتكما .

— هذا ليس بالجواب الصريح .

— وماذا يعنيك من ذلك ؟

— بل هناك مايعنينى جداً ، فلست أحب أن أتصور أن أى عمل صدر منى قد دفعك إلى الرحيل !

وكانت تقف إلى جوار المنضدة ، فحانت منها نظرة إلى سطحها ، وإذا بعينيها تقعان على نسخة مجلة « سكيتش » . كان قد انقضى عليها شهر ، وكانت ذات النسخة التى راح وولتر يحملق فيها فى تلك الليلة الرهيبة ، حين .. ولكن ، أين هو وولتر الآن ؟

ورفعت عينيها إلى تشارلى قائلة : « إننى أشعر بالضعة والخسة .. وما أظنك تحتقرنى بقدر ما أحتقر نفسى ! » .

— ولكننى لا أحتقرك ، بل كنت أعنى كل كلمة قلتها بالأمس.. ما جدوى الفرار هكذا؟ لست أدرى لم لا نكون صديقين على وئام .. إننى أكره أن تظنى أننى أسأت معاملتك ..

— لم لا تدعنى وشأنى ؟

— يا للتجنى ! أنا لست جماداً .. إن الأمر — وفق وجهة نظرك — غير معقول .. بل إنه لفظيع .. لقد ظننت بعد الذى جرى بالأمس أنك قد تعاملينني بشيء من العطف ، فما نحن على أية حال سوى بشر !

— لكننى لا أشعر بأننى بشر ، بل أرانى أشبه بالحيوان .. بخنزير ، أو أرنب ، أو كلب .. أواه ! .. إننى لا ألومك ، فقد كنت مفسودة مثلك .. وقد استسلمت لك لأنى اشتهيتك .. لكن التى اشتهتك فى لم تكن أنا ، فأنا لست تلك المرأة الكريهة ، الحيوانية ، الشهوانية .. إننى أبرأ منها .. لم أكن أنا التى رقدت على ذلك الفراش تلهث شبقاً إليك ، ولما تكد جثة زوجى تبرد فى قبره ، وبينما كانت زوجتك كريمة معى بهذا الشكل الذى لاسبيل إلى وصفه ! .. بل إن ذلك كان الحيوان الذى فى كيانى .. حيوان أسود ، مخيف ، كالروح الشريرة ! وإنى لأبرأ منه ، وأكرهه ، وأحتقره .. ومنذ تلك اللحظة وأنا ، كلما فكرت فيما حدث ، أحس بأمعائى تقفز إلى حلقى ، وبنفسى تتقزز ! !

فعبس قليلا ، وأرسل ضحكة ساخرة قصيرة نمت عن ارتباك ، ثم قال : « إننى واسع الذهن فى العادة ، لكنك تقولين أحياناً أشياء تذهلنى ! » .

— يؤسفنى هذا ، ويخلق بك أن تنصرف الآن .. إنك رجل وضيع لا وزن له ، وإنى لحمقاء إذ أحدثك بهذه الجدية !

بقى هنيهة لا يحير جواباً ، ورأت فى عينيه الزرقاوين سحابة نمت عن أنه غاضب منها ، وأنه سوف يتنفس الصعداء حين يودعها للمرة الأخيرة — فى أدبه وظرفه المألوفين ! — وراق لها أن تفكر فى الأدب الذى ستشكره به على حفاوته حين يصافحها متمنياً لها رحلة ممتعة .. لكنها سرعان ما رأت أساريره تتغير ، ثم قال : « لقد أخبرتنى دوروثى أنك حامل » .

وأحست بالدماء تتصاعد إلى وجهها ، لكنها لم تدع خلجة فيها تنم عن أى تأثر ، وقالت : « إنى كذلك » .

— أترينني .. الأب ؟

— لا .. لا .. إنه طفل وولتر .

نطقت بالرد وهى تضغط على مخارج كلماتها بدافع لم تقو على تفاديه ، لكنها كانت تدرى — رغم ذلك — وهى تتكلم ، أن هذه ليست اللهجة الكافية للإقناع ..

وقال وعلى شفتيه ابتسامة وقحة : « أواثقة أنت ؟ لاتنسى أنك زففت إلى وولتر منذ عامين دون أن تنجبا نسلا .. ثم إن تاريخ علاقتنا يتفق مع تاريخ الحمل .. لذلك أظن أن الأكثر احتمالا هو أن الطفل منى لا من وولتر ! » .

— إننى أوثر أن أقتل نفسى عن أن أحمل طفلا منك !

— آه ، دعى الهذر الفارغ .. إننى على العكس أسر جداً وأفخر .. وأتمنى لو كانت بنتاً ، فأنا كما تعلمين لم أنجب من دوروثى سوى

ذكور .. على أن أمد ارتيابك لن يطول فى الواقع ، فإن أولادى
يجيئون صورة حية منى !

وكان قد استرد روح الفكاهة ، وقد أدركت كيتى السبب :
كان مطمئناً إلى أن الطفل لو كان منه ، فإنها لن تنجو منه تماماً ،
ولو لم تره ثانية .. بل إن سلطانه سيمتد إليها أينما كانت ، وسيظل
– بطريقة مبهمة ، ولكنها أكيدة – يبسط نفوذه عليها طيلة حياتها !

وقالت : « إنك أعظم بغل مغرور مأفون دفعه الحظ النكد
فى طريقى ! »

– ٧٨ –

● وقفت كيتى تملى بصرها بمنظر الساحل الصخرى الجميل الوشى
وقد استلقى تحت أشعة الشمس ، والسفينة تقترب من مرسيليا .. ووقع
بصرها فجأة على تمثال العذراء الذهبى القائم فوق قمة كنيسة سانت
مارى ، يبشر راكبى البحر بسلامة الوصول .. وتذكرت راهبات
دير « مى – تان – فو » عند مغادرتهن وطنهن إلى الأبد، وقد جثون
راكعات، وصورة التمثال تضمحل فى ناظرهن كلما ازدادت السفينة
بعداً ، حتى لم يعد أكثر من جذوة ذهبية صغيرة فى رقعة السماء
الزرقاء ، فأخذن يصلين كى تطغى صلاتهن على خفقات قلوبهن
الملتاعة بالفراق ..

وضمت كيتى يديها فى تبتل وخشوع لقوة لم تدر كنهها ! ..
كانت طيلة الرحلة الهادئة لا تكف عن التفكير فى ذلك الأمر المروع

الذى وقع لها . كانت عاجزة عن أن تفهم نفسها . وكان الأمر ذاته
غير متوقع .. ترى ما هذا الذى تملكها فجأة فجعلها تستسلم فى شوق
لعناق تشارلى الآثم وهى تحتقره بجماع قلبها وتزدرى نفسها ؟ وأحست
بالسخط يملأ قلبها ، وبالاشمئزاز يقهرها .. وشعرت بأن ليس فى
وسعها قط أن تنسى هوانها وترديها .. فكانت تبكى ، لكنها تبينت
أن حنقها كان يفقد عنفوانه كلما باعدت المسافة بينها وبين هونج
كونج .. وأخذت ترى ما حدث وكأنما حدث فى عالم آخر ! كانت
كشخص أصيب فجأة بمس من جنون ، فلما شفى أحس بالخجل
للمضحكات التى تذكر فى إبهام غير واضح أنه أتاها حين كان فاقد
الوعى ! .. ولكنه كان يترفق بنفسه – فيما بينه وبينها على الأقل – إذ
يوقن من أنه لم يكن فى وعيه .. وخيل لكيتى أن القلوب الرحيمة قمينة
بأن ترثى لها بدلا من أن تلعنها ، لكنها كانت تتنهد محسورة إذ ترى
كيف تناثرت ثقتها فى نفسها بدداً بهذه الكيفية المحزنة .. كانت الطريق
تلوح أمامها فيما مضى ممتدة ، ممهدة ، مستقيمة ، فإذا بها تراها الآن
ملتوية ، مليئة بالوهاد والحفرات التى ترقبها لتبتلعها ! .. غير أن
الفضاء الفسيح ومناظر الغروب ذات الجمال الساجى – فى المحيط
الهندى – كانت تطامن من أشجانها ، فلاح لها أنها فى طريقها إلى بلد
تستطيع فيه أن تملك نفسها بملء حريتها .. لو أنها استطاعت فقط أن
تسترد احترامها لنفسها ، مقابل هذا الصراع النفسى المرير ، لوجدت
الشجاعة كى تكافح لتسترد روحها !

وكان المستقبل أمامها موحشاً عسيراً .. كانت حين بلغت الباخرة (بورسعيد) قد تلقت من أمها رسالة رداً على برقيتها ، وكانت رسالة طويلة كتبت بخط كبير منمق كانت تدرب عليه بنات الأسرات فى عهد صبا أمها .. وكان الإسراف فى تنميقه يوحى بالزيف والرياء ، إذ عبرت فيه مسز جارستين عن حزنها لوفاة وولتر ، وأزجت التعزية اللائقة لابنتها ، وذكرت أنها تخشى أن تكون كيتى قد تركت دون موارد كافية ، لكن وزارة المستعمرات ستهبها ولابد معاشاً .. كما أبدت سرورها إذ علمت أن كيتى عائدة إلى إنجلترا ، وذكرت أن فى وسعها بالطبع أن تقيم مع أبيها وأمها « ريثما تضع مولودها » .. ثم عقبت ببضع تعليمات طلبت إلى كيتى أن تحرص على اتباعها ، وبفيض من التفصيلات عن أختها دوريس وظروف وضعها ، ووزن المولود ، وما ذكره جده لأبيه من أنه لم ير أجمل منه ! .. وقالت إن دوريس حامل مرة أخرى ، وأنهم يأملون أن يكون الجنين ذكراً ، تدعيماً لوراثة لقب أسرة أبيه وثروتها ..

وتبينت كيتى أن أهم ما تضمنته الرسالة هو تحديد مدى إقامتها بين والديها بوضع مولودها ! فما كانت مسز جارستين راغبة فى أن تثقل عاتقها ابنة أرملة ذات موارد متواضعة ! .. وعجبت من أن أمها أصبحت تضيق بها ولا ترى فيها سوى مصدر للإزعاج ، وهى التى كانت تعتز بها وتفخر ! .. ما أغرب ما تكشف لها العلاقات بين الوالدين والأبناء ! .. فالوالدون يحنون على أطفالهم ، ويعانون الآلام

القلق كلما مسهم مرض من أمراض الطفولة .. والأبناء يتعلقون بآبائهم فى حب وإعجاب .. ثم تمر سنوات قلائل ، فإذا الأبناء قد كبروا ، وأصبحوا يجدون فى آخرين – لا يمتون إليهم بصلة – مصدراً للسعادة أهم من الأب أو الأم ! ويحل عدم الاكتراث محل الحب الغريزى الأعمى الذى كان يشد الابن فى ماضيه إلى أبويه ويشدهما إليه .. ويصبح اللقاء بينه وبينهما مبعث ضيق وسأم .. وبعد أن تكون فكرة الفراق لشهر واحد مبعث إشفاق وهلع ، يغدو من السهل على الفريقين أن يتطلعا دون ما جزع إلى فراق يمتد سنوات ! .. وقالت كيتى لنفسها أن لا حاجة بأمها إلى أن تقلق ، فإنها ستعمل على تأثيث بيت لنفسها بمجرد أن تتمكن من ذلك .. بيد أنها مضطرة إلى مهلة ، فكل شىء يبدو لها الآن مبهماً غامضاً ، حتى ليعز عليها أن ترسم للمستقبل صورة واضحة .. إذ من يدرى ، فقد تقضى نحبها أثناء المخاض ! .. ولكم يحل هذا كثيراً من المتاعب العويصة !

على أنها عادت فتلقت – حين استقرت السفينة فى مرسيليا – رسالتين ، فأدهشها أن تعرف خط أبيها على إحداهما – إذ لم تذكر أنه كتب إليها يوماً قط – ولم يكن سلس العبارة ، مسرفاً فى إظهار عواطفه ، بيد أنه بدأ رسالته بـ « عزيزتى كيتى » ، ثم أنبأها بأنه يكتب بدلا من أمها لأن هذه أصيبت بمرض استدعى ضرورة نزولها بمصحة كى تجرى لها عملية جراحية . ولم تجزع كيتى ، بل رأت أن تظل على ما انتوته من مواصلة السفر بالبحر ، إذ أن السفر براً كان أكثر

نفقة ، فى حين أنه لم يعد من الملائم لها أن تنزل بدار أبويها فى «هارينجتن جاردنز» وأمها غائبة عن الدار .

أما الرسالة الثانية فكانت من شقيقتها دوريس ، وقد بدأتها بـ «كيتى أيتها الحبيبة» ، لا لأنها كانت تكن لها عاطفة خاصة ، وإنما لأنها اعتادت أن تنادى كل من تعرف بهذا النداء .. وقد جاء بالرسالة :

«كيتى أيتها الحبيبة :

«أظن أن أبى قد كتب لك .. لقد أجريت لأمنا عملية ، ويبدو أن المرض كان قد استفحل منذ عام ، ولكنك تعرفين أنها تكره الأطباء ، ومن ثم ظلت تتناول مختلف الأدوية الجاهزة دون مشورة طبية .. ولست أدرى كنه دائها تماماً ، إذ أنها تصر على تكتم الأمر كله ، وتهتاج فى حنق إذا سألتها . على أن حالها تبدو سيئة ، ولو كنت فى موقفك لغادرت السفينة فى مرسيليا وعدت بأسرع ما أستطيع .. ولكن لا تفشى شيئاً من هذا الذى ذكرت لك ، لأنها تتظاهر بأنها لا تعانى ما يدعو إلى أى قلق ، ولا تريدك على أن تصلى قبل أن تكون قد عادت إلى البيت .. حتى لقد حملت الأطباء على أن يعدوها بأن تنقل من المصحة خلال أسبوع .. ولك حبى — دوريس» .

«تعقيب : لكم أسفت لما أصاب وولتر .. لابد أنك ياحبيبتى المسكينة قد عانيت كثيراً .. أننى أموت شوقاً لرؤيتك . ومن الطريف أن تكون كل منا حامل فى آن واحد .. على أننا سنستطيع أن نتصافح رغم تضخم بطنينا !» .

وظلت كيتى واقفة على سطح الباخرة هنيهة وقد استغرقت فى التفكير ، فما كانت لتتصور أن تمرض أمها .. بل إنها لا تذكر أنها رأتها إلا نشيطة ، حازمة ، عاملة ، حتى لقد كانت تضيق دائماً بسقام الغير !

وفيما هى كذلك ، أقبل خادم يحمل إليها برقية .. جاء فيها : عميق أسنى إذ أنبئك بأن أمك قد توفيت هذا الصباح — أبوك» .

— ٧٩ —

● دقت كيتى جرس باب البيت القائم فى (هارينجتن جاردنز) وقيل لها إن أباها كان فى غرفة المكتب ، فسعت إلى الباب وفتحته فى رفق ، وإذا أبوها جالس إلى جوار المدفأة ، يقرأ الطبعة الأخيرة من صحيفة المساء .. وتطلع إليها إذ دخلت ، ثم وضع الصحيفة جانباً وقفز مستوياً على قدميه فى انفعال .. وهتف : «أهذه أنت يا كيتى .. ظننتك لن تصلى إلا فى آخر قطار ..» .

— رأيت أن لا أجشمك عناء الذهاب لاستقبالى ، فلم أبرق لك بموعد وصولى ..

وقدم لها خده لتقبله بالطريقة التى ما زالت تذكرها ، ثم قال : «كنت ألقى نظرة على الصحيفة ، فإننى لم أقرأ الأنباء منذ يومين» .. وتبينت أنه يشعر بأن لابد له من أن يبرر اهتمامه بشئون الحياة العادية ، فقالت : «أجل .. لا بد أنك مضنى ، فما أعتقد إلا أن موت أمى كان صدمة كبيرة لك ..» .

وبدا لها أكثر شيخوخة ونحولا مما رأته آخر مرة .. بل ، أجف
عوداً ، وأكثر ذبولا ، وأدق حرصاً فى تصرفاته وأقواله وحركاته عن
ذى قبل .. ومضى يقول : « لقد قال الجراح إنه لم يكن ثمة سبيل ولا
أمل ، فإنها لم تكن فى صحة طبيعية منذ أكثر من عام ، ولكنها كانت
تأبى أن تعرض نفسها على طبيب .. بل لقد أنبأنى بأنها ولا بد كانت
فى ألم مستمر ، وقال إن احتمالها الألم كان معجزة ! » .

— ألم تشك قط ؟

— كل ما كانت تقوله إنها لم تكن على ما يرام :. لكنها لم تشك
ألماً قط ..

وأمسك عن الكلام ، وتأمل كيتى ثم سألها : « هل أنت متعبة بعد
رحلتك ؟ » .

— بعض الشىء ..

— أتحبين أن تصعدى لتلقى على جثتها نظرة وداع ؟

— أجل .. سأصعد فوراً .

— هل تريدين أن آتى معك ؟

وكان فى لهجة أبيها ما حملها على أن تلتفت إليه فى عجلة ، فإذا
وجهه مشيح عنها قليلا ، مما نم عن رغبته فى أن لا ترى ما كان يلتمع
فى عينيه .. على أن كيتى اكتسبت فى محنتها الأخيرة كفاءة فذة فى
قراءة أفكار الغير ، فلقد كانت تجهد كل إدراكها — يوماً بعد يوم —

لتستشف من وراء كلمة عابرة من زوجها ، أو حركة صدرت منه
دون تحوط ، ما كان يكمن فى أعماق ذهنه من أفكار !

وحدست لفورها ما كان أبوها يحاول أن يخفيه عنها : كان يشعر
بالارتياح .. ارتياح لا نهاية له .. وكان خائفاً من نفسه ! لقد ظل
ثلاثين عاماً طويلة وهو زوج طيب أمين ، فلم ينبس بكلمة واحدة
تنتقص من قدر زوجته ، ثم إذا هو مضطر الآن لأن يحزن عليها !
لقد ظل دائماً يأتى من الأمور ما كان يرتقب منه أداؤه ، لذلك كان
من بواعث ذعره أن يشى ، باختلاجة من جفنه ، أو بأتفه حركة
تصدر عنه ، بأنه لم يكن يشعر فى الظروف القائمة بما ينبغى أن يشعر
به الزوج من حزن ولوعة على زوجته !

وقالت كيتى أخيراً : « لا .. أوثر أن أذهب وحدى » .

وصعدت السلم ، وقصدت إلى غرفة النوم الرحبة ، ذات الجو
البارد المتكلف ، التى كانت أمها تنام فيها منذ سنوات عديدة .
وكانت كيتى تتذكر بجلاء قطع الأثاث الثقيلة المصنوعة من خشب
« الماهوجنى » المزركشة بالنقوش المحفورة التى تتلاءم مع نقوش
الجدران .. وكانت الأشياء التى تحملها منضدة الزينة مرتبة فى دقة
بالغة ، انتهجتها مسز جارستن طيلة عمرها فى تشبث وإصرار .. وبدت
الأزهار التى أحيطت بها الجثة ، كأشياء غريبة عن جو الحجرة ، إذ
كانت مسز جارستن ترى أن الأزهار فى غرفة النوم من الأشياء النابية ،
الضارة بالصحة .. ولم يقو عبير هذه الأزهار الموجودة على التغلب

على الرائحة اللاذعة التى تذكرت كيتى أنها من المميزات الدائمة لمخدع أمها ، رائحة الثياب الحديثة الغسل ..

وكانت مسز جارستن مسجاة على السرير ، وقد ثنيت ذراعاها على صدرها فى دعة ما كانت لتصبر عليها فى حياتها . وبدت بقسماتها الدقيقة الواضحة ، وخديها الغائرين من جراء المرض والألم ، وصدغيها الضامرين .. بدت مليحة ، بل ذات طلعة أخاذة ، فلقد جرد الموت وجهها من كل ضعة ، ولم يترك سوى طابع شخصيتها ، حتى لقد كان من الممكن أن تؤخذ على أنها إمبراطورة رومانية ؟! وبدا لكيتى من الغريب أن تكون أمها هى الوحيدة — بين من رأت من موتى — التى لاح أن الموت قد ترك عليها سمة تنم عن أن هذا الجسد الذى خلق من طين كان يعمر يوماً بروح حية !

وما كان بوسعها أن تشعر بأسى ، فلقد كان بينها وبين أمها من الضغائن ما لم يبق على شعور من الحب فى قلبها ! وكانت إذا استرجعت أيام صباها ، أدركت أن أمها هى التى دفعتها إلى مصيرها الذى انتهت إليه .. بيد أنها مالبثت أن أحست بحزن غامض وهى تتفرس فى تلك المرأة الصعبة المراس ، المتسلطة ، الطموح ، التى رقدت فى سكون وسكينة وقد حنط الموت كل أهدافها الحقيرة ! لقد قضت عمرها كله تدبر وترسم وتتآمر من أجل أهدافها ، وما اشتهت سوى كل وضيع تافه .. وحارت كيتى وساءلت نفسها : أتراها تطل من عالم

آخر — فى جزع واستبشاع — على ما سلكت فى حياتها الدنيوية من مسلك رخيص ؟

وأقبلت دوريس ، فابتدرت أختها : « لقد توقعت أن تأتى فى هذا القطار .. وشعرت بأن لابد لى من أن آتى لألقى نظرة أخيرة .. أليس هذا بالمصاب الفظيع ؟ أواه ياأمى الحبيبة المسكينة ! » .

وانفجرت باكية وهى تلقى بنفسها فى أحضان كيتى ، فقبلتها هذه .. كانت تدرك أن أمها أهملت دوريس من أجلها ، وكانت تبدى لها الجفاء لأنها كانت عادية الجمال ، بليدة ، فساءلت نفسها : أحقاً كانت دوريس تشعر بالحزن البالغ الذى أظهرته الآن ؟ على أن دوريس كانت دائماً عاطفية ، سريعة التأثر .. وتمنت كيتى لو استطاعت أن تبكى ، وإلا ظنتها دوريس قاسية القلب .. غير أن كيتى أحست أنها خاضت من النوائب ما لم تعد تستطيع معه أن تتظاهر بحزن لا تحس به !.. وسألت أختها حين خفت حدة بكائها : « هلا جئت لترى أباك ؟ » .. فجففت دوريس عينيها — ولاحظت كيتى أن الحمل قد أصاب ملامحها بانتفاخ ، وأنها بدت فى ثوبها الأسود ضخمة ، مكتنزة البطن — وأجابت دوريس : « لا .. ما أحسبنى أريد أن أراه ، إذ لن أتمالك أن أبكى مرة أخرى . يا للعجوز المسكين ، إنه يتحمل الصدمة فى جلد رائع .. » .

وودعت كيتى أختها لدى الباب الخارجى للبيت ، ثم عادت إلى أبيها ، فإذا به يقف أمام المدفأة ، والصحيفة قد طويت بعناية — كأنما

أراد أن يظهرها على أنه لم يعد إلى قراءتها — وقال : « لم أرتد ثياب العشاء ، إذ لم أر ضرورة لذلك » :

— ٨٠ —

● وتناولا العشاء معاً .. وأخذ مستر جارستن يفضى إلى كيتى بدقائق مرض زوجته ووفاتها ، وحدثها عن عطف الأصدقاء الذين كتبوا إليه — فقد كانت ثمة أكوام من رسائل التعزية على مكتبه — وكان يزفر فى ضيق وهو يفكر فى مشقة الرد على أصحابها .. كما حدثها عن الإجراءات التى اتخذها للجنازة ..

وعاد إلى غرفة المكتب : كانت الغرفة الوحيدة المجهزة بمدفأة ، وفى حركة آلية تناول من رف المدفأة غليونه وشرع يحشوه بالتبغ .. لكنه ما لبث أن رمق ابنته موجساً ، ووضعه جانباً ، فسألته : « أو لن تدخن ؟ » .

— لم تكن أمك تحب رائحة التبغ بعد العشاء .. كما أننى تخليت عن السيجار منذ الحرب ..

وخفق قلب كيتى تأثراً لجوابه . كان من الفظيع أن يتردد رجل فى الستين من عمره فى التدخين فى غرفة مكتبه وفق هواه .. فابتسمت قائلة : « إننى أحب نكهة التبغ » .. وإذ ذاك تجلت على وجهه نفحة خفيفة من الارتياح ، وتناول غليونه مرة أخرى فأشعله .. وجلسا كل قبالة الآخر ، إلى جانبى المدفأة . وأحس الأب بميل إلى أن يتحدث إلى كيتى عن متاعبه ، فأخذ يقول : « أظنك تلقيت الخطاب الذى

أرسلته أمك باسمك إلى بورسعيد .. لقد كان نبأ وفاة وولتر صدمة أليمة لكل منا ، فقد كنت أراه شاباً بالغ اللطف » .

لم تحر كيتى تعليقاً ، فاستطرد قائلا : « لقد أنبأتنى أمك بأنك حامل » :

— أجـل ..

— ومتى تتوقعين أن تضعى مولودك ؟

— خلال أربعة شهور تقريباً ..

— لسوف يكون سلوى عظيمة لك .. يجب أن تذهبى فترى ابن دوريس . إنه طفل لطيف ..

وكانا يتحدثان فى كلفة وفتور يفوقان ما كان ليسيطر على حديثهما لو أنهما كانا غريبين التقيا للمرة الأولى .. إذ لو كانا غريبين حقاً ، لكان التقاؤهما لأول مرة وفضولهما كفيلين بأن يذيبا الفتور .. أما هما ، فقد كان لهما ماض مشترك ، قام كسياج من « عدم المبالاة » يفصل بينهما ! وكانت كيتى تدرك تماماً أنها لم تفعل ما يكسبها حب أبيها ، فما كان له قط اعتبار فى البيت ، فى نظرها ، أكثر من أنه مكلف بأن يكسب عيش الأسرة .. بل كان موضع هوان إلى حد ما ، لأنه لم يكن قادراً على أن يوفر لأسرته مزيداً من النعيم .. ومع ذلك ، فقد كانت قضية مسلماً بها لدى كيتى أنه كان يحبها لمجرد أنه أبوها ، لذلك كانت صدمة لها أن تبينت الآن أن قلبه كان خالياً من أى شعور نحوها ! .. لقد كانت تدرك أنهن جميعاً كن يضقن به ، ولكن لم يخطر لها ببال

أنه هو الآخر كان يضيق بهن .. كان كريماً ، مغلوباً على أمره ، ولكن بعد النظر الذى أكسبها إياه الحزن والألم أوحى إليها بأنه كان فى أعماقه يكرهها ، وإن لم يعترف لنفسه بذلك ، وما كان ليعترف به !

وسد التبغ غليونه ، فنهض يبحث عن شيء يسلكه به .. أو لعله كان ينتحل عذراً ليخفى انفعاله وهو يقول : « لقد رغبت أمك فى أن تمكثى هنا حتى تضعى مولودك ، وكانت تعتزم أن تعد لك غرفتك القديمة » ..

ـ أجل .. وأنا أعدك بأنى لن أزعجك أو أثقل عليك .

ـ آه ، ليس هذا ما حفلت به .. ففى الظروف القائمة يكون الملجأ الوحيد الذى تأوين إليه هو بيت أبيك . ولكنى فى الواقع تلقيت عرضاً لأتولى منصب رئيس قضاة جزر (بهاما) ، وقد قبلته .

ـ أوه يا أبت ، إننى جد مسرورة .. أهنئك من كل قلبى !

ـ لقد تلقيت العرض متأخراً فلم أجد فسحة كى أنبىء أمك ، إذ كان ولا بد كفيلا بأن يرضيها كل الإرضاء .

ألا ما أمر سخرية القدر ! لقد ماتت مسز جارستن بعد طول الكفاح والتدبير وتحقير النفس ، دون أن تدرى أن المطمع الذى بذلت من أجله كل هذا ، والذى تطور وأصابه التعديل عقب كل مرة من مرات الإخفاق السابقة .. قد تحقق أخيراً !

ومضى الأب يقول : « لسوف أبحر فى أوائل الشهر القادم ، وسأعهد بهذا البيت ـ طبعاً ـ إلى أحد السماسرة ، فقد عزمت على

أن أبيع الأثاث . ويؤسفنى أننى لن أملك أن أكفل لك إقامة هنا ، ولكننى سأسر غاية السرور بأن أمنحك ما شئت من الأثاث لتؤثثى مسكناً لك .. » .

وحدقت كيتى فى نار المدفأة ، وقد تسارع وجيب قلبها .. كان من الغريب أن تشعر فجأة بانفعال طاغ ، ولكنها لم تلبث أن غصبت نفسها على الكلام ، فتساءلت بصوت متهدج : « أو لا أستطيع أن أصحبك يا أبى ؟ » .

ففغر فاه ، وهتف : «أنت؟ أوه يا كيتى .. يا ابنتى العزيزة!» .

وما كانت قد سمعت هذا النداء كثيراً ، حتى لقد خالته لأول وهلة عبارة عادية .. لكنها لم تلبث أن رأت مدلوله قد صيغ بحيث أذهلها .. فقد استطرد أبوها : « لكن كل أصدقائك هنا ، ودوريس كذلك .. لقد خيل إلى أنك ستكونين أسعد حالا لو أنك أعددت لنفسك مسكناً فى لندن . لست أدرى ظروفك تماماً ، ولكننى مستعد ـ بسرور تام ـ لأن أدفع عنك أجر المسكن .. » .

ـ إن لدى من المال ما يكفى لأن يقيم أودى ..

ـ لكنى سوف أذهب إلى مكان غريب ، لا أعرف شيئاً عن ظروفه وأحواله ..

ـ لقد اعتدت الأماكن الغريبة ، فلم تعد للندن عندى أية قيمة .. بل إننى لا أكاد أتنفس هنا .

وأغمض عينيه لحظة خيل إليها خلالها أنه يوشك أن يبكى ،

فقد انعكست على وجهه أجلى مظاهر التعاسة ، مما خفق معه قلبها إشفاقاً عليه .. إنها كانت على صواب حين حدست أن وفاة زوجته قد ملأت قلبه ارتياحاً ، إذ حانت له الفرصة كى يقطع ما بينه وبين الماضى تماماً ، ويحظى بالحرية .. ولقد رأى أمامه الآن حياة جديدة تتفتح ، وتبدت له أخيراً — وبعد هذه السنوات الطوال — رؤى الراحة ، وسراب المناه .. فخيل إلى كيتى كأنها ترى وتلمس — فى شيء من الغموض — كل الآلام التى ظلت تضنى فؤاده ثلاثين عاماً !

وفتح عينيه أخيراً ، ولم يتمالك زفرة أفلتت منه .. ثم قال : « إذا كنت راغبة فى القدوم ، فلسوف يكون هذا بالطبع من دواعى سرورى .. » .

وأحست برثاء له .. كانت المعركة قصيرة ، وقد اضطر للاستسلام لشعوره بالواجب .. وودع — بهذه الكلمات — كل آماله .. فنهضت عن مقعدها وسارت إليه ، وركعت أمامه ممسكة بيديه ، وقالت : « لا ، يا أبت .. لن آتى ما لم تكن راغباً فى ذلك .. إنك قد ضحيت بما فيه الكفاية ، فإن كنت راغباً فى الرحيل وحدك ، فارحل ، ولا تفكر فى أمرى دقيقة واحدة .. » .

فخلص إحدى يديه منها ليربت رأسها الرشيق ، وقال : « بل إننى أريدك طبعاً يا عزيزتى .. ولا تنسى أننى — رغم كل شيء — أبوك ، وأنك أرملة ، ووحيدة .. فإن شئت أن تكونى معى ، فمن الجحود حقاً أن لا أكون راغباً فى صحبتك » .

— ولكنك مخير .. إننى لا أطالبك بشيء لأنك أبى ، فأنت غير مدين لى بشيء ..

— أواه ، يا طفلتى العزيزة ..

فرددت ما قالته : « لست مديناً لى بشيء .. إن قلبى ليثقله الأسى كلما فكرت كيف أننا كنا نرهقك استغلالا دون أن نمنحك شيئاً فى مقابل ذلك .. حتى ، ولا قليلا من العطف .. أخشى أنك لم تنعم بحياة سعيدة حقاً ، فهلا تحب أن تتيح لى الفرصة كى أعوضك بجزء مما أخفقت فى عمله فى الماضى ؟ »

عبس قليلا ، وقد حيرته فورتها العاطفية ، ثم قال : « لست أفقه ما تعنين ، فما عانيتُ يوماً ما يدعونى للشكوى منك » .

— أواه يا أبت ، إنى قد خضت الكثير من المحن ، وعرفت الآلام ، ولم أكن سعيدة .. إننى لست « كيتى » التى كنتها حين رحلت أول مرة .. إننى ضعيفة إلى أقصى حد ، لكنى لا أحسبنى تلك الرعناء التافهة التى كنتها من قبل .. ألا تتيح لى فرصة ؟ لم يعد لى الآن فى الحياة سواك ، فهلا تركتنى أسعى كى أحملك على حبى ؟.. أواه يا أبت ، إننى وحيدة وتعيسة ، وفى أشد الحاجة إلى حبك !

ودفنت وجهها فى حجره وانخرطت فى البكاء ، فكأنما كان قلبها يتفتت !.. فراح يغمغم : « أواه يا كيتى .. يا ابنتى .. يا صغيرتى كيتى ! » .

ورفعت بصرها إليه ، ثم طوقت عنقه بذراعيها وهتفت :

« أواه يا أبت ! ترفق بى .. دعنا نتبادل العطف والإشفاق » :

فطبع قبلة على شفتيها ، كما لو كان عاشقاً ، وقد بللت دموعها خديه .. وقال : « لسوف تأتين معى بالتأكيد » .

– هل تريدنى ؟.. هل أنت حقاً راغب فى أن أذهب معك ؟

– أجـل ..

– لشد ما أنا شاكرة لك هذا الصنيع ..

– أواه يا عزيزتى .. لا تقولى لى مثل هذه العبارات ، فإنها تبعث فى نفسى حرجاً ..

وتناول منديله فجفف عينيها ، وابتسم كما لم تره يبتسم من قبل .. ومرة أخرى طوقت عنقه بذراعيها وقالت : « لكم سنسعد معاً يا أبى العزيز .. سترى أية بهجة سنحظى بها معاً ! » .

– ما أحسبك نسيت أنك حامل ..؟

– بل يسرنى أن الطفلة ستولد هنـاك ، على مسمع من تكسر أمواج البحر ، وتحت سماء زرقاء صافية ..

فغمغم وعلى شفتيه ابتسامته الخفيفة : « هل حكمت على جنسها من الآن ؟ » .

– إننى أريدها بنتاً ، إذ أريد أن أنشئها على أن لا ترتكب ما ارتكبت من أخطاء .. إننى أكره نفسى كلما استرجعت الذكريات وتأملت أى بنت كنت ! .. على أنى لم أجد الفرصة لأصلح من نفسى ، ومن ثم فسأربى ابنتى على أن تكون حرة ، قادرة على أن تستوى

وتستقر على قدميها .. لن ألد بنتاً إلى هذا الوجود وأحبها وأربيها لمجرد أن يأتى يوم تهفو فيه نفس رجل إلى أن يضطجع معها ، فيقبل فى سبيل إشباع رغبته أن يكفل لها المأوى والعيش بقية عمرها ..!

وأحست بأعصاب أبيها تتوتر ، فما تحدث أبداً فى مثل هذه الأمور ، ومن ثم أذهله أن يسمع هذه الكلمات تنبعث من فم ابنته .. على أنها استطردت قائلة : « دعنى أنطلق بصراحة هذه المرة فحسب يا أبت .. لقد كنت رعناء ، مفسودة ، بغيضة ، لكنى تلقيت أبشع عقاب .. لذلك عقدت العزم على أن أجنب ابنتى كل هذا .. أريدها أن تشب صريحة ، متحررة من الخوف .. أريدها شخصية مستقلة عن سواها ، لأنها الوحيدة التى ستسيطر على قياد نفسها .. وأريدها على أن تأخذ الحياة كما يأخذها أى إنسان حر ، وأن تجعل منها مهمة أفضل مما جعلتها أنا !

– ما هذا يا حبيبتى ؟ إنك تتكلمين كما لو كنت فى الخمسين ، فى حين أن العمر لا يزال ينفسح أمامك .. لا ينبغى أن تثقل المتاعب قلبك ..

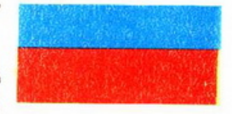
فهزت كيتى رأسها وابتسمت فى تؤدة قائلة : « لست كذلك ، بل إن لدى أملا وشجاعة » :

لقد انتهى المـاضى ، فدع الموتى يدفنون موتاهم .. فهل فى هذا جحود وقسوة قلب؟ إنها لتتمنى بكل قلبها أن تكون قد تعلمت الرأفة والإحسان .. وما كانت لتدرى ما يدخره المستقبل لها ، لكنهـا

أحست فى نفسها القوة على أن تتقبل كل ما يأتيها به ، بروح خفيفة ، مبتهجة :: وفجأة ، لغير ما مبرر تدريه ، انبعثت من أعماق عقلها الباطن رؤى من ذكرى الرحلة التى قاما بها معاً —هى وولتر المسكين— إلى المدينة الموبوءة التى لقى فيها حتفه :. ففى ذات صباح ، استأنفا السفر ولا يزال الظلام مسيطراً على الكون . وفيما كانت أضواء النهار تنبثق ، تمثلت — وكأنها ترى خلال حجب المجهول — منظراً يملك على المرء مشاعره ، حتى لقد أحست بأن هموم قلبها قد انمحت لفترة وجيزة ! منظراً كان جماله خليقاً بأن يزرى بكل بلايا البشر ، فتبدو توافه لا قيمة لها ولا معنى : فقد أشرقت الشمس ، فبددت الضباب :. وإذا الطريق التى كانوا يسلكونها تتغلغل متعرجة ، ملتوية ، إلى أقصى مرامى البصر ، خلال حقول الأرز ، ثم تجتاز نهراً صغيراً ، وتوغل خلال الريف الذى بدا كرؤى متماوجة من نور ! فلعل الأخطاء والخطايا والشقوة التى عانتها كيتى لم تكن عبثاً ، إذا هى استطاعت أن تسلك الدرب الذى يلوح الآن غير واضح أمامها :: لا الدرب الذى تحدث عنه « وادينجتن » الطيب الفكه ، والذى لا يفضى إلى غاية ، وإنما .: الدرب الذى سلكته راهبات الدير العزيزات فى تواضع وخشوع ، وإنكار للذات :. الدرب الذى يفضى إلى السكينة ، والطمأنينة ، والسلام !

[تم الكتاب بحمد الله]

رقم الإيداع : ٤٣٧٩
٩٧٧ — ١٦٣ — ٠٨٠ — ٦





عزيزى القارئ ..

الرواية الممتعة التى تقرأ ترجمتها الكاملة الأمينة فى هذا الكتاب الذى بين يديك ، تعد من أشهر ما كتب الروائى البريطانى المشهور « سومرست موم » وقد جعل عنوانها بالانجليزية THE PAINTED VEIL وترجمته الحرفية (القناع الملون) أو قناع الأوهام كما أطلق عليه حين أخرجت الرواية للسينما العالمية ، لأول مرة عام ١٩٣٤ ، وقد انتجتها يومئذ أكبر شركات هوليود (مترو جولدوين ماير) ، وأدت بطولتها النسائية أشهر ممثلات السينما فى تلك الحقبة ، النجمة السويدية الأصل « جريتا جاربو » ، وأدى دور البطولة أمامها فى ذلك الفيلم النجم المعروف « هربرت مارشال » ، يشاركه فى الدور الثانى زميله القدير « جورج برنت » . وقد أغرى النجاح الأسطورى للفيلم ، الشركة المنتجة ، بإنتاجه مرة أخرى عام ١٩٥٧ تحت اسم آخر هو « الخطيئة السابعة » ، ومثلته فى المرة الثانية النجمة الأمريكية « إليانور باركر » ، بالاشتراك مع النجمين الكبيرين « جان بول أدمون » و « جورج ساندرز »

والآن أتركك لتستمتع بقراءة هذه الرواية الرائعة بنصها الكامل ..



حلمى مراد

